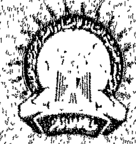


مذاهب وشخصيات



تأليف : ا . ج . ايفانز
ترجمة : أمين سلامه
مراجعة : كمال الملاخ





مذاهب وشخصيات

هيرودوت

تأليف ا . ج . ايفانز
ترجمة أمين سلامة
مراجعة كمال الملاخ



مقدمة المؤلف

صدرت ترجمة هيرودوت بقلم جورج رولينسون لاول مرة في سنة ١٨٥٨ . وكانت تشغل أربعة مجلدات ضخمة ، تتضمن علاوة على النصوص ، مقدمة في ٤٢٠ صفحة ، وعددا كبيرا من المواضيع الانشائية والمذكرات التي مع كونها بالغة القيمة للعلماء ، فانها قليلة الأهمية للقارىء العادى .

في سنة ١٩١٠ ، كتب أ.هـ. بلاكني أعمال هيرودوت ، من تلك الترجمة ، ونشرتها مكتبة افزيمان . وقد حذف منها جميع الموضوعات الانشائية ، واختصر المذكرات ، كما اختصر المقدمة في ٢٠ صفحة . ومع ذلك ، فقد ضمها مجلدان كبيران يحتوى كل منهما على أكثر من ٣٥٠ صفحة .

وفي الطبعة الحالية ، اختصرت المقدمة ايضا ، كما اختزلت نصوص ترجمة رولينسون الى حوالى نصفها الاصلى ، وحذفت جميع المواضيع الانشائية والتذييلات والتعقيبات ، ولم أحتفظ بشيء من المذكرات الا ما ينتظر أن يكون ذا متعة عامة .

ومن المشكوك فيه أن يكون ذلك الاقتضاب القاسي قد عمل بطريقة ترضي جميع عشاق هيرودوت . بيد انه في هذه الايام ، عندما يرغب كثير من القراء في الحصول على معلومات في اللغات القديمة ، يجب اصدار طبعة لهيرودوت يرحب بها كثير من القراء الذين لا يجدون الوقت الكافي لقراءة النصوص الأصلية . وذوق الكاتب هو الاساس الذى اختصرت بمقتضاه هذه النصوص. ومع ان كثيرا من النصوص قد اقتضت الا أن كلمة واحدة لم تضف . واذا كانت هناك صفحات كثيرة يؤلم تركها من يعرفون هيرودوت حق المعرفة ، فاننا نستطيع القول مطمئنين ، ان هذه الطبعة لا تحوى شيئا مما لا يريدون حذفه .

أ.ج. ايفانز



تمهيد

يمكن تحديد العصر الذى عاش فيه هيرودوت ، والذى كتب فيه تاريخه ، الى حد ما من الدقة ، من مؤلفه . فمن ناحية، يبدو انه تحدث الى شخص واحد على الاقل كان شاهد عيان لبعض الحوادث الهامة في الحرب الفارسية . ومن ناحية اخرى عاش هيرودوت بعد بدء حرب البيلوبونيز ، وكان على الملم بكثير من الاحداث التى وقعت في الجزء الاول منها . وعلى ذلك ، لا بد انه عاش في القرن الخامس قبل الميلاد . ولا بد انه كتب بعض أجزاء من تاريخه في زمن مبكر يصل الى سنة ٤٣٠ ق.م وبطبيعة الحال، لا بد ان يكون قد ولد في أوائل ذلك القرن ، وانه من الجيل التالى لجيل فاتحى سالاميس .

من ذلك يمكننا ان نستنتج أن هيرودوت ولد في حوالى عام ٤٨٤ ق.م. أما مسقط رأسه فلا يحوطه أى شك ، سواء في العصور القديمة او في الحديثة . انه من مدينة هاليكارناسوس ، وهى مستعمرة دورية في آسيا الصغرى .

يمكن الحكم على درجة ثقافة هيرودوت من مؤلفه . ولم تصلنا منها اية معلومات خاصة .

يبدو مما كتبه هيرودوت ، انه عب من المنهل الهوميرى حتى ارتوى . ويتضح انه تلميذ هومير ، من تصميم وخطة مؤلفه، ومن ترتيب ونظام أجزائه ، ومن روح وطبيعة افكاره ، ومن عشرة آلاف مصطلح صغير وكلمة ، استعملها . ويظهر جليا انه كان ملما بالملحمتين الاغريقيتين العظيمتين القديمتين ، بنفس الملم الرجل الانجليزى الحديث المثقف ، بشكسبير . ولم تكن معلوماته الواسعة هذه على حساب التضحية بالقراءات الاخرى . فيمكننا ان نتساءل عما اذا كان هناك مؤلف هام واحد ، في جميع الأدب الاغريقى ، أمكنه الحصول عليه ولم يلم به الماما مناسبا .

ان كان هناك شيء محقق عن حياة مؤلفنا هذا ، فهو انه عاش النصف الاول من حياته في آسيا الصغرى ، والنصف الاخر في بلاد الاغريق الكبرى .

ومن الواضح أن زيارته لمصر ، التى تتصل بها رحلاته الاخرى ما في ذلك شك ، كانت بعد ثورة ايناروس (سنة ٤٦٠ ق.م) اذ يقرر أنه رأى جماجم من قتلوا في معركة بابريميس Papremis الكبرى ، التى تسلم بواسطتها ايناروس مقاليد الحكم. ومع ذلك ، فلا يمكن أن تكون بعدها بزمن طويل ، والا لما استقبل بذلك الترحاب الذى سمح له بحرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها . فهناك كل دليل نستطيع به أن نستنتج منه أن زيارته لمصر كانت في فترة السنوات الست ، من ٤٦٠ - ٤٥٥ ق.م. بما فيها أول الفترة وآخرها والتى خلالها احتلت الجيوش الاثينية تلك المملكة ، حيث جعل معروفها المصريين يرحبون بكل اغريقى يزور بلادهم ، ويعاملونه بكل مودة على خلاف غيرتهم العادية من الاجانب . وعلى هذا يكون قد زار مصر بين الرابعة والعشرين والتاسعة والعشرين من عمره .

يحتمل أن يكون هيرودوت قد ظل مقيما في هاليكارناسوس ، مع قيامه برحلات طويلة لجمع المعلومات التاريخية والجغرافية ، حتى قرب عام ٤٤٧ق.م حيث صار في حوالى السابعة والثلاثين من عمره ، وقد وصل بمؤلفه الى درجة معينة من التمام ولو أنه كان أقل مما صار اليه اخيرا . عندئذ انتقل الى بلاد الاغريق نفسها ، وأقام في أثينا . والظاهر أن هاليكارناسوس كانت قد طردت طغاتها قبيل ذلك وانضمت الى الحلف الاثينى . ولذلك رحب بمؤلفنا الصغير من أجل خاطر بلده ، كما رحب به من أجل خاطره هو نفسه ، واذا كان لنا أن نثق بأقوال ايوسيبيوس ، فان مجلس أثينا قرر ، في سنة ٤٤٦ ق.م. مكافأة لهيرودوت عن مؤلفه التاريخى العظيم ، الذى قرأه علنا على أهل أثينا .

ليس من الصعب أن نستنتج السبب الذى دفع مؤلفنا الى مغادرة أثينا مع اعجاب أهلها به ، والاقامة في احدى المستعمرات التابعة لها . فلم يكن يستطيع الحصول على حقوق المواطن في أثينا . وان الاغريقى غير المولع بجمع الاموال او المهتم بدراسة الفلسفة ، ليشق عليه ألا تكون له حقوق سياسية كى يشترك فيما يكون الحياة اليومية ، ويشغل الفكر باستمرار فيما حوله . وقد قال أرسطو : «لا يكون الرجل رجلا الا اذا كان مواطنا» . وهذا هو الشعور الذى كانت تحس به جميع الأمة الاغريقية . وفضلا عن هذا ، كانت الحياة في أثينا شأنها شان سائر العواصم ، باهظة النفقات . وان الثروة التى كانت تعتبر طائلة في هاليكارناسوس ، اذا لم تكن قد نفدت في أثينا ، فانها لا تكاد تمكن الانسان من الحياة فيها . ويدل قبول هيرودوت مبلغا من المال من الشعب الاثينى على ان موارد معيشته كانت قد انخفضت وقت ذاك . ربما تكون موارده قد نضبت من جراء نفقات رحلاته الطويلة ،

تأثرت بمغادرته هاليكارناسوس . وعلى اية حال ، دفعته ظروفهالى الترحيب بالدعوة التى وجهتها أثينا الى المغامرين في جميع انحاء بلاد الاغريق كى يحصل كل منهم على قطعة أرض تجعله فوق مستوى الاحتياج ، وينال فيها حقوق المواطن . وعلى ذلك انضم هيرودوت ، في سنة ٤٤٣ ق.م ، وكان قد جاوز الاربعين من عمره ، بناء على الشهادة الاجتماعية لقدامى الكتاب ، الى فئة المستعمرين الذين أرسلهم بيريكليس ، الى ايطاليا ، وصار من أوائل مستوطنى ثوريوم .

يبدو أن هيرودوت انكب على مؤلفه في ثوريوم ، وكرس له وقته كله .

وفي الوقت عينه ، لا نزاع في أنه كتب مؤلفا منفصلا عن تاريخ آشور ، الذى مال الاتجاه الحديث الى انكار نسبته اليه .

أما زمان ومكان موته فموضعان للجدل . فلا توجد أية علامه في مؤلف هيرودوت تدل على أنه عاش بعد سن الستين . وفضلا على هذا ، تشير بقيــة الادلة الى أنه توفي في ثوريوم وهو في حــوالى الستين من العمر . وبذا يكون قد تجنب الويلات التى مرت بوطنه الجديد أثناء الجزء الاخير من الحرب البيلوبونيزية ، ويكون قد تحاشى ألم رؤية الولاية التى كان من مواطنيها ، وهى تنضم الى صفوف اعداء بلده المحبوب أثينا .

لا جدال اطلاقا في منزلة هيرودوت ككاتب . وان الذين يحطون من مقدرته كمؤرخ ... ليشــيدون بجمــال انشـــائه وأسـلوبه ويعتبرونهما السبب الذى بهر النقاد وجعلهم يرفعون من قـدرته على التاريخ ، ويبالغون في دقة تاريخه . وقلما يوجد صوت ضد هذا الرأى بين عظماء النقاد ، سواء أكانوا من القدامى ، أم من المحدثين الذين يتفقون جميعا على ان مؤلفنــا مثــالى في ترتيب تواريخه ، وجودة انشائه .

وحدة الموضوع أهم ضروريات كل عمل أدبى ، سواء كان شعرا ، او انشاء موضوعيا ، او تاريخا ، أو قصصا . واذ اختــار هيرودوت موضوعا لمؤلفه ، جــزءا خاصا من تاريخ بلاد الاغريق ، وقصر جهوده على سرد الحوادث المتعلقة بموضوعه ، اما مبــاشرة أو عن طريق غير مباشر ، فقد حصل بذلك على وحدة عمل كافية لارضاء اقصى مطالب الفن . وهى في الحقيقة معادلة لصفات أبرع ما انتجه الخيال . فبدلا من أن يضطلع بالعمل المعقد الصعب ، وهو كتابة تاريخ الجنس الهيلينى ابان فترة بعينها ، جلس وفي ذهنه هدف (أولى) ، أن يسجل باخلاص جميع حوادث حــرب معينة ، لم يكن مااختاره لموضوعه الاصلي هو النزاع بين جنسين ، ولا تلك الخصومة في أعنف صورها ــ ذلك النزاع بين الاغارقة والفرس .

بل كان قصده الحقيقي كتابة تاريخ حرب الغزو الفارسي لبلاد الاغـريق ـ ذلك النزاع الذى بدأ بحمـلة ماردونيـوس الاولى ، وانتهى بهزيمـة الاسـطول العظيم والجيش الذى جمعـه وقاده كسيركسيس Xerxes ضد الاغريق ، هزيمة منكرة . وقد كتب الجزء الاول من سرده للامور الداخلية لحملة ماردونيوس في صورة مقدمة يمكننا أن نستخلص منها غرضين . كان الغرض الاساسي لهيرودوت هو أن يروى قصـة قيـام ونمو وتقـدم تلك الامبراطورية العظيمة التى كانت خصم بلاد الاغريق في ذلكالنزاع. أما غرضه الثانوى فهو ببيان الظروف التى دعت الى قيام العداوة والحرب بين هاتين الامتين . وكلا هذين الفرضين ذو علاقة وثيقة بالغرض الاصلى من ذلك التاريخ ، فأحدهما ضرورى للحصول على معلومات دقيقة لتقـدير عظمة تلك الحرب والامجاد التى يحظى بها من ينتصر فيها . والغرض الثانى ضرورى لابداء الاسباب التى دعت الى نشوب الحـرب ، وليلقى ضوءا هاما على سير الغـزو وسلوك الغزاة .

لو اقتصر هيرودوت في كتابته على هذه العنـاوين الثلاثة ، وهى : نمو الامبراطورية الفارسية ، والعداوة السـابقة بين بلاد الاغريق وفارس ، والسير الحقيقى لتلك الحـرب العظمى ، لكان تاريخه ضعيفا هزيلا يفتقر الى التنوع . ولكى يتحاشي هيرودوت هذه النتائج ، تراه ينتهز كل فرصة تسنحله ، فينحرف عنالسرد الاصلى ويضمنه شيئا من معلوماته الواسعة المتنوعة ، سواء كانت تاريخية أو جغرافية او في علم الآثار . وهكذا وضع امام مواطنيه صورة عامة عن الدنيا وعن مختلف أجناسها ، وعن التاريخالسابق لتلك الشعوب ذات التاريخ ، وأضفى على مؤلفه عظمـة واتسـاعا وضعاه في مصاف تواريخ الدرجة الاولى . وقد اهتم في الوقتنفسه بتنويع صفحات مؤلفه ، فنثر بين قصصه الجـدية قصصا قصـيرة وأوصافا من نوع اخف صارت تذييلات لطيفة للسرد الاصلى تضفى روحا تخفف من ثقل النغمة العامة . ومن الخواص الرائعةالواضحة في هيرودوت ، والتى لاحظها جميع النقاد ، تنوع وجزالة مـواد الحلقات التاريخية . لقد نجح هيرودوت في ربط حلقاته بالموضوع الاصلى ، وذلك بدقته الفائقة ، وحكمه العظيم على الاحـداث ، ومثابرته الفذة على العمل . وبذا حافظ على سلامة الموضوع من التعقيد والتضارب ومقاطعة السرد العام .

أما عن وحدة الاسلوب في خطة تأريخـه فيمكننا ان نعترف بروعة رسمه للشخصيات ، رسما ناجحا قوى التأثير ، سواء أكانت تلك الشخصيات شعوبا ام أفرادا .وان تصويره للشعوب الاصليين الذين تناولهم سرده ، وهم : الفـرس والاثينيون والاسبرطيون ، لتصوير تسجيلى في غاية الابداع . فنراه يصور الشعب الفارسي القديم ، شجاعا نشيطا متوثبا ، قادرا على قول الحكم والامثـال

في مواضعها الحقة والردود المقنعة ، غير انه ، مع ذلك ، ضعيف عاطفي يطيع حكامه طاعة عمياء . فيوضح هذا هيرودوت في صفحات مؤلفه بأسلوب تصويري دونه تصوير المصورين الفرنسيين شاردان وموريه ، اللذين صورا الفرس المحدثين في القرن الثامن عشر بعد الميلاد ، من نسل أولئك القدامى . وقد ميز هيرودوت هذا الشعب عن بقية الشعوب البربرية الاخرى، فابان رقة اخلاقه ومرحه اللذين يقربانه من الجنس الهيليني . ولكنه يناقض الاغارقة في هجرانه العاطفي وخضوعه في ذلة لاوامر حكامه المستبدين . كل هذا يتجلى بوضوح في ثنايا مؤلف هيرودوت ، بأسلوب يؤكد صحة المعلومات وينم عن الحقيقة الخالصة ، ويربط أولئك القوم بالمستشرقين الغريبي الاطوار ، وهم « الفرنسيون المقيمون في بلاد الشرق » ، الذين كانوا يعيشون في بلادهم وقتذاك . ولما كان الشعب الفارسي القديم نشيطا حيويا ذكيا المعيا رشيقا ولكن في غير كرامة ولاكبرياء بل كان ذليلا متملقا ، فاما أن يكون طاغية جبارا أو يكون عبدا ذليلا ، فانه يناقض امم الشرق الاخرى التى اما أن تتصف بالفظاظة والجرأة والغطرسة وحب الحرية ، كالاكراد والافغانيين ، أو بالخمول والاستهتار كالهندوس . وان استمرار تصوير الشخصيات المنقطع النظير هذا ، ليؤكد اخلاص وصدق مؤلفنا الذى يبدو حتى في القسم الزخرفي من موسوعته التاريخية ، مقصورا على ذكر الحقائق الواقعية .

أما الاغارقة فيختلفون عن الفرس اختلافا صارخا في كثير من الوجوه ، نرى ذلك التناقض بوضوح في الخلق الاغريقى الذى يميز الاجناس الدورية الاصل Doric ويتخذ اكمل مظاهره بين الاسبرطيين . فتدل الصورة التى رسمها هيرودوت على القوة والمهارة وصور الاسبرطيين أمام أعيننا بعدد قليل من اللمسات المتقنة وببعض القصص المختارة والملاحظات الحادة ، بين الفينة والفينة . بهذا يصورهم أمامنا ، كأفراد وكشعب ، بطريقة تسجيلية ربما تفوق فيها على اى كاتب آخر . فنلمس من خلال سرده اعتزازهم ، بأنفسهم ، وروحهم المولعة بالاستقلال ، وخضوعهم التام لقوانينهم عن رغبة خالصة ، وشدة بأسهم وقوتهم كجيش محارب ، وحكمتهم البالغة . كل هذا في أسلوب تتخلله بعض لمسات من الدعابة والمرح . وفي الوقت ذاته ، نراه لا يني عن ابداء الجانب الأسود من أخلاقهم فيبدى بجانب أنانيتهم وتأخرهم وشدة حذرهم في السياسة الشعبية ، وخداعهم ومرائهم وتملقهم في بعض الاحيان، وعدم قدرتهم على مقاومة السلطات المحتلة ، واستعدادهم لقبول الرشوة، وقسوتهم وافتقارهم التام الى الرأفة سواء نحو الاصدقاء أو الاعداء . يرسم لنا هيرودوت صورة كاملة لكل هذا ، ليست اخاذة في مظهرها بأكثر مما هى رائعة في استمرارها ، وتتفوق على كل ما نعرفه من المصادر الاخرى لأئمة رجال الاغريق .

يتجلى مثل ذلك الاخلاص والقوة الوصفية في الصورة التى يقدمها لنا عن الاثينيين . فهم كالاسبرطيين يحبون الاستقلال والحرية ، بواسل ماهرون في القتال ، يتفانون في محبة وطنهم . ومنذ أن صارت لهم حكومة تتفق واحتياجاتهم ، أحبوها وتمسكوا بها . كذلك يشبهون الاسبرطيين في القسوة وعدم الرحمة بخصومهم . ويختلفون عنهم في صراحة سياستهم الشعبية ونشاطهم وحبهم للعمل الى درجة التهور ، وثبات أخلاقهم ، وهم يميلون الى المباهاة أكثر من الكبرياء . ونراهم كجنود يتصفون بالاقدام أكثر من الثبات أما أخلاقهم فرقيقة وعالية . وهم أذكياء كرماء للضيف يحبون الاناقة وحسن المظهر . ونراهم في بعض الظروف أكثر اعتدالا وانكارا للذات من أغلب الاغارقة ، ويملكون ، الى حد معين روحا كريمة من الهيلينية الكلية ، واذ أعجب هيرودوت بالخدمات التى قدمها الاثينيون للفرض المشترك ابان الحرب العظمى ، فربما يكون قد بالغ في ادعائهم بهذه الصفة الاخيرة . فعلى الاقل ، سنجد أن اهتمامه الشخصي بهم قد فسر سلوكهم ابان النضال تبعا لميله اليهم . وتدل الظروف التى حدثت قبل الحرب وبعدها ، على انه لم يكن لديهم أى شك في استدعاء الفرس لمقاتلة أبناء جلدتهم في الوقت الذى توقعوا فيه الربح من ذلك العمل . كما لا يجب أن ننسي ، فى أى تقدير للخلق الاثينى ، انهم ضربوا المثل في الاستعانة بالفرس ضد اعدائهم الهيلينيين . لا نزاع في أن الظروف كانت وقتذاك قاسية ، وأن عزمهم على عدم قبول المساعدة على حساب التضحية باستقلالهم كان خليقا بروحهم العالية كأمة . بيد انه لا تزال هناك حقيقة أن العدو المشترك قد عرف ، عن طريق دعوة أثينا ، مقدار ما كانت تأمل فيه من وراء ذلك النزاع الداخلى والغيرة المتبادلة بين الولايات الاغريقية .

من الشخصيات الفردية التى أبدع مؤلفنا في تصويرها ، ملوك الفرس الاربعة الذين تناولهم سرده ، والملوك الاسبرطيون كليومينيس ، وليونيداس، وباوسانياس ، ورجال السياسة والقواد الاثينيون : تيميستوكليس وأرستيديس ، والطغاة : بير ياندر وبولوكراتيس وبيزيستراتوس واماسيس ملك مصر ، وكرويسوس ملك ليديا .

ولم تصور شتى ألوان الخلق والذوق الشرقيين بأروع من الصورة التى قدمها لنا هيرودوت عن أربعة الملوك الاخايمينيين الاوائل ، وهم : كوروس الزعيم الجبلى الساذج الشديد البأس البالغ النشاط ، والموهوب بالطموح البالغ والنبوغ الحربى العظيم ، الذى تغير عندما اتسعت مملكته الى ملك طيب القلب وصدوق يعتبر نفسه أبا لشعبه .. فكان حليما مؤدبا في معاملة رعاياه . وقمبيز الذى كان الصورة الاولى لطغاة الشرق ، ورث عن ابيه

القوة وكثيراعن مواهبه. غير أن ظروف مولده وتربيته العسكرية أفسدته فصار قاسيا متهورا عنيدا لا يكبح جماح نفسه ، يثور اذا عورض. ولم يكن قاسيا فحسب ، بل ومتوحشا أيضا ، وداريوس الذى كان مثال الامير الشرقى ، شجاعا ذا عقل راجح وداهية ، بارعا في كل من فنون الحرب والسلم . نظم ووحد امبراطوريته ، كما عمل على توسيع رقعتها . وعلاوة على ذلك ، كان رقيق الاحساس محبا لاصدقائه حليما وكريما في معاملته لاعدائه المدحورين ولم يلجأ قط الى القسوة الا في مراعاة النظام عندما يحتاج كيان امبراطوريته الى قدوة ، وكسيركسيس ، الذى كان الصورة التالية للطاغية وأقل منه كان ضعيفا طائشا في عقلية الاطفال ، كما كان انانيا وقاسيا وجبانا ومتقلبا ومنحل الاخلاق ومترفا . تلعب به النساء وكذلك رجال الحاشية في سهولة . وعلاوة على ذلك كان يعتقد في الخرافات مغترا بنفسه خاليا من الشهامة والنخوة الحقة ، ولا يبدى كرم الخلق الا في بعض المناسبات النادرة عندما لا يحدث ما يعكر صفو مشاعره .

علاوة على مهارة هيرودوت في تصوير الشخصيات ، نراه قوى التأثير على العواطف وهى ميزة لايدانيه فيها الا قليل من الكتاب سواء أكانوا مؤرخين أم غير مؤرخين ، ومن أمثلة ذلك قصة زوجة انتافيرنييس وهى تبكى وتعول باستمرار أمام باب الملك ، وقصة بسامينيتوس وهو جالس في ضاحية عاصمته يشاهد بعينى رأسه ابنته تخدم كعبدة ، وابنه يساق الى الموت ، ومع ذلك « لا يبدى أية علامة على الحزن » ، وانما ينخرط في البكاء عندما يمر به صديق قديم ويسأله صدقة . هاتان القصتان مثلان لروعته في ذلك المضمار ، في محيط كتاب واحد، يصعب أن نجد لهما مثيلا في جميع مؤلفات أى مؤرخ آخر . بيد أن أعظم نموذج لجدارته في هذا المجال ، موجود في قصة كرويسوس . ومما استرعى انتباهنا تماما أن المجلد الخاص بأشهر الروايات ، يتضمن حكايات جميلة القصص علاوة على قصة موت آتيس .

وكذلك يشمل تقريظنا قصة حياة كرويسوس ، منذ زيارة سولون الى منظر وضع الجثة فوق كومة الحريق ، التى هى من أروع قصص اثارة العواطف ، اذ تتجلى فيها قوة تراجيدية من الطراز الاول .

ربما كان أعظم مظهر جذاب في جميع مؤلف هيرودوت هو التنوع العجيب . فلا يسترسل قط في السرد مدة طويلة دون أن يضمنه مادة استطرادية طريفة من غير أن يطيل فيها اطالة تبعث على الملل . وكمؤرخ ، نراه يبز غيره في تنوع معلوماته ، اذ يحاول أن يضع العالم المعروف كله تقريبا في نطاق قصته ، ويلقى نظرة على الماضي في بدء قصة كل دولة وكل امبراطورية . فيضع أمام

هيوننا منظرا شاملا للتاريخ ، به محل لجميع الماضي والحاضر ، والقريب والبعيد ، والممالك المتحضرة والقبائل البربرية ، والملوك والكهنة والحكماء والمشرعين والقواد ورجال البلاط والافراد العاديين ... محل يصور ببراعة مالهم وما عليهم ، ويقدمهم لنا في مهارة جذابة . كذلك ، من أعظم مايلفت الانظار تنوع أسلوبه الذى استخدمه بنجاح متساو في كل من الوصف والقصص . ونلاحظ فيه بوضوح علاجه الفذ للموضوعات العاطفية ، وانهماكه بين آونة وأخرى في الموضوعات التراجيدية دون أن يكون عاطفيا كما في حالة اسطورة جوجيس ، وقصة موت كوروس ، وانتحار كليومينيس وفوق كل هذا ، المشهد الرائع الذى يصور آخر لحظات في حياة بريكساسبيس حيث بلغ هيرودوت الذروة في هذه ، وفي روايته لقصة موت آدراستوس .

أعظم ميزة لمؤلفنا ، وآخر ما يستحق انتباها خاصا ، بساطته وسهولته . فسرده وأفكاره ينسابان في سلاسة طوال مؤلفه . فنراه يكثر من استعمال الكلمات الشائعة والمألوفة ، ويتحاشي المحسنات اللفظية والصور البلاغية ، الامر الذى استرعى انتباه جميع النقاد ونال اعجابهم . ليس الانشاء فنا عند هيرودوت ، بل هو تدفق تلقائي للالفاظ والعبارات . فلا يضفي رشاقة مصطنعة على أسلوبه ، ولايتكلف العبارات البلاغية بل يكتب كما يقوده موضوعه . يرتفع معه ، ولايعلو فوق مستوى الحشمة الطبيعية أو يصل الى حد الالفاظ الزخرفية ، ليست كلماته بسيطة وعادية فحسب ، بل وتركيب جمله في غاية البساطة والبعد عن التعقيد . وكما لاحظ أريسطو ، لا يكتب هيرودوت بعبارات متكلفة ، وانما بجمل مستمرة التدفق لاتنتهي الا عندما يتم المعنى . ولهذا كان اسلوبه واضحا رقراقا ، ليس بمتكلف ولا جاف ، ولايترك مجالا للشك في معانيه .

لا تنطور بساطة أسلوب هيرودوت من عدم التكلف والعبارات المألوفة الى الفظاظة والخشونة . فأسلوبه كامل حر متدفق ، ونلمس فيه اختلافا واضحا عن الاسلوب الجاف والعبارات المقتضبة للمؤرخين السابقين . ولو ألقينا نظرة على بعض قطع من مؤلفات كتاب الاغريق المبكرين ، التى وصلت الينا ، لدهشنا لجفاف أسلوبها وبدائيته وعدم حيويته ، حتى ولو كان ذلك من أعمال أشهر المؤرخين السابقين أو المعاصرين لمؤلفنا واذا قارنا أسلوب هيرودوت بأسلوب الكتاب العاديين في عصره ، حصلنا على وسيلة دقيقة لتقدير الفترة التى تفصل بين هيرودوت ككاتب ، وبين من سبقوه . وهذه فترة عظيمة بدرجة تجعل الاسلوب الانشائى الذى كتب به هيرودوت ، نوعا من الفن الجديد وتجعله جديرا حقا باللقب الذى لم ينازعه فيه أحد وهو « أبو التاريخ » .




هيرودوت

****



الفصل الاول

****

أسطورة أبووجوجيس

هــذه هى أبحاث هيرودوت الهاليكارناسى ، التى نشرها أملا فى المحافظة على أعمال الغابرين من الضياع ، ولكيلا تفقد عظائم الاعمال التى قام بها الأغارقة والبرابرة حقها من التقدير والاجلال • وعلى العموم،لكى يسجل أسباب عدائهم ومنازعاتهم •

تبعا لأكثر رجال الفرس معرفة بالتاريخ ، كان الفينيقيون هم الذين بدءوا بتلك المعاكسات ، فما أن هاجر أولئك القوم الى بلاد البحر المتوسط ، واستقروا فى المناطق التى يقيمون فيها الآن ، حتى شرعوا ، كما يقال ، فى القيام برحلات طويلة ، يحملون سفنهم من منتجات مصر وأشـــور • فنزلوا فى عدة أماكن على ساحل ذلك البحر ، ومنها أرجوس التى كانت ضمن الولايات المنضمة وقتذاك تحت الاسم العام « هيلاسى » • عـرض الفينيقيون بضائعهم على سكان ارجوس ، وظلوا يتاجرون هناك مدة خمسة أو ستة أيام • وفى نهاية تلك المدة ، وكانوا قد باعوا كل ما معهم تقريبا حضر الى الشـــاطىء عدد من السيدات ، من بينهن ايو IO ابنــة الملك ايناخوس الذى كان ، كما قيل ؛ متفقا مع الاغارقة فى رواية نفس هـــذه القصة • وقفت النساء عند مؤخر السفينة منهمكات فى مشترياتهن ، فاذا بالفينيقيين يصرخون جميعا صرخة واحدة ، وينقضون عليهن • فهـرب أغلب السيدات ، بيد أن المعتدين خطفوا كثيرا منهن وحملوهن الى عرض البحر • وكانت ايو نفسها ضمن المقبوض عليهن • حمل الفينيقيـــون النساء فى سفينتهم وأقلعوا بهن الى مصر • وهكذا كان ذهاب ايو الى مصر تبعا للقصة الفارسية التى تختلف اختلافا بينـــا عن رواية الفينيقيين • وهكذا بدأت أيضا سلسلة من أعمال العنف ، تبعا لروايتهم •

بعد ذلك بزمن ما ، نزل بعض الاغارقة فى مدينة تورى على الساحل

الفينيقى ، ولا يعرف الرواة أسماء هؤلاء الاغريق . ولكن ربما كانوا من الكريتيين . فخطفوا يوروبى ، ابنة ملكها . وبهذا انتقموا لخطف أيو ابنة ملكهم . بيد أن الاغارقة ، كما يقولون ، قاموا بعمل عدوانى ثان . اذ استقلوا سفينة حربية وأبحروا الى آيا احدى مدن كولخيس الواقعة على نهر فاسيس وبعد أن أنجزوا المهمة التى حضروا من أجلها خطفوا ميديا ابنة ملك تلك البلاد. فأرسل الملك رسولا الى بلاد الاغريق يطلب التعويض عن تلك الاساءة واعادة الطفلة. بيد أن الاغريق ردوا عليه بأنهم لم يتسلموا تعويضا عن اساءة خطف ايو الارجوسية ولذلك فهم لن يدفعوا تعويضا عن اساءتهم هذه .

فى الجيل التالى لذلك الجيل، تبعا لنفس الرواة ، كان الكسندر بن بريام يحتفظ بهذه الامور فى ذهنه ، وعزم على أن يخطف لنفسه زوجة من بلاد الاغريق . ومما قوى عزمه هذا أن الاغريق لم يكفروا عن أعمالهم العدوانية وعلى ذلك لا يحق له أن يكفر عن أى عمل عدوانى يقوم به . وهكذا خطف هيلين وعند ذلك قرر الاغارقة قبل الالتجاء الى أية اجراءات أن يوفدوا من قبلهم رسلا يطلبون اعادة الاميرة وترضية عن تلك الاهانة فقوبل طلبهم بالاشارة الى العدوان السابق بخطف ميديا ، وسئلوا بأية وجوه جاءوا يطلبون الترضية بينما سبق لهم أن رفضوا كل طلبات الترضية أو اعادة من خطفوهن .

بناء على هذا ، كانت الاضرار الحادثة كلها مجرد اعتداءات عادية بين الطرفين غير أن الفرس يعتبرون الاغارقة مخطئين أبلغ الخطأ فيما تلا ذلك من اعتداءات ، اذ أرسلوا جيشا الى آسيا قبل أن يحدث أى اعتداء على أوربا . أما خطف النساء فهو كما يقولون من أعمال الاوغاد ، بينما أعمال الاستفزاز التى حدثت ، من أعمال المجانين . فلا يهتم الحكماء بمسائل النساء تلك ، اذ لا يمكن أن تخطف سيدة بغير رضاها . فعندما خطف الاغارقة نساء الاسيويين ، لم يهتم هؤلاء بمثل هذه السفاسف ؛ الا أن الاغريق بسبب فتاة لاكيدايونية ، جمعوا جيشا فى عداد الحصى وغزوا به آسيا ، وخربوا مملكة بريام . ومنذ ذلك الحين ينظر الاسيويون الى الاغارقة كأعدائهم اللدودين.. يعتبر الفرس آسيا بشتى قبائلها البربرية التى تقيم فيها ، مواطنين واخوانا لهم ، ولكنهم ينظرون الى أوربا والامة الاغريقية كبلاد وأمم منفصلة عنهم .

هذه هى رواية الفرس لتلك الاعتداءات ، ويذكرون أن الهجوم على طروادة كان سببه تلك العداوة القديمة . ومع ذلك فان الاغارقة يروون

قصة أخرى عن خطف ايو تختلف عن رواية الفرس لها • فهم ينكرون استخدامهم لأى عنف فى نقلها الى مصر ، ويقولون ان الفتاة نفسها كونت علاقة غرامية مع ربان السفينة عند ما كانت راسية فى أرجوس ولما وجدت نفسها حبلى صحبت الفينيقيين بمحض ارادتها عند مغادرتهم لبلدها خشية العار عندما يفتضح أمرها أمام والديها وخوفا من زجرهما اياها• وسواء أكانت هذه الرواية الاخيرة صحيحة أم كانت على خلاف ذلك ، فلن أتعرض لمناقشتها •

انتقل الحكم الملكى فى ليديا من أسرة هرقل الى أسرة كرويسوس بالكيفية الآتية : كان يحكم سارديس ملك اسمه كانداوليس ، أطلق عليه الاغريق اسم مورسيلوس •

أحب كانداوليس زوجته حبا جما ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل كان يتوهم أنها أجمل امرأة فى العالم كله • فكان لهذا الوهم نتائج غريبة• اذ كان ضمن حرسه الخاص رجل اسمه جوجيس بن داسكولوس، حباه الملك بعطفه وثقته فكان يسند اليه جميع عظائم أموره ، ويفضى اليه بجمال زوجته الفذ ••• سارت الامور على هذا المنوال ردحا من الزمن • وأخيرا شاءت الاقدار أن ينتهى الموضوع على أسوأ حال • فقال الملك لتابعه ، ذات يوم : « أرى أنك لا تقدر ما أخبرتك به عن فتنة زوجتى وجمالها الرائع ، ياجوجيس • وبما أن أذنى المرء أقل تصديقا من عينيه عادة فتعال ، ودبر لنفسك طريقة تشاهد بها زوجتى عارية » • عندئذ صاح جوجيس قائلا : « ما هذا الهراء الذى أفلت من بين شفتيك ياسيدى؟ أتريدنى أن أنظر الى سيدتى وهى عارية ؟ ترو فيما تقول ، يا سيدى • ان المرأة تتخلى عن حيائها وهى بملابسها • لقد ميز آباؤنا فى سالف العصور الصواب من الخطأ فى وضوح تام • ومن الحكمة أن نخضع لتعاليمهم • ثم ان هناك مثلا قديما يقول : « ولينظر كل امرىء الى ما يملكه اننى أعتبر زوجتك أجمل مخلوقة على ظهر البسيطة • ولكنى أرجوك يا سيدى ، ألا تأمرنى بمثل هذا العمل الشرير » •

هكذا حاول جوجيس التنحى عما اقترحه عليه الملك • وكان يرتجف خشية أن يناله أذى من جراء هذا الرفض • بيد أن الملك رد عليه بقوله : « تشجع يا صديقى ! لا تظن اننى أقصد اختبارك بهذا • كما لا تخف أى أذى على يد سيدتك. تأكد أننى سأدبر الامر بحيث لاتعرف أنك رأيتها. سأجعلك تقف وراء باب حجرة نومنا المفتوح • فعندما أدخل لأنام ، ستتبعنى زوجتى • وبجانب الباب كرسى تضع عليه ملابسها وهى تخلعها

قطعه قطعة • سيمكنك أن تراها بهذه الطريقة • وعندما تسير من جانب الكرسى الى الفراش ، وقد أدارت ظهرها نحوك ، تسلل خارجا ، واجتهد ألا تراك وأنت تمر من الباب » •

لم يسع جوجيس أن يرفض • فأبدى استعداده لطاعة سـيده • وعندما حان موعد النوم، صحب كانداوليس حارسه الى مخدعه • وماهى الا لحظة حتى دخلت الملكة وبعـد برهة اتجهت نحو السرير • وما ان أدارت ظهرها حتى تسلل جوجيس خارجا • الا أن الملكةرغم هذا ، لمحته وهو يخرج من الحجرة وتكهنت فى الحال بما حدث • ومع ذلك فلمتصرخ كما يقتضى منها حياؤها ، ولم تظهر أنها لاحظت شيئا • ولكنها اعتزمت فى قرارة نفسها أن تنتقم من ذلك الزوج الذى كشف عورتها أمام رجل غريب • اذ كان من العار كل العار عند الليديين وحتى عند البرابرة عادة أن يرى الانسان عاريا حتى ولو كان رجلا •

لم تبدر من الملكة أية بادرة تنم عن معرفتها بما حدث ، ولم تتفوه بأى كلام يشى بها غير أنه ما أن أشرقت شمس الصباح حتى اختارت من بين حاشيتها من تثق فى اخلاصهم أكثر من غيرهم ؛ فأخبرتهم بما انتوت فعله حتى يكونوا على بينة بما سيحدث ثم أمرت بمثـول جوجيس فى حضرتهـا • وكان من عادة الملكة أن تطلبه كثيرا لتتحـدث اليـه فى أمور شتى • وكان متعودا أن يلبى طلبها • ولذلك أطاع الامر دون أن يساوره أى شك من ناحية علمها بما تجرأ عليه • ولما مثل بين يديهـا ، قالت له : « اختر لنفسك أى الطريقين ، يا جوجيس • اما أن تقتـل كانداوليس وتتزوجنى ، وتحصل على تاج ليديا ، واما أن تموت فى هذه اللحظة فى غرفة نومه ، جزاء طاعتك جميع أوامر سـيدك ، فنظرت الى ما ليس من حقك • والآن ، تستلزم الضرورة اما أن يموت ذلك الذىأشار عليك بما حدث ، أو تموت أنت يا من رأيتنى عارية وخرقت تقاليدنا » • عند ذلك وقف جوجيس لفترة من الوقت حائرا مبهوتا • وبعد أن أفاقمن ذهوله ، أخذ يتوسل الى الملكة ألا تجبره على اتيان مثل هذا العملالشاق • ولما رأى أن توسلاته ذهبت أدراج الرياح ، وأنه ينبغى له اما أن يقتل أو يقتل ، اختار الحياة لنفسه ، قائلا : اذا كان لابد من أن يكون الامر على

هذا النحو ، وأنك تلزمينني كرها على قتل سيدى ؟ فأخبريني بالطريقة التى أنفذ بها ذلك · » فقالت الملكة: « اقتله فى نفس الموضع الذىرأيتنى فيه عارية ، وليكن اغتياله وهو نائم » ·

دبر كل شيء لاغتيال الملك · وعندما خيم الظلام على الكون ، ورأى جوجيس أن لا مفر من أن يقتل كانداوليس ، أو يقتل نفسه ، تبعسيدته الى حجرة النوم · فأعطته خنجرا ، وخبأته وراء نفس الباب · وعندما استغرق الملك في النوم ، تسلل جوجيس الى داخل مخدعه وغيب الخنجر فى صدره ، فقتله·وبهذا انتقلت زوجة كانداوليس ومملكته الىجوجيس·

الفصل الثانى

****

أسطورة أريون

كان برياندر بن كويسيلوس ملكا على كورنثة وكان طاغية جبارا • ويقال ان حادثا عجيبـــا جدا حـــدث فى عصره • ويتفق الكورنثيون والليسبيون فى روايتهم له • فيقولون ان أريون ، الذى بلده ميثومنا كان موسيقيا بارعا فى العزف على القيثارة ؛ لا يدانيه فيه أى شخص آخر على وجه الارض فى عصره • وكان تبعا لما نعلمه ، أول من ابتكر البحـــر الشعرى المعروف باسم dithyrambic ، ليطلق عليه اسمه ولينشدهفى كورنثة . وذات مرة حمله دلفين فوق ظهره حتى وصل الى تايناروم •

عاش أريون عدة سنوات فى بلاط برياندر ، الى أن اســتبد به الشوق للسفر الى ايطاليا وصقلية ، وبعد أن جمع أموالا طائلة فى تلك البلاد ، أراد أن يعبر البحر عائدا الى كورنثه • فاستأجر سفينة لجماعة من البحارة الكورنثيين ، اذ رأى أنهم خير من يثق فيهم ويكون فى أمان بينهم • فركب السفينة وأقلع راجعا من تارينتوم ، ولما وصلت السفينة الى عرض البحـــر ؛ تآمر البحـــارة فيما بينهم على أن يقذفوا به فى اليم ويستولوا على ثروته • ولما علمبتدبيرهم ، جثا على ركبتيه وأخذيستعطفهم ويتوسل اليهم أن يتركوه حيا ويأخذوا أمواله حلالا لهم • غير أنهمرفضوا وطلبوا منه ، اما أن يقتل نفسه فى الحال ان كان يرغب فى أن يدفنعلى اليابسة ؛ أو لا يضيع الوقت فيقفز من فوق ظهر الســفينة فى المــاء • فتوسل اليهم ثانية أن يسمحوا له ، ما دامت هذه هى مشيئتهم ؛ بأن يصعد الى السطح الاوسط للسفينة مرتديا كامل ثيابه الرسمية،ويعزف ويغنى ؛ حتى اذا ما انتهت أغنيته ؛ أغرق نفسه • فسر البحارة لفرصـــة سماعهم أعظم موسيقى فى العالم ، ومنحوه ذلك الطلب ، وانسحبوا من كوثل السفينة الى وسطها ، بينما ارتدى أريون ثيابه الرسمية كاملة ،

كما لو كان ذاهبا لاحياء حفل عظيم ، وأخذ قيثـــارته ، ووقف على أعلى سطح بوسط السفينة وشرع يغنى الاغنية الاورفية ، ولما انتهى منها ، قذف نفسه الى البحر وهو فى تلك الملابس • عنـــدئذ أكمل الكورنثيون ابحارهم الى كورنثة • أما أريون ، فيقال ان دلفينا حمله فوق ظهره وظل سابحا به حتى أوصله الى تايناروم ، حيث خرج الى الشاطىء وأتم رحلته الى كورنثة ، فى ثيابه الموسيقية • وهناك قص كل ما حدث له • بيد أن برياندر لم يصدق روايته ووضعه تحت الحراسة ليمنعه من مغادرة كورنثة ، وظل يرقب عودة البحارة فى لهفة • وعندما وصلوا الى هناك استدعاهم اليه وطلب منهم أن يخبروه بأية أنباء عن أريون ، ان كانوا يعلمون عنه شيئا • فأجابوه بأن أريون حى يرزق وفى صحة جيدة بايطاليا ، وأنهم تركوه فى تارينتوم حيث يعمل بنجــاح ويكسب أموالا كثيرة • فى تلك الآونة ظهر أمامهم اريون بنفس الصورة التى كان عليها عندما قفز من فوق ظهر السفينة • فذهل الرجال وأسقط فى أيديهم وعرفوا أن أمرهم افتضح ، فاعترفوا بجريمتهم •

هذه هى الرواية التى يحكيها الكورنثيون والليسبيون • وحتى اليوم يقـــدم أهل تايناروم التقدمات أمام محراب أريون حيث يقف تمثـــال صغير من البرنز يمثل رجلا على ظهر دلفين •

الفصل الثالث

****

أسطورة سولون

تولى كرويسوس بن ألياتيس مقاليد الحكم بعد موت أبيه ، وكان اذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمره • فكانت افسوس أول مدينة اغريقية هاجمها • وعندما حاصرها ، كرسها أهلها للربة ديانا بأن مدوا حبلا من سور المدينة الى معبد تلك الربة (١) ، الذى كان على مسافة بعيدة من تلك المدينة القديمة التى حاصرها كرويسوس وقتذاك • وتبلغ تلك المسافة سبعة فورلونج (الفورلونج ١/٨ ميل) (٢) كان أهل أفسوس كما ذكرنا أول من هاجمهم كرويسوس • وبعد ذلك تذرع بحجة ما وشن الحرب على الولاية الايونية والايولية مبديا سببا للشكوى كلما استطاع فاذا لم يجد سببا للشكوى احتج ببعض الاعذار الواهية •

بهذه الطريقة جعل كرويسوس نفسه سيدا على جميع المدن الاغريقية فى آسيا ، وأجبرها على أن تتبعه • بعد ذلك أنشأ يفكر فى بناء أسطول ليهاجم به سكان الجزر الاغريقية • فأعد عدته لتنفيذ تلك الرغبة ، بيد أن بياس البرييني أحبط مسعاه فى ذلك المشروع ، فقد سأله الملك عندما عاد من سارديس عما اذا كان قد سمع أخبارا من بلاد الاغريق ، فأجابه بقوله : « نعم يا سيدى • يجد سكان الجزر فى جمع عشرة آلاف حصان للقيام بحملة عليك وعلى عاصمة ملكك » • واذ اعتقد كرويسوس أن بياس

---

(١) يذكر بلوطارخ (سولون ، الباب الثانى عشر) قصة مماثلة لهذه اذ يقول ان اللاجئين الذين اتهموا بفتنة كولون في أثينا ، ربطوا أنفسهم الى المذبح بحبل . فاذا قطع الحبل فقدوا صفتهم المقدسة . كذلك عندما كرس بولوكرايتس جزيرة رينيا الى ابولو الديليانى وصلها بديلوس بسلسلة (ثوكرديس الباب الثالث صفحة ١٠٤) .

(٢) نعلم من هذا أن موقع مدينة أفسوس تغير من عهد كرويسوس الى عهد هيرودوت والمبانى التى شاهدها هيرودوت هى التى احترقت في سنة ٣٥٦ ق.م

يقول الحقيقة ، صاح قائلا : « عسى أن تضع الآلهة هـــذه الفكـرة فى أذهانهم كى يهاجموا أبناء الليديين بالفرسان ! » فرد عليه بياس ، يقول: « يبدو أيها الملك ، أنك تريد مهاجمة سكان الجزر بالفرسان فوق الارض الاصلية ـ وانك لتعلم حق العلم ماذا ستكون النتيجة . وماذا تظن أن يأمل فيه أهل الجزر خيرا من هذا ، بعد أن سمعوا أنك تزمع بناءأسطول لتهاجمهم به وتنتقم منهم جزاء اساءة اخوانهم الذين استعبدتهم ؟ »... وقع ذلك الكلام فى نفس كرويسوس موقع السحر ، واعتقد أن هنـــاك ما يبرر جمعهم للخيول ، فصرف من ذهنه فكرة بناء أســـطول ، وأبرم معاهدة صداقة مع أيونيى الجزر .

عندما ضمت كل هذه الفتوحات الى الامبراطورية الليدية ، وبلغت ساردیس أوج عظمتها ، وفد اليها جميع حكماء الاغريق فى ذلك العصر ، واحدا بعد آخر ، ومن بينهم سولون الاثينى (١) عندما خرج فى رحلاته، اذ غادر أثينا ليغيب عنها عشر سنوات بحجة رغبته فى رؤية العـــالم . ولكن الحقيقة هو أنه هرب من أثينا لئلا يضطر ، بناء على طلب أهلها ، أن يلغى أى قانون من القوانين التى سنها لهم . ولم يكن بوسع الاثينيين أن يلغوا أيها بدون موافقته ، لانهم أقسموا أيمانا مغلظة أن يخضـــعوا للقوانين التى يفرضها عليهم سولون ، لمدة عشر سنوات .

لهذا السبب ، ولكى يرى العالم ؛ خرج سولون فى رحلاته . فذهب الى مصر ، الى بلاط أماسيس وذهب أيضا لزيارة كرويسوس فى ساردیس فأكرم كرويسوس وفادته واستضافه فى قصره الملكى . وفى اليـــوم الثالث أو الرابع ، أمر كرويسوس خدمه أن يطلعوا ســولون على كنوزه وعظمته وأبهته . فلما رأى سولون كل ذلك وفحص بنفســه كل شيء ، سأله الملك : « أيها الغريب الأثينى ، لقد ســـمعنا الـكثير عن حكمتك ورحلاتك خلال البلدان حبا فى المعرفة ورغبة فى مشاهدة غرائب الدنيا لهذا تجدنى متلهفا لأعرف منك ؛ من هو أســـعد رجل رأيته ؟ » ألقى كرويسوس هذا السؤال على سولون ؛ لانه كان يظن نفســه أسعد رجل على ظهر الغبراء . بيد أن سولون أجابه بلا نفاق ولا تملق ، بل تبعـا لشعوره الحق ، فقال : « أسعد رجل شـــاهدته هو تيلوس الاثينى ،

---

(١) أهملنا زيارة سولون لكرويسوس قبل عهد بلوطارخ (سولون الباب ٢٧) اذ اعتبرت خرافية بناء على الصعوبات التاريخية . فمن المحتمل جدا ان يكون كرويسوس قد حكم من سنة ٥٦٨ ق.م الى ٥٥٤ ق.م ولاشك في أن سولون عاش بعد أن اغتصب بيسيستراتوس مقاليد الحكم في أثينا ، سنة ٥٦٠ ق.م .

يا سيدى • » فذهل كرويسوس مما سمع ، وقال محتدا : « ولماذا تعتبر تيلوس أسعد رجل ؟ » فأجابه سولون بقوله : « أولا ، لان مملكته ازدهرت فى عصره ، وله هو نفسه أولاد على قدر بالغ من الجمال والصلاح ؛ ولانه عاش ورأى كلا منهم ينجب أطفالا ، ورأى أولئك الاطفـــال وقد كبروا وترعرعوا وزيادة على ذلك ، فبعد أن قضى حياته فيما يعتبرها شعبنا حياة مريحة ، مات بمجد منقطع النظير اذ هب لنجدة شعبه فى قتال بين الاثينيين وجيرانهم قرب اليوسيس فمات شجاعا فى حومة الوغى • فدفنه الاثينيون باحتفال رائع ، فى البقعة التى سقط فيها ، وقدموا له أعظم فـــروض التبجيل والاحترام » •

هكذا نصح سولون كرويسوس بالمثل الذى قدمه له عن تيلوس ، معددا مميزات السعادة الكثيرة المظاهر • وبعد أن انتهى سولون من ذلك ، سأله كرويسوس مرة ثانية عمن يعتبره فى المرتبة الثانية من السعادة بعد تيلوس ، متوقعا أن يكون هو فى تلك المنزلة ، مهما كانت الظروف • غير أن سولون خيب ظنه بقوله : « كليوبيس وبيتو • انهما شابان من سكان أرجوس • كانا ذا أموال تكفى لسد حاجاتهما ، وقد وهبا علاوة على ذلك قوة بدنية نالا بواسطتها الجوائز فى المباريات الرياضية ويروى القوم عنهما هذه القصة : كان الشعب يحتفل بعيد الربة جونو فى أرجوس • وكان لابد من أن تذهب والدتهما الى المعبد فى عربة • بيد أن الثيران التى تجر العربة تأخرت فى المجىء من الحقل • فخشى الشابان أن يمنع ذلك ذهاب أمهما الى المعبد فى الوقت المناسب • فما كان منهما الا أن وضعا النير على عنقيهما وجرا العربة التى ركبتها أمهما لمسافة خمسة وأربعين فورلنجا (الفورلنج $1/8$ ميل) حتى وقفا بها أمام المعبـــد • وهكذا قاما بعمل مجيد أمام كافة جمهور المحتفلين بتكريم الربة ، كما أن حيـــاتهما انقضت على خير ما تكون عليه نهاية الحياة • وكذلك أوضح الرب أن الموت أفضل للانسان من الحياة • فقد أثنى الرجال الملتفون حول العربة عـــلى شجاعة وقوة الشابين ، وأثنت النساء الارجوسيات عـــلى تلك الأم التى حوبيت بنعمة مثل هذين الابنين • واغتبطت الأم نفسها بذلك العمـــل وبالثناء الذى نالته فوقفت أمام تمثال الربة ، وتوسلت اليهـــا أن تمنح ولديها كليوبيس وبيتو ، اللذين كرماها وشرفاها ؛ أقصى نعمة يمكن أن ينالها البشر • وما ان انتهت من صلاتها حتى قدمت الذبائح واشـــترك الجميع فى الوليمة • وبعد ذلك غلب النعاس الشابين فناما فى المعبد • ولكنهما لم يستيقظا من النوم بعد ذلك ، بل غادرا الدنيا واذ اعتبرهما

الارجوسيون من بين أفاضل الرجال صنعوا لهما تمثـــالين أقاموهما في محراب دلفي » ٠

عندما وضع سولون هذين الشابين في المرتبة الثانية من السعادة صاح كرويسوس غاضبا ، فقال : « اذن فماذا تكون سعادتي أيها الغريب الاثيني ، اذ لم تقدرها بشيء ؛ ولم تضعها حتى في مســـــتوى الرجال العاديين ؟ »

فقال سولون : « أي كرويسوس ! انك لتسأل عن حال الانسان ، وتوجه سؤالك الى رجل يعرف أن السلطة هي أكثر شيء ملء بالحسد ، ومولعة بالتنكيد علينا غاية النكد ٠ فالحياة الطويلة تمكن المرء من أن يرى كثيرا ويجرب كثيرا ، ما لا يحبه ، انني أعتبر أقصى حياة للانسان سبعين عاما ٠ فيكون مجموع الايام التي يقضيها في ذلك العمر ستة وعشرين ألفا ومائتين وخمسين يوما ٠ لا يمر منها يوم الا ويرى فيه حادثا يختلف عن سائر الاحداث التي شاهدها قبل ذلك ٠ وعلى ذلك يكون المرء مجموعة من الاحداث ٠ أما عن نفسي ، فأرى أنك واسع الغنى بدرجة مدهشة ، وأنك سيد على عدة أمم ٠ وأما بخصوص السعادة التي تسألني عنها ، فليس عندي ما أرد به عليك الا بعد أن أسمع أنك أنهيت حياتك نهـاية سعيدة ٠ فمن المؤكد أن من يملك خزائن الدنيا من الـكنوز ليس أقرب من الســعادة ممن يملك ما يكفي حاجته اليومية فحسب ، الا اذا حالفه حسن الحظ ؛ وبذا يستمر يتمتع بخيراته الى آخر أيام حياته ٠ فقد عاكس الحظ كثيرين ممن يملـكون ثروات طائلة ، كمـا ساعد الحظ كثيرين من متوسطي الحال ٠ ولا يتفوق النوع الاول من هذين على النوع الثاني الا في ناحيتين ٠ أما النوع الثـاني فيتفوق على الاول في عدة نواح ٠ فالرجـل الغني أقدر من متوسط الحال على نيل كل حاجاته والتغلب على المصائب المفاجئة ٠ أما النوع الثاني فأقل مقاومة لهذه النوائب (التي يحفظه حسن حظه منها) غير أنه يتمتع بكل النعم التالية : انه كامل الصحة ، وأقوى على مقـاومة الامراض ؛ وخال من ســوء الحظ ، ســعيد بأولاده وبحسن منظره ٠ فلو أنهى حيـاته علاوة على ذلك ، نهـاية طيبة ، كان حقيقة هو الرجل الذي تنشده ٠ الرجل الذي يصح بحق أن يوصف بالســعادة ٠ والى أن يموت ذلك الرجل، يمكنك أن تطلق عليه أي اسم قل انه محظوظ؛ وليس سعيدا ٠ والحقيقة أنه من النادر أن يتصف أي رجل بجميع هذه الميزات ٠ مثله في ذلك مثل الدول فمـــا من دولة تملك في بلدهـــا كل ما تحتاجه ٠ فبينما تملك كل منها أشياء معينة ؛ ينقصها أشياء أخرى ٠ وأفضل دولة هي التي تملك معظم احتياجاتها ٠ كذلك الامر؛ ما من مخلوق

بشرى واحد كامل من جميع الوجوه ـ لا بد من وجـود نقص ما • فمن يضم أكبر عدد من الميزات ؛ ويحتفظ بها الى يوم مماته؛ حيث يموت هادئا، هو وحده ؛ تبعا لحكمى يا سيدى ؛ من يصح أن يقال عنه انه سعيد • اننا ننتظر النهاية فى كل حالة ؛ فالرب يمنح البشر قبسا من السعادة ؛ ثم يغمرهم بعد ذلك فى الخراب » •

هكذا تحدث سولون الى كرويسوس ، وهو حديث لم يجلب عليه مالا ولا أمجادا فعندما رحل عن البلاد ، لم يهتم به الملك ، اذ كان يعتقد أن من لا يحكم بالغنى الحاضر ، وينتظر معرفة النهاية أولا ، لا شك معتوه غشى الله على بصيرته •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

****

قصة أدراستوس

بعد أن غادر سولون بلاط كرويسوس ، انتقم الرب من هذا الملك المغرور انتقاما فظيعا عقابا له على اعتباره نفسه أسعد رجل . بدأ ذلك الانتقام بأن رأى كرويسوس حلما أبان له حقيقة الكوارث التى توشك أن تحيق به فى شخص ولده . فقد كان لكرويسوس ولدان : أحدهما مصاب بعاهة طبيعية اذ كان أصم وأبكم . أما الابن الثانى فيمتاز على سائر أترابه فى جميع الصفات . كان اسمه آتوس وهو الذى أشار اليه الحلم بأنه سيموت بضربة من سلاح حديدى . فلما استيقظ كرويسوس من نومه ذعر ذعرا بالغا فقام فى الحال يخطب عروسا لابنه . وكان من عادة ذلك الابن فى السنين الماضية أن يخرج مع القوات الليدية الى ميدان القتال . بيد أن والده الآن لم يسمح له بمرافقتهم وزيادة فى الحيطة ، انتزع الأب جميع الحراب والرماح وأسلحة القتال من مساكن الرجال بالقصر ، ووضعها فى أكوام بغرف السيدات ؛ لئلا تسقط احداها وهى معلقة على الحائط فوق ابنه فتقتله .

حدث أنه عندما كان كرويسوس مشغولا فى الاستعداد لحفلات الزواج ، أقبل رجل من سارديس يحمل على رأسه لعنة الدماء . كان فروجى الأصل من أسرة أحد ملوك فروجيا . جاء الى قصر كرويسوس متوسلا أن يسمح له بأن يتطهر تبعا لعادة تلك البلاد . وكانت طريقة التطهر الليدية هى الطريقة الاغريقية نفسها تقريبا . فمنحه كريسوس أمنيته وقام له بالطقوس المألوفة . وبعد أن تطهر ذلك الغريب ، سأله كرويسوس عن نسبه وعن مملكته ، بقوله : « من أنت ، أيها الغريب ؟ ومن أى أجزاء فروجيا هربت لاجئا الى وطنى ؟ وزيادة على ذلك ، أى رجل أو امرأة قتلت ؟ » فأجاب الفروجى قائلا : «أيها الملك ! أنا ابن جورد ياس

ابن ميداس ، واسمى أدراستوس (١) وأما من قتلته فهو شقيقى • لذلك طردنى أبى من مملكته وفقدت كل شيء ، فهربت الى هنـــا » • فقـــال كرويسوس : « انك سليل بيت صديق لى • وقد أتيت الى أصدقاء • لن تحتاج الى شيء طالما أنت فى حماى • اصبر على سوء طالعك وتحمله على أحسن ما يناسبك قدر طاقتك » • ومن تلك اللحظة عاش أدراستوس فى قصر ذلك الملك •

حدث أن ظهر فى الوقت نفســه خنزير برى ضخم فى أوليمبوس الموزية ؛ كان يهبط من المنحدرات الجبلية ويعيث فسادا في حقول القمح التى يملكها الموزيون • وكثيرا ما تجمع الفلاحون ليصيدوه • ولكن بدلا من أن يصيبوه بالأذى كان هو يمنيهم بخسائر فادحة فى الارواح • وأخيرا أوفدوا رسلا الى كرويسوس يقولون له : « أيها الملك ! لقد ظهر فى بلادنا وحش ضخم عبــارة عن خنزير برى ، خرب مزروعات أراضــينا • وقد حاولنا جهدنا ان نفتك به ولكن دون جدوى • والآن ، نتوسل اليك أن تبعث الينا بابنك ليصحبنا • ومعه نخبة من الشبان الاقوياء وكلاب الصيد ، حتى نستطيع أن نخلص بلدنا من ذلك الوحش » هكذا كان نص توسلهم •

بيد أن كرويسوس تذكر حلمــه ، فرد عليهم بقوله : « تتحــدثوا بعد الآن عن ذهاب ابنى معكم ؛ فليس هذا من الحكمة فى شيء لقد تزوج حديثا ، وهو جد مشغول فى زواجه • سأمنحكم فئة منتخبة من الليديين وجميع رجالى الاخصائيين فى الصيد وكذلك كلاب الصيد • وسآمر من أرسلهم بأن يقدموا لكم كل مساعدة لتخليص بلادكم من ذلك الوحش » •

قنع الموزيون بهذا الرد . غير أن آتوس سمع بطلب الموزيين ، وبرفض أبيه أن يرسله معهم . فدخل على أبيه فجأة ، وخاطبه بقوله : « أبتاه ! كانت أشرف وأنسب مهمة لى من قبل ، أن أرافق الجنود فى الحروب وأشترك فى فرق الصــيد ، وبذا أنال المجد لنفسى الا أنك تحرمنى الآن كليهما ، مع انك لم تشاهدنى قط جبانا . بأى وجه أسير جيئة وذهابا ؟ ماذا يظن بى المواطنون ، وماذا تظن بى عروسى الشابة ؟ فاما تسمح لى بمطاردة ذلك الخنزير ، أو تقنعنى بأنه من الخير لى أن اسير تبعا لرغباتك » .

قال : « اسمع يابنى ! لم أمنعك بسبب أننى رأيت منك جبنا أو

---

(١) معنى ادراستوس هو « المحكوم عليه » ـ أو « الرجل غير القادر على الهروب » اما آتوس فمعناه « الشاب الخاضع لسلطة اتى » أو « الرجل الاعمى شرعا » .

نحوه اغضبنى وجعلنى أمنعك الذهاب ولكنى آمنعك لاننى رايت حلما فى نومى ، حذرنى من أنك ستموت فى ريعان شبابك بطعنة من سلاح حديدى . هذا هو ماحدا بى أن اسرع بتزويجك ، ثم جعلنى أمنعك الآن أن تذهب فى هذه الرحلة • اننى أبذل كل جهدى فى مراقبتك عساى ابعد عنك القضاء بكل وسيلة فى مدة حياتى ، لانك ابنى الوحيد أما أخوك الآخر الفاقد السمع فلا أعتبره موجودا » •

فقال الشاب : « لن ألومك يا أبتاه ، على مراقبتك اياى بعد أن رايت مثل ذلك الحلم المزعج . ولكن ماذا لوكنت مخطئا ؟ ولو اخطأت فى فهم الحلم فهما صحيحا ، فلا لوم على ان أوضحت لك موضع خطئك ... يتكهن الحلم الذى رأيته أنت نفسك ، بأننى سأقتل بسلاح حديدى ، فهل للخنزير البرى يدان يضرب بهما ؟ وأين له بسلاح من الحديد يضرب به ؟ هذا ماتخافه على . لو قال الحلم اننى سأطعن بناب لحق لك أن تمنعنى الذهاب لصيد ذلك الوحش . ولكنه قال اننى سأطعن بسلاح . ولن نقاتل رجالا فى هذه الرحلة ، بل حيوانا متوحشا. اذن ، أرجوك أن تصرح لى بالذهاب معهم • »

فقال كرويسوس : « الحق معك يا ولدى . ان تفسيرك للحلم لأصح من تفسيرى . اذن فأنا أخضع لهذا التفسير ، وأغير رأيى ، وأصرح لك بالذهاب . »

عندئذ أرسل الملك لطلب أدراستوس الفروجى فلما جاء قال له : « عندما ضربتك بقضيب اللعنة طهرتك وجعلتك تعيش معى فى قصرى ولم أمنعك شيئا • والآن ينبغى أن ترد لى هذا الجميل بأن تقبل مرافقة ولدى فى رحلة الصيد هذه ، وأن تحرسه فيها لو هاجمتكم عصابة لصوص فى خلال الطريق وفضلا عن هذا ، فمن حقك أن تذهب حيث تستطيع أن تنال الشهرة لنفسك بالاعمال النبيلة . هذه تقاليد أسرتكم ، وانك لشجاع وقوى . »

فأجاب أدراستوس بقوله : « لولا طلبك يا مولاى لا بتعدت عن مغامرة الصيدهذه ، اذ أرى أنه لايليق برجل منحوس الطالعمثلى أنيرافق زملاء أسعد منه حظا وعلاوة على هذا ، فليست لى الجراة على مثل هذا العمل . لقد تخلفت عنها فى مرات كثيرة ولاسباب عدة . ولكن بما انك تحتم على الذهاب فيها ، فأنا ملزم بعمل ما يرضيك (اذ الحقيقة أنه يجب على أن أرد الجميل) • وعلى ذلك ، فأنا طوع أمرك أما عن ابنك

الذى تضعه فى عهدتى، فتأكد أنه سيعود اليك سليما سالما ، بقدر ما تتوقف هذه السلامة على عناية حارسه . »

ما ان أطمأن كرويسوس على سلامة ولده حتى سمح لهما بالرحيل برفقة فئة من الشبان المختارين ، ومعهم عدد من كلاب المطاردة . ولما بلغ الجمع أوليمبوس ، انتشروا فى طلب ذلك الحيوان . وسرعان ماعثروا عليه . فالتف حوله الصيادون فى دائرة ، وأخذوا يمطرونه وابلا من أسلحتهم . فحاكاهم الرجل الغريب ، الذى تطهر من لعنة الدماء ، والذى يسمى أدراستوس ، فقذف رمحه نحو الخنزير ؛ ولكنه أخطأ الهدف فطاش الرمح وأصاب آتوس . وهكذا قتل ابن كرويسوس بسلاح حديدى وتحققت نبوءة الحلم فأسرع رسول يحمل النبأ الى الملك فى سارديس ، وأخبره بقصة القتال وبالقضاء الذى أصاب ولده .

وكان وقع الصدمة بالغا على كرويسوس ، أن يعلم بموت ولده . ولكن ألمه كان أشد وأنكى عندما عرف أن الشخص الذى طهره هو بنفسه ، الذى قتل ولده . وفى ذروة حزنه نادى جوبيتر كاثارسيوس ليكون شاهدا على ما أصابه على يدى ذلك الرجل الغريب .

ولم يمض وقت طويل حتىعاد الليديون يحملون جثة الشاب؛ ومن خلفهم القاتل وما ان صار فى حضرة الملك حتى اتخذ موقفه أمام الجمع ،ومد يديه نحو كرويسوس مسلما نفسه اليه ، وتوسل اليه أن يضحى به فوق جثة ابنه — « كانت جريرته الاولى عبئا ثقيلا ، فاذا به يضيف اليها جريرة أخرى ، وجلب الخراب على الرجل الذى طهره ، وعلى ذلك لا يستطيع أن يعيش . » وعندما سمع كرويسوس كلامه ، تأثر غاية التأثر ؛ فأخذته الشفقة على ادراستوس برغم ألمه الشديد على فقد فلذة كبده ، فقال : « كفى ؛ يا صديقى ! لقد نلت كل ما أريده من انتقام ، اذ حكمت على نفسك بالموت . بيد أن الحقيقة هى أنك لست بالشخص الذى ضرنى ؛ بل الفاعل الحقيقى والمتسبب فيما أصابنى من نحس هو أحد الآلهة ، وقد حذرت منه منذ زمن طويل . أما أنت فكنت الأداة التى قامت بالضربة عن غير قصد . » بعد ذلك دفن كرويسوس ابنه بالاحتفال والامجاد اللائقة به . أما ادراستوس بن جوردياس بن ميداس ، قاتل أخيه وجالب الخراب على من طهره ، فقد اعتبر نفسه أتعس مخلوق عرفه ، انتظر حتى شمل الهدوء ذلك المكان ، ثم قتل نفسه فوق قبر آتوس . وأما كرويسوس فلزم الحداد سنتين كاملتين حزنا على ولده .

الفصل الخامس

كرويسوس

بعد مرور عامين على موت آتوس ، شغل كرويسوس عن حزنه بسبب الأخبار التى وصلته عن الأحداث الجارية فى الخارج . فقد علم أن كوروس بن قمبيز خرب امبراطورية آسياجيس بن كياكساريس وأن قوة الفرس تزداد يوما بعد يوم . فأخذ يفكر فى نفسه عما يستطيع فعله ليوقف ازدياد قوة أولئك القوم قبل أن تبلغ الذروة . واذ بدأت هذه الفكرة تعتمل فى ذهنه عزم على أن يختبر كل وحى فى بلاد الاغريق، ووحى ليبيا (١) . وعلى ذلك بعث رسله الى مختلف الجهات . فذهب بعضهم الى دلفى ، والبعض الآخر الى أباى (٢) فى فوكيس ، وبعض ثالث الى دودونا ؛ وآخرون الى أمفياراوس وغيرهم الى تروفونيوس ، وكذلك الى برانكيداى فى ميليزيا . وهذه جميعا هى التى أرسل يختبرها فى بلاد الاغريق . كما أوفد رسلا آخرين الى ليبيا لاختبار وحى آمون . ذهب أولئك الرسل ليعرفوا قدرة كل وحى على التكهن . فاذا ما ظهر صدق اجابة أى وحى منها ، أوفد اليه رسلا آخرين يسألونه عما اذا كان بوسعه أن يهاجم الفرس .

أمر كرويسوس من أوفدهم بأن يعدوا مائة يوم ابتداء من يوم سفرهم من سارديس وفى اليوم المائة يسألوا الوحى عما يفعله كرويسوس ابن الياتيس ملك ليديا فى تلك اللحظة . وعند ذلك ينبغى لهم أن يكتبوا الرد ويعودوا به اليه . ولم يسجل التاريخ من هذه الردود غير رد وحى

---

(١) الوحى الموجود فى ليبيا (بأفريقيا) هو وحى أمون . اذ كان هيرودوت يعتبر مصر من اسيا وليست دولة افريقية .

(٢) يبدو أن وحى أباى كان فى المرتبة الثانية بعد وحى دلفى . ويبدو أنه لم يكن لدى المصريين أى وحى فى بلادهم .

دلفى • فما ان دخل الرسل المحراب (١) ، حتى قالت لهم الكاهنة فى أسلوب شعرى سداسى التفعيلات !، قبل أن يسألوها عن أى شئ •

بوسعى أن أعد الرمال وأن أقيس المحيط

ولى آذان تسمع الصامتين وأعرف ما يجول بخاطر الأبكم وان حواسى لتشم رائحة سلحفاة ذات درقة تطبخ الآن فوق النار مع لحم خروف فى مرجل الوعاء السفلى من النحاس والغطاء أعلاه من النحاس أيضا •

دون الليديون هذه الكلمات بمجرد أن خرجت من بين شفتى الكاهنة ، ثم عادوا أدراجهم الى سارديس وعندما رجع الرسل بالردود التى تلقوها جميعا ، فض كرويسوس اللفافات وقرأ ما كتب فى كل منها . فلم تثبت صحة غير رد واحد (٢) ، هو رد وحى دلفى . فما ان سمع ذلك الرد حتى شرع فى تقديم فروض العبادة معلنا ان وحى دلفى هو الوحى الوحيد الصادق . انه الوحى الوحيد الذى عرف حقيقة ماسئل عنه • اذ بعد أن رحل الرسل فى مهمتهم ، أخذ كرويسوس يفكر فىالشىء الاكثر احتمالا ألا يتنبأ أى وحى فى أنه يفعله• ثم انتظر حتى جاء اليوم المتفق عليه ، فأخذ سلحفاة وخروفا ، وقطعهما بيديه قطعا ، ووضعهما معا على النار فى مرجل من النحاس ذى غطاء من النحاس أيضا .

هذا هو الرد الذى تلقاه كرويسوس من دلفى . أما الرد الذى تلقاه الرسل الليديون الذين ذهبوا الى محراب امفياراوس ، وقاموا هناك بالطقوس المعتادة ، فلا يمكننى أن اذكره هنا اذ لم يسجل . ،وكل ما عرف عنه هو أن كرويسوس وجده يقول الحقيقة .

---

(١) uèypov هو المحراب الداخلى أو الغرفة المقدسة حيث تنطق الكاهنة بأقوال الوحى •

(٢) يستحيل أن نناقش موضوعا مثل طبيعة كل وحى قديم اذ كتبت عن ذلك الموضوع مجلدات عدة وكانت في حدود مذكرة . ولكنى سأراعى في حكمى على هذاالموضوع نقطتين ليس غير وهما (أولا) أن الكاهنة التى قابلها القديس بولس عند أولنزولهببلاد الاغريق الاوربية كان بها حقيقة مس من الشيطان . فأخرج القديس بولس ذلك الروح الشرير منها ، وبذا جرد سادتها من كل أمل في الربح (الفصل السادس عشر ١٦ – ١٩) (ثانيا) وجد أنه ربما كانت ظاهرة التنويم المغناطيسي أبسط وأصدق تفسير لصدق تكهنات الوحى •

بعد ذلك عزم كرويســوس على ارضـاء الاله الدلفى بالذبائح الفخمة ، فقدم له ثلاثة آلاف رأس من كل نوع من حيوانات الذبائح ؛ وعلاوة على ذلك صنع كومة ضخمة وضع فوقها مقاعد وأسرة مكسوة بالفضـــة والذهب !، وكئوس من الذهب وأثواب وصـديريات من الحرير الارجوانى،أحرقها جميعا أملا فى أن يضمن لنفسه الحظوةلدى ذلكالرب· وبعد أن فرغ من كل هذا ، أصدر أوامره لجميع شعبه بأن يقدم كل منهم ذبيحة بقدر ما تسمح به موارده · وبعد تقديم الذبائح صهر الملك كميـة عظيمة من الذهب وصبها فى قوالب مستطيلة الشكل؛طولكل منها ست راحات والعرض ثلاث راحات والسمك راحة يد واحدة . فكان مجموع هذه القوالب مائة وسبعة عشر قالبا . أربعة منها من الذهب الخالص، ووزن كل قالب تالنتان ونصف تالنت (التالنت يعادل وزن ٥٧ رطلا انجليزيا) ، وبقيتها من ســبائك الذهب غير النقى ووزن كل منها تالنتان . وفوق كل هذا ، أمر بصنع تمثال أسد من الذهب النضـار وزنه عشرة تالنتات · وعند ما احترق معبد دلفى عن آخره ، ســقط ذلك التمثال من فوق القوالب الذهبية التى كان يقف عليها ، وهو الآن محفوظ فى خزانة المـالية بمدينة كورنثة ، ويزن الآن ستة تالنتات ونصف تالنت ؛ بعد أن فقد ثلاثة تالنتات ونصف بفعل النار ·

صدرت الأوامر الى الرسل الذين عهـد اليهم بتسـليم هذه الهدايا ، أن يسألوا الوحيين الصـادقين عما اذا كان يصح لكرويسوس أن يشتبك فى حرب مع الفرس ، فان جاء الرد بالايجاب ، سئلا ثانية عما اذا كان يجب عليه أن يقوى جيوشه بقوات حليفـه · وبناء على هذه التعليمات ، عندما بلغ الرسل وجهتهم وقدموا الهـدايا ، أخذت كل فئة منهم تستشـير الوحى الذى ذهبت اليه بقولها : « لمـا كان كرويسوس ملك ليديا وغيرها من الممالك الأخرى ، يعتقد أن هذا هو الوحى الصادق الوحيد فى العالم كله ، فقد أرسل لك هذه الهدايا التى تستحقها اكتشافاتك الصادقة ، ويطلب منك الآن أن تخبره عما اذا كان يصح له أن يحارب الفـرس . فان كان هذا من صالحه ، فهل ينبغى أن يقوى جيوشه بقوات دولة حليفة ؟ » فاتفق الوحيان فى مضمون ردهما الذى ينص على أنه اذا هاجم كرويسوس دولة الفرس ، خرب امبراطورية قوية ، وأوصـياه بأن ينتقى أقوى الولايات الاغريقيـة ويتحالف معها .

عندما وصـل الردان الى كرويسوس ابتهج غاية الابتهـاج ، اذ تأكد عندئذ من أن بوسعه أن يحطم الامبراطورية الفارسية .

بعد أن قدم كرويسوس تلك الهدايا الى الدلفيين ، بعث يستشير الوحى المرة الثالثة ، اذ لما تأكد من صدق نبوءاته رغب فى أن يستغله باستمرار فكان السؤال الذى طلب الاجابة عنه هو : هل سيدوم عهد مملكته طويلا ؟ فجاء رد الكاهنة كما يلى :

انتظر الى الوقت الذى يتبوأ فيه بغل عرش ميديا ، ثم اخرج أيها الليدى الرقيق الى حصن هيرموس أسرع ٠٠ أسرع بالسير ولا تخجل أو تسلك مسلك الجبناء ٠

سر الملك بهذا الرد دون غيره ، اذ لا يبدو من المعقول اطلاقا أن يأتى بغل ويصير ملكا على الميديين ، فاستنتج من هذا أن الملك لن يفارقه أو يفارق نسله من بعده .

فى تلك الأثناء فسر كرويسوس قول الوحى تفسيرا خاطئا ٠ فقاد جيوشه الى كبادوكيا متوقعا أن يهزم كورس ويحطم امبراطورية الفرس . وبينما هو مشغول فى الاستعداد لهجومه ، تقدم منه رجل ليدى يدعى ساندانيس ، وكان الشعب ينظر اليه دائما على أنه من الحكماء ، وبعد ذلك لمع اسمه حقا بين مواطنيه ، فنصح الملك بقوله :

« أيها الملك ، انك على وشك محاربة قوم يرتدون سراويل من الجلد ، وكذلك جميع ملابسهم الأخرى من الجلد أيضا . انهم قوم لا يأكلون ما يشتهون ، وانما يتغذون بما يمكنهم الحصول عليه من ارض جدباء قاسية . قوم غير مولعين بشرب الخمر ، بل يشربون الماء . قوم ليس لديهم تين ولا أية فاكهة أخرى يأكلونها ٠ فاذا فرض وهزمتهم ، فماذا يمكنك الحصول عليه منهم وقد رأيت انهم لا يملكون شيئا على الاطلاق ؟ أما اذا هزموك ، فانظر الى جميع الطيبات التى ستخسرها . فان ذاقوا مرة واحدة ما لدينا من خيرات ، فلن يتركونا قط ، ولن نستطيع اطلاقا أن نتحرر من قبضتهم أما عن نفسى ، فاننى أشكر الآلهة على أنها لم تلفت أنظار الفرس الى غزو ليديا » ٠

كان ساندانيس كمن يضرب فى حديد بارد ، اذ لم تثن نصيحته كرويسوس عن عزمه ، مع أن الفرس كانوا حقا لا يملكون ، قبل غزو ليديا ، أى شىء من ترف الحياة ومباهجها .

عندما بلغ كرويسوس نهر هاليس ، نقل قواته الى شاطئه الآخر عبر الجسور القائمة هناك الى هذا اليوم ، تبعا لما أعرفه . ولكن تبعا للاعتقاد الشائع بين الأغارقة ، نقلها بمساعدة ثاليس الميليسى

فيروون أن كرويسوس كان فى حيرة ، كيف يستطيع نقل قواته الى الشاطىء الآخر ؟ اذ لم تكن تلك الجسور قد أقيمت بعد فى ذلك الوقت ، وأن ثاليس ، الذى تصادف وجوده فى المعسكر وقتذاك ، قسم مجرى النهر قسمين ، وجعله يجرى على كل من جانبى الجيش ، بدلا من جريانه على يسار الجيش فقط ، فعل هذا بالكيفية الآتية : حفر قناة عميقة على مسافة ما من المعسكر ، وجعلها منحنية فى شكل نصف دائرة لكى تمر خلف المعسكر وبهذا العمل غير النهر مسيره الى هذه القناة الجديدة حيث ترك مجراه الاصلى ودار حول الجيش ثم عاد ثانية الى مجراه القديم . وبهذا شطر النهر الى مجريين يمكن عبور كل منهما فى سهولة ويسر . ويقول البعض أنه حول الماء تماما من المجرى الأصلى الى القناة . بيد أننى أخالف هذا الرأى ، اذ لا يمكننى أن أتصور كيف أمكنهم عبوره عند عودتهم .

بعد أن عبر كرويسوس نهر هاليس مع القوات التى تحت امرته ، دخل منطقة كبادوكيا التى تسمى بتيريا ، وتقع بجوار مدينة سينوبى التى تقع بدورها على نهر ايوكسينى ، وهى أقوى نقطة فى جميع تلك المنطقة . فأقام كرويسوس معسكره فيها وأخذ يخرب حقول السوريين . ثم حاصر أهم مدينة فى بتيريا واستولى عليها ، وأخذ أهلها عبيدا . كما جعل نفسه سيدا على القرى المحيطة بها . وهكذا جر الخراب على السوريين الذين لم يجنوا ذنبا فى حقه . فى تلك الاثناء جمع كوروس جيشا وسار به لمواجهة كرويسوس ، وكان يزيد من أعداده فى كل خطوة يتقدمها بقوات جديدة من الامم التى يمر بها فى طريقه . وقبل أن يبدأ بالمسير ، بعث رسلا الى الايونيين يدعوهم الى الثورة ضد ذلك الملك الليدى ، غير أنهم رفضوا دعوته . ومع هذا ! سار كوروس لمواجهة العدو ، وعسكر أمامه فى منطقة بتيريا حيث اختبرت قوة كل من الجيشين المتحاربين . كان القتال حارا مريرا . فوصل عدد القتلى من كل فريق الى رقم بالغ . وكانت الحرب سجالا بينهما فلما خيم الظلام على ميدان القتال، لم يكن أيهما قد أحرز انتصارا ما . وهكذا حارب كل من الفريقين بشجاعة وبسالة .

عزا كرويسوس عدم نجاحه فى الحرب الى قلة عدد قواته عن قوات عدوه . ولما لم يكرر كوروس هجومه فى اليوم التالى ، رجع كرويسوس أدراجه الى سارديس معتزما أن يجمع حلفاءه ويعاود الكرة فى الربيع . فما أن بلغها حتى أوفد الرسل الى شتى حلفائه يطلب منهم أن ينضموا اليه فى سارديس ، فى خلال خمسة شهور من رحيل رسله . ثم سرح

جيشه ــ المكون من الجنود المرتزقة ــ الذى اشتبك فى القتال مع الفرس، ثم سار معه الى العاصمة ؛ وأمر الجنود بالعودة الى بيوتهم ، ولم يتصور قط أن كوروس سيتجرأ بعد معركة تساوت فيها القوتان ؛ على السير لمهاجمة ساردیس ٠

بينما كان كرويســـوس لا يزال على ذلك الرأى ، اجتاحت الافاعى جميع الضواحى المحيطة بساردیس ٠ فلما رأتها الخيول تركت مراعيها وهرعت الى الضواحى لتأكل تلك الافاعى ٠ وعندما أبصر الملك هذا المنظر الغريب ، اعتبره علامة من لدن الالهة فأرسل فى الحال مبعوثين الى عرافى تلميسوس ليستشيرهم فى معنى ذلك الامر ٠ فوصل الرســـل الى تلك المدينة وحصلوا على تفسير لهذا الموضـــوع من العرافين ٠ بيد أن القدر لم يمكنهم من العودة الى سيدهم ، اذ أسر كرويسوس قبل أن يعودوا الى ساردیس ٠٠٠ قرر العرافون التلميسيون ، أنه يجب على كرويسوس أن يتوقع دخول جيش من الغزاة الاجانب فى مملكته ، وأنهم سيستعبدون شعبه عند مجيئهم لان الافعى هى طفل الارض أى ساكن البلد ، والحصان محارب أجنبى ٠ وكان كرويسوس قد وقع فى الاسر عندما أفضى العرافون بتفسيرهم ، ولم يكونوا يعرفون ما حدث فى ساردیس ، ولا مصير ملكها٠

عنـــدما انصرف كرويسوس فجأة بجيشه بعد موقعة بتيريا معتزما تسريح الجنود ظنا منه أنه قد تخلى عن القتـــال وانتهى الامر عند هذا الحد ، بيد أن كوروس أخذ يفكر قليلا ، فرأى من الحكمة أن يهـــاجم ساردیس بغاية السرعة قبل أن يتمكن الليديون من جمع فلول جيشهم مرة أخرى ٠ فما ان قرر ذلك ، حتى أسرع ، دون أن يضيع وقتا ، فى تنفيذ خطته ٠ فسار حثيثا حتى كان هو أول من أعلن مجيئه الى الملك الليدى٠ فارتبك الملك ووقع فى حيرة من تطور الاحداث بتلك السرعة ٠ هذه الاحداث التى لم يعمل لها حسابا ، والتى جاءت على عكس ما كان يتوقع ٠ ومع ذلك ؛ قاد الليديين الى القتال ٠ ولم يكن فى آسيا كلها ، فى ذلك الوقت ؛ شعب أشجع.ولا أقدر على القتال من شعب ليديا ٠ كانوا يقاتلون وهم على صهوات جيادهم ، ويحملون مزاريق طويلة القنا ، وكانوا بارعين فى قيادة تلك الجياد ٠

التقى الجيشان فى الســـهل الواقع أمام ساردیس ، وكان سهلا منبسطا فسيحا خاليا من الاشجار ، يرويه نهر هولوس وبعض الروافد الاخرى التى تصب فى مجرى متسع يسمى هيرموس ٠

لما أبصر كوروس الليديين ينظمون صفوفهم للقتـــال ، خشى قوة الفرسان ، فعمد الى حيلة أشار بها عليه أحد الميديين المدعو هارباجوس

فجمع كافة الجمال التى كانت تحمل المؤن والامتعة لجيشه ، ورفع عنها أحمالها ، وجعل جنوده يركبونها بنفس الطريقة التى يركب بها الفرسان الخيول • ثم أمر بأن يتقدم هؤلاء أمام الجيش لمقاتلة الفرسان الليديين ، على أن يتبعهم المشاة ، ويكون فرسانه فى المؤخرة • وبعد أن نظم جيشه على هذه الصـــورة ، أمر قواته بأن يقتلوا كل من يقع فى طريقهم من الليديين دون شفقة ولا رحمة ماعدا كرويسوس الذى يجب أن يقبضوا عليه حيا ولا يقتلوه أبدا حتى ولو أبدى مقاومة •

والسبب فى مواجهة الفرسان بالجمال ، هو أن الحصان يخـــاف الجمـــل بطبيعته لا يســـتطيع احتمـــال رؤيتـــه أو شم رائحته • وبهـــذه الطريقة كان يأمل فى أن يجعل الفرسان عديمة النفع لكرويسوس الذى كان يضع جل أمله فى النصر على أولئك الفرسان • فما ان التحم الجيشان فى القتال ، وأبصرت الخيول الليدية الجمال وشمت رائحتهـــا ، حتى جفلت وهربت مذعورة • وبهذه الحيلة ذهبت جميـــع آمال كرويسوس أدراج الرياح • ومع ذلك ، فقد حارب الليديون ببسالة • فعندما أدركوا ماحدث ، قفزوا من فوق ظهور جيادهم ، وواجهوا الفرس راجلين • وقد استغرقت المعركة وقتا طويلا • غير أن الليديين لم يستطيعوا الصمود أمام الفرس فنكصوا على أعقابهم وأطلقـــوا العنان لاقدامهم يسابقون الريح • فطاردهم الفرس حتى أسوارهم ، وحاصروا سارديس •

هكذا بدأ الحصار • وفى تلك الاثناء ، رأى كرويسوس أن المدينة لن تصمد طويلا أمام الحصار • فبعث رسلا آخرين الى حلفائه • كانت التعليمات التى تلقاها الرسل الأوائل أن يأمروا الحلفـــاء بالاجتماع فى سارديس فى الشهر الخامس • أما الذين أرسلهم الآن ، فكان عليهم أن يخبروهم بأنه محاصر فعـــلا ، وأن يهبوا لنجدته بأقصى ما يمكنهم من السرعة • ومن بين جميع الحلفاء ، لم ينس كرويسوس أن يرسل فى طلب النجدة من لاكيدايمون •

حدث فى ذلك الوقت أن كان الاسبرطيون أنفسهم مشـــغولين فى نزاع مع الارجوسيين حول موضع يقال له ثوريا فقد جمع الارجوسيون قوات ليمنعوا الاسبرطيين من احتلال ثوريا • فاتفق الطرفان على أن يختار كل منهم ثلثمائة جندى من رجاله ، ويتقاتل هؤلاء • فمن تكون له الغلبة يصبح ذلك الموضوع ملكا له • كما اتفقا أيضا على أن تعود بقية القوات الاخرى الى بلادها ولا تبقى لمشاهدة القتال ، اذ الخطر فى بقائها هناك • لان الجيش الذى يرى فريقه مهزوما سيضطر الى مساعدته • وبعد الاتفاق

على هذه الشروط ، انصرف الجيشان تاركين ثلاثمائة جندى مختار من كل فريق ليتقاتلوا من أجل تلك البقعة • فبدأت المعركة ، وظل الجانبان متعادلين فى القوة ، حتى أنه عندما أقبل المساء وتعذر القتال بسبب الظلام ، لم يبق حيا من كل أولئك الستمائة غير ثلاثة رجال : اثنين من الارجوسيين هما الكانور وكروميوس ، واسبرطى واحد هو أوثرياداس فاعتبر الارجوسيان أنهما منتصران ، وعلى ذلك أسرعا بالعودة الى أرجوس• أما أوثرياداس الاسبرطى فبقى فى الميدان ، وجرد جثث قتلى الارجوسيين من أسلحتهم ، وحملها الى المعسكر الاسبرطى • وفى اليوم التالى عاد الجيشان لمعرفة نتيجة المعركة • فتنازعا فى أول الامر اذ ادعى كل منهما أنه المنتصر • وكانت حجة أحدهما أن عدد الاحياء من فريقه يزيد على عدد الاحياء من الفريق الآخر • أما حجة الثانى فلان الرجل الباقى من فريقه ظل فى الميدان وجرد قتلى أعدائه من أسلحتهم بينما هرب الرجلان الباقيان من الفريق المعادى • وأخيرا تطور النزاع من الكلام الى الضربات، ونشأت معركة بين الجانبين كانت خسائرهما فيها فادحة • وفى النهايه انتصر اللاكيدايمونيون • عند ذلك قص الارجوسيون شعر رءوسهم ، وكان من عادتهم أن يحتفظوا بشعورهم طويلة ، واتخذوا قانونا لهم أيدوه بلعنة ألا يطيلوا شعورهم ، وألا تلبس نساؤهم الذهب الا اذا استردوا ثوريا • وفى الوقت ذاته آلى اللاكيدايمونيون على أنفسهم عكس هذا العهد تماما ، أن يطيلوا شعورهم التى اعتادوا أن يقصوها ويقال ان أوثرياداس، الشخص الذى بقى حيا من الثلاثمائة ، أحس بالعار بعد أن رأى ماأصاب مواطنيه من قتل وخسارة ، فلم يستطع العودة الى اسبرطة ، وقتل نفسه فى ثوريا •

ولو أن الاسبرطيين كانوا مشغولين بهذه الاحداث ، الا أنهم عندما حضر اليهم رسول سارديس يرجوهم فى أن يهبوا لمساعدة الملك المحاصر، بدءوا من فورهم فى العمل على تقديم المعونة • وعندما أتموا استعداداتهم، وكانت السفن على أهبة الرحيل ، جاءهم رسول آخر وأخبرهم بأن المدينة قد سقطت فى يد العدو ، وأن كرويسوس وقع فى الاسر • فحزن الاسبرطيون كثيرا على سوء حظ ذلك الملك ، وأوقفوا ارسال النجدة •

أما الطريقة التى سقطت بها سارديس فى يد الاعداء فهى كما يأتى: فى اليوم الرابع عشر من بدء الحصار ، أمر كوروس بعض الفرسان أن يمروا بين صفوفه ويعلنوا على الجيش كله أن الملك سيمنح جائزة لأول جندى يتسلق الحائط • ثم أمر بالهجوم على الاسوار ، ولكن دون جدوى • فانسحبت قواته الى مواقعها • بيد أن رجلا ماردیا يسمى هوردياديس

صمم فى قرارة نفسه على أن يجرب تسلق الحصن فى مكان ليس به أحد من الحراس اطلاقا كانت هناك صخرة شاهقة شديدة الانحدار فى موضع ما من سور الحصن ، وكان الحصن (كما يبدو) منيعا يستحيل تسلقه فى ذلك الموضع بحيث لم يخش الليديون اقتحامه اطلاقا • كان ذلك المكان هو الموضع الوحيد الذى لم يطف به ملكهم ميليس meles مع الأسد الذى أحضرته له معشوقته• فعندما قرر العرافون التلميسيون أنه اذا طاف الاسد حول وسائل الدفاع امتنعت سارديس على العدو • ولهذا سار ميليس بالاسد حول جميع سور الحصن ماعدا ذلك الموضع الذى بدا الحصن فيه منيع الاقتحام • احتقر ميليس فكرة الطواف بالاسد عند ذلك الجانب الذى كان ينظر اليه كمجرد هوة سحيقة فى غاية الأمان • كان ذلك الموضع فى جانب المدينة المواجه لجبل تمولوس ومع ذلك فقد رأى هورياديس جنديا ليديا ، فى اليوم السابق ، يهبط من تلك الصخرة بعد أن تدحرجت خوذته من فوق قمتها ، ورآه يلتقطها ويصعد بها ثانية • عند ذلك بدأ يفكر فيما شاهده ، ووضع فى نفسه خطة • فقام وتسلق الصخرة بنفسه ، وحذا حذوه الرجال الفارسيون الآخرون ، حتى صار فوق قمتها عدد كبير • وهكذا سقطت سارديس ونهب جميع مافيها •

أما كرويسوس نفسه ، فهذا ما أصابه من جراء سقوط عاصمته . كان له ابن سبق أن تحدثنا عنه ، وكان شابا قويا ، الا أن عيبه الوحيد هو أنه كان أصم وأبكم وقد عمل كرويسوس ، فى أيام عزه ، كل مافى وسعه من أجل هذا الابن • ومن بين ماعمله أنه أرسل يستشير وحى دلفى بشأنه ، وهاك الرد الذى جاءه من الكاهنة :

أيها الملك الليدى الواسع السلطان، ياكرويسوس الساذج المدهوش لاينبغى قط أن تسمع فى قصرك صوت من تتوسل من أجله أن ينطق بأصوات حكيمة • فمن الافضل أن يظل ابنك صامتا ! ياويلتاه ! ويح اليوم الذى تسمع فيه أذنك صوته لاول مرة •

عندما سقطت المدينة ، كان أحد الفرس على وشك أن يقتل كرويسوس غير عارف شخصيته • ورأى كرويسوس الرجل منقضا عليه، وتحت ضغط مصيبته لم يهتم بأن يتحاشى الضربة ، اذ لم يكترث لان تكون هى الضربة القاضية • بيد أن ابنه الابكم ، عندما أبصر الفارسى مندفعا نحو والده ارتعد خوفا ، ومن هول ذعره انطلق لسانه فقال : « ابتعد ، أيها الرجل ، ولا تقتل كرويسوس • » فكانت هذه أول مرة

نطق فيهـا بكلمة فى حياته كلها ، وبعد ذلك استعاد قوة الكلام بقيـة عمره ٠

هكذا سقطت سادريس فى يد الفرس ، ووقع كرويسوس نفسه فى قبضتهم بعد أن حكم أربعة عشر عاما ، وحوصر فى حاضرة ملكه أربعة عشر يوما ٠ وبهذا تحققت نبوءة الوحى الذى قال : انه سيخرب امبراطورية قوية ، فقد خرب امبراطوريته هو نفسه وليس امبراطورية الفرس ٠ بعد ذلك قام جنود الفرس الذين أسروا كرويسوس بنقله الى ملكهم كوروس٠ فأمر هذا الاخير بعمل كومة حريق ضخمة ، ووضع كرويسوس فوقهـا مقيدا بالسلاسل ، ومعه أربعة عشر من أبناء ليديا ٠ ولست أدرى ما اذا كان كوروس قد اعتزم تقديم القرابين لاله ما ، من باكورة ثمار انتصاره ، أو اذا كان قد نذر نذرا وشرع يوفيه عند ذاك ، أو ما اذا كان قد سمع أن كرويسوس رجل مقدس ، ورغبفى أن يرى ما اذا كان أحد الشخصيات السماوية سيظهر لانقاذه من الحرق حيا ٠ وبينما كان كوروس مشغولا فى عمله ، وكان كرويسوس فوق الكومة ، مرت بذهن هذا الاخير وهو فى أشد حالات محنته أن هناك تحذيرا مقدسا فى الالفاظ التى سمعها من فم سولون : « ما من أحد يكون سعيدا وهو حى » ٠ فعندما تذكر هذه العبـارة تنفس نفسـا عميقا ، وخرج عن صمته الطويل ، وصاح بأعلى صوته مرددا اسم سولون ثلاث مرات ٠ فطرقت سـمع كوروس تلك الاصـوات ، وأمر المترجمين بأن يسـتفهموا من كرويسوس عمن كان يناديه ٠ فاقتربوا منه وسألوه ، ولكنه لزم الصمت ، وظل مدة طويلة لا يجيب عن أسئلتهم ، حتى اضطر أخيرا الى أن يقـول شيئا ، فصاح قائلا : « انه رجل ، أدفع أعز ماعندي لأراه يتحدث الى كل ملك » ٠ ولما لم يفهم المترجمون المعنى الذى يقصده بهذا الرد ، رجوه فى أن يفسر لهم كلامه ٠ ولمـا ألحوا عليه فى طلب الرد وبدا عليهم القـلق ، أخبرهم كرويسوس كيف جاءه سولون الاثينى منذ مدة طويلة ، ورأى كل عظمته، فاستخف بها ٠ وكيف أن كل ما قاله قد تحقق الآن ٠ وبرغم أن ذلك كان شيئا خاصا به وحده ، الا أنه ينطبق على الجنس البشرى عامة ، ولا سيما على من يعتبرون أنفسهم سعداء ٠ وبينما كان يتكلم ، أضرمت النار فى الكومة ، وبدأ جزؤها الخارجى يشـتعل ٠ بعد ذلك سمع كوروس من المترجمين ماقاله كرويسـوس فلانت عريكته وتحركت فى نفسه عاطفة الشفقة ، وفكر فى أنه هو نفسه انسان ، وأن كرويسوس انسان مثله ، وكان من قبل متمتعا بنعيم الحظ مثله أيضا ذلك الذى سيحرق حيا ٠ واذ خاف تبكيت الضمير ، وتسلطت على ذهنه فكرة أن كل ماهـو بشر

فليس بآمن • وعلى ذلك أمر رجاله باطفـــاء النيران المتأججة بكل مافى مكنتهم من سرعة ، وأن ينزلوا كرويسوس ومن معه من الليديين من فوق الكومة • بيد أن أحدا لم يستطع التغلب على اللهب المستمر •

بعد ذلك ، كما يقول الليديون ، عندما رأى كرويسوس الجهد الذى بذله الجنود فى اخمـــاد النيران ، عرف أن كوروس قد ثاب الى رشده وعاودته الشفقة ، ولما رأى كذلك أن لا فائدة من جهودهم ، وان أولئك الرجال لن يســتطيعوا السيطرة على النيران ، صاح بأعلى صوته ينادى الاله أبولو *Apollo* وصلى اليه ان كان قد تسلم على يديه أية هدايا مقبولة، أن يأتى ويخلصه من ذلك الخطر المحدق به • ولما كان يتوسل الى ذلك الاله والدموع تنهمر غزيرة من عينيه ، وعلى الرغم من أن السماء كانت صافية الاديم وقتذاك ، وليس فى الجو أى نفحة من الريح ، فقد تجمعت السحب الدكناء وهبت العـــاصفة فوق رءوسهم ، ونزل المطر وابلا حتى أطفئت النـــيران بسرعة • واذ اقتنع كوروس بتلك الظـاهرة تأكد أن كرويسوس لا بد أن يكون رجلا طيبا ومحبوبا لدى السماء • فسأله بعد أن أنزلوه من فوق الكومة : « من الذى حرضك على أن تقود جيشا وتهاجم به مملــكتى فصرت عدوى بدلا من أن تســتمر صـــديقـــا لى ؟ » فأجاب كرويسوس قائلا : « اعلم ، أيها الملك ! أن ما فعلته قد أتى عليك بالنفع وباء على بالخسران • فان كان هناك لوم فانما يقع على اله الاغريق الذى شجعنى على أن أبدأ الحرب • لم تبلغ درجة الغباء بأحد أن يفضل الحرب على السلم • تلك الحرب التى جعلت الآباء يدفنون أبناءهم ، بدلا من أن يدفن الابناء آباءهم بيد أن هذه هى مشيئة الالهة » •

هذا ما قاله كرويسوس • فأمر كوروس بفك قيـــوده ، وأجلسه قريبا منه ، وبالغ فى احترامه ، ناظرا اليه بكل تقدير واعجاب ، وكذلك فعلت الحاشية • فظل كرويسوس غارقا فى التفكير لاينبس ببنت شفة • وبعد برهة حانت منه التفاتة فأبصر الجنود الفارسيين منهمكين فى نهب المدينة ، فقال لكوروس : « أتسمح لى ، أيها الملك ، بأن أصارحك بما يجول فى خاطرى ، أم السكوت أفضل ؟ » فأمره كوروس بأن يتكلم بما فى ضميره بكل جرأة • فسأله كرويسوس : « ماذا يفعل أولئك الرجال ، وما الذى يشغلون أنفسهم به الى هذه الدرجة ، ياكوروس ؟» قال : « انهم ينهبون المدينة ويأخذون أموالها ونفائسها » • قال : « ليست هذه مدينتى ولا أموالى • لم تصبح هذه ملكا لى بحـــال ما • انها ثروتك هذه التى ينهبونها » •

أعجب كوروس بما قاله كرويسوس، فأمر جميع حاشيته بالانسحاب بعيدا ، ثم سأله عن أنسب شيء يمكن أن يفعله ازاء هذا النهب • فأجاب كرويسوس بقوله : « بما أن الالهة جعلتنى عبدا لك ، ياكوروس ! يبدو لى أنه من واجبى أن أوضح لك ما أراه من صالحك • ان رعاياك الفارسيين قـــوم فقراء ذوو روح مزهوة • فاذا سمحت لهم بنهب المدينة وامتلاك أموالها وكنوزها ، فلا تتوقع منهم الا أن يتألب عليك من ينال منهم من الثروة أكثر من الجميـــع • فان راقك حديثى هـــذا ، فافعل ما أشـــير به عليك ، أيها الملك : ضع بعضا من حرسك الخاص عند كل باب من أبواب المدينة ، ومرهم بأن يأخذوا الغنـــــائم من الجنود وهم خارجون ، وأن يخبروهم بأنهم يجمعون الغنائم لانه يجب تقديم العشور لجوبيتر • بهذا يمكنك أن تتجنب العداوة التى يشعرون بها نحوك لو أخذت الغنائم منهم بالقوة • وعندما يجدون أن ما اقترحه عليك عدل وواجب ، فانهمسيقدمون مانهبوه عن طيب خاطر » •

أما سرور كوروس بهذه النصيحة ، فحدث عنه ولا حرج ، اذ رآها عين الصواب فأثنى على أصالة رأى كرويسوس أجمل الثناء وأعظمه وأمر حرسه الخاص بأن يفعل كما اقترح • ثم استدار الى كرويسوس ، وقال له : « أيا كرويسوس ! انك لبالغ الحكمة حقـــا فى أقوالك وفى أفعالك • وانك لمعتزم حقا أن تبرهن على أنك أمير مخلص وفى • أطلب منى ما تشاء كهدية لك » • فقـــال كرويسوس : « أى ســـيدى ! أرجو أن ترسل هذه السلاسل والأصفاد الى اله الأغارقة الذى كنت أجله فوق سائر الالهة ، واسأله ما اذا كان يهمه أن يخـــــدع من يقدمون له الخيرات ـ سيكون هـــذا أعظم معروف يمكنـــك أن تمنحنى اياه » • وعنـــدما سـمع كوروس كلامه هذا ، سأله عن التهمة التى يوجهها الى ذلك الرب • فقص عليه كرويسوس كل ما فعله ، والردود التى جاءته من الوحى ، والهدايا التى أرسلها اليه ، والذبائح التى قدمها له • كما أخبره كيف شجعه الوحى على أن يشن الحرب على فارس • روى له كل هذا ، وفى النهاية طلب السماح له بزجر ذلك الاله على مسلكه • فقال كوروس ضاحكا : « سأمنحك هذا ، بغير شك ، وكل ما تطلبه منى فى أى وقت » • فلما رأى كرويسوس أجابته الى طلبه ! أرسل بعض الليديين الى دلفى وأخبرهم بأن يضعوا أغلاله على عتبة المعبـــد ويسألوا الاله بقولهم : « ألا يخجل من تشجيعه كرويسوس على تخريب امبراطورية كوروس بأن يشن الحرب على فارس • فكانت أولى ثمرات تلك الحرب هذه السلاسل ؟ » وبعد أن

يقولوا هذا ، عليهم أن يشيروا الى السلاسل ، ويقولوا : « هل من عادة آلهة الاغريق أن ينكروا الجميل ؟ »

ذهب الليديون الى دلفى ، وقاموا برسالتهم ، فردت عليهم الكاهنة بقولها : « من المستحيل ، حتى على أى اله ، أن يفلت من القضاء المحتوم • لقد عوقب كرويسوس عن جريمة اقترفها خامس أسلافه ، ذلك الذى عندما كان حارسا خاصا فى الاسرة الهرقليدية ، اشترك فى مؤامرة قامت بها سيدة ، فقتل سيده واغتصب عرشه بغير حق • فقرر أبولو ألا تسقط ساردیس فى حياة كرويسوس ، بل أجلسها الى عهد ابنه • ومع ذلك ، فلم يستطع مقاومة الأقدار • لقد وهب كرويسوس كل ما سمحت به الأقدار • أخبروا كرويسوس بأن أبولو أجل سقوط ساردیس ثلاث سنوات كاملة ، وأنه صار أسيرا بعد الموعد الذى حدد ليقع فيه فى الاسر بثلاث سنوات • وعلاوة على هذا ، فان أبولو هو الذى خلصه من الاحتراق حيا فوق الكومة ولا حق لكرويسوس فى أن يشكو من الاجابة التى تلقاها من الوحى • اذ عندما أخبره الوحى بأنه اذا هاجم فارس خرب امبراطورية قوية ، كان يجب عليه ان كان حكيما ، أن يرسل ثانية ويستفهم عن الامبراطورية التى يقصدها الوحى : هل هى امبراطورية كوروس ، أو امبراطوريته هو نفسه • وبما أنه لم يفهم ما قيل ، ولم يكلف نفسه مئونة السؤال عن تفسير ما غمض عليه ، فلاحق له فى أن يلوم غير نفسه عما حدث • وزيادة على هذا ، فقد أساء فهم الرد الاخير الذى قيل له عن البغل لان والدى كوروس كانا من جنسيتين مختلفتين ومن طبقتين مختلفتين أيضا : فأمه أميرة ميدية ، هى ابنة الملك استياجيس ، وأبوه فارسى من عامة الشعب ، تزوج من سيدته الملكة رغم جميع الاعتبارات » •

هكذا كان رد الكاهنة • فلما رجع الليديون الى ساردیس وأفضوا الى كرويسوس بكل ما سمعوه ، اعترف بأنه المخطىء وليس الاله ••• هذه هى الكيفية التى هزمت بها أيونيا لأول مرة • وبهذا انتهت امبراطورية كرويسوس •

الفصل السادس

****

أسطورة كوروس

أوضحنا فيما سبق كيف وقع الليديون تحت نير الحكم الفارسى • ومن سياق التاريخ ، أرانى مضطرا الى البحث عمن يكون كوروس هذا ، الذى خرب الامبراطورية الليدية ، وبأية وسائل صار الفرس سادة آسيا كلها • وسأتبع هنا روايات المصادر الفارسية التى يبدو أن هدفها ليس تفخيم الفتوحات الفارسية ، بل ذكر الحقيقة المجردة وعلاوة على هذا ، فانى أعرف ثلاث طرق أخرى تروى بها قصة كوروس ، وكلها تختلف عن روايتى لها •

كان يعيش فى فارس رجل ميدى يدعى ديوكيس ، ابن فراورتيس وكان على قدر بالغ من الحكمة • فأدرك حاجته الى التمتع بسلطان الملك ولكى يحصل على ما يطمح اليه ، كون لنفسه خطة وعمل على تنفيذها بالطريقة الآتية : لما كان الميديون يعيشون ، فى ذلك الوقت ، فى قرى متناثرة دون أن تحكمهم أية سلطة مركزية ، سادت الفوضى وانتشرت السرقة والنهب والقتل فى جميع أنحاء البلاد وكان ديوكيس هذا ذا مكانة محترمة فى قريته • فقرر أن يلتزم هو نفسه الاستقامة والجد ، ويراعى العدل فى الحكم بين المتنازعين من زملائه • كان العدل والظلم فى حرب دائمة • وعلى ذلك شرع يسلك مسلكا مستقيما ظاهرا • وسرعان ما لاحظ أهل قريته أمانته ونزاهته ، فانتخبوه قاضيا يفصل فى منازعاتهم • ولما كان يضع نصب عينيه أن يصير ملكا ، أبدى منتهى الأمانة والعدل فى أحكامه • وبذا نال منزلة سامية بين أهل قريته ، حتى جذب اليه أنظار أهالى القرى المحيطة • كان الاهلون فيما مضى يعانون الأمرين من الظلم وأحكام الاستبداد ، لدرجة أنهم عندما سمعوا عن استقامة ديوكيس

واحقاقه الحق بصورة منقطعة النظير ، صـــاروا يلجئون اليـه فى شتى منازعاتهم وقضاياهم ، حتى أصبحوا لا يثقون فى أحد غيره .

كان عدد الشكاوى التى تقدم اليــه فى ازدياد مطرد ، كلمــا عـم الناس بعدل أحكامه . فلما شعر بأهميته بين مواطنيه ، أعلن أنه لن ينظر فى القضايا بعد ذلك ولم يعد يظهر فى المكان الذى اعتــاد الجلوس فيه للفصل فى القضايا واقامة العدل قائلا : «ان مما يتعارض ومصــالحه أن يقضى اليوم كله فى تنظيم شئون غيره من الناس ويهمل أمور نفسه» . ولذلك اجتمع الميديون من كافة البلاد وعقدوا مجلسا يتشاورون فيه فى أمور دولتهم . وكان معظم الخطباء على ماأعتقد من أصدقاء ديوكيس . فكانوا يقولون : « لايمكننا الاستمرار فىالمعيشة بهذه المملكة فى حالتها الراهنة . وعلى ذلك ، هيا بنا نعين لنا ملكا يحكم البلاد بالعدل ويضرب على أيدى المفسدين . وبذا نستطيع ، نحن أنفســنا أن نلتفت الى شئوننا الخاصة ولا نضطر الى ترك وطننــا بسبب هذه الفوضى » . فتأثر المجلس بهــذه الحجج وقرر تعيين ملك .

بعد ذلك كان على الجمع أن يتشاوروا فيمن ينتخبونه لهذا المنصب وعندما فتح باب المناقشة ، كان كل لسان يذكر اسم ديوكيس ويفيض عليه بالثناء والمديح حتى أجمعوا كلهم على تنصيبه ملكا عليهم . عند ذلك وجــد أنه بحــاجة الى قصر يتفق ومنزلتــه ، وحرس خاص له . فأجاب الميديون رغبته وبنوا له قصرا عظيما قوى البنـــاء(١) فى الموضع الذى اختاره بنفسه ، وأعطوه الحرية فى انتقاد حرسه الخاص من بين أفراد الامة كلها وبعد أن جلس على العرش ، طلب منهم بناء مدينة كبيرة واحدة وان يهجروا القرى الصـــغيرة التى كانوا يقيمون فيهــا من قبل ، وبذا تكون العاصمة الجديدة موضع اهتمامهم فأطاع الميديون هذه المشيئة أيضا ، وبنوا المدينة التى أطلقوا عليها اسم أجباتانا Agbatana وكانت ضخمة الاسوار قويتها ، ترتفع فى دوائر ، واحدة داخل أخرى . كان تصميم المدينة أن يرتفع كل سور عن الآخر بمقدار الابراج المقامة فوقه وساعد على ذلك ، بعض الشيء ، طبيعة أرض التل الذى بنيت عليه المدينة ؛ اذ كان معتدل الانحدار ، أما الفضــل الاكبر فى اتمامها على تلك الصورة فكان للفن . كانت الاسوار مكونة من سبع دوائر يتوسط آخر دائرة منها قصر الملك

---

(١) يقول بوليبيوس ان محيط القصر الملكى في أجباتانا كان سبعة استادات (الاستاد = ٥٨٢ قدما ، فيكون طول محيطه اكثر من اربعة اخماس الميل أى حوالى ١٢٥٠ مترا) .

وبيت المال . كان السور الخارجى على غرار سور اثينا . وكانت أبراجه بيضاء اللون ، وابراج السور الثانى سوداء ، والثالث حمراء ، والرابع زرقاء ، والخامس برتقالية . وقد طليت كل هذه الابراج بالطلاء الملون . أما أبراج السورين الأخيرين فقد كسيت بالفضة والذهب على الترتيب .

صنع ديوكيس كل هذه التحصينات من أجل نفسه ومن أجل قصره . أما الشعب فكان عليه أن يبنى بيوته خارج نطاق الاسوار . ولما انتهى من بناء المدينة بدأ ينظم قواعد التشريفات الملكية . فلم يسمح لاحد بالاتصال بالملك مباشرة ، وانما يكون اتصال الشعب به عن طريق الرسل . وحرم على أفراد الرعية رؤية ملكهم . كما حرم على أى فرد ، مهما كانت منزلته أن يضحك أو يبصق فى حضرة الملك . وضع ديوكيس هذه المراسيم ، التى كان أول من ابتدعها ، ضمانا لسلامته . لان نبلاء مملكته الذين نشئوا وتربوا معه ، وكانوا من أصل عريق حقا ، وليسوا أقل منه فى صفات الرجولة ، اذ اختلطوا به كثيرا ، تأثروا من رؤيته متفوقا عليهم . وبهذا لايستبعد أن يدبروا المؤامرات ضده . بينما اذا امتنعت عليهم رؤيته ، ظنوه من طينة غير طينتهم .

بعد أن أتم ديوكيس هذه الترتيبات ، ووطد مركزه على العرش ، استمر يفصل فى القضايا بنفس العدل الذى كان يحكم به من قبل . كانت القضايا ترسل اليه كتابة ، فيفصل فيها ويصدر حكمه . ثم تبلغ الاحكام الى أطراف النزاع . وعلاوة على هذا ، كان له جواسيس وعيون فى جميع أنحاء مملكته ، يبلغونه عن كل مايرونه من أعمال الظلم والخروج على القانون ، وعندئذ ينال الآثم العقاب الذى يتفق وما ارتكبه من اثم .

وهكذا جمع ديوكيس الميديين فى أمة واحدة ، وحكمهم بمفرده .

توفى ديوكيس بعد أن حكم ثلاثة وخمسين عاما فتولى الحكم بعده ابنه فراورتيس .. لم يقنع هذا الامير بممتلكاته التى لم تتجاوز الامة الميدية فحسب . فبدأ فى توسيع ملكه بمهاجمة الفرس . سار اليهم على رأس جيش فأخضعهم تحت نير الحكم الميدى قبل أية دولة أخرى . فأصبح بعد نجاحه فى تلك الحرب ملكا على أمتين بالغتى القوة . ثم شرع فى فتح آسيا ، متغلبا عليها منطقة بعد أخرى . واخيرا اشتبك فى حرب مع الآشوريين الذين كانت تتبعهم نينوى والذين كانوا من قبل سادة آسيا ، فى ذلك الوقت تمرد عليهم حلفاؤهم وتخلوا عن مساعدتهم ، فوقفوا وحدهم فى القتال . ومع ذلك ، كانت أحوالهم الداخلية مزدهرة كما كانت من

قبل . ولما هاجمهم فراورتيس، هلك فى حملته عليهم هو ومعظم جيشه. وبذا مات بعد أن حكم الميديين اثنتين وعشرين سنة .

بعد موت فراورتيس خلفه على العرش ابنه كياكساريس ويروىعنه انه كان محبا للقتال أكثر من أى ملك آخر من أسلافه . وانه أول من نظم الجيوش فى آسـيا ، وقسم الجنود الى كتائب . وجعل الرماحين قسـما منفصلا عن النبالين وعن الفرسان بعد أن كانوا مختلطين معا قبل ذلك ، كان ذلك الملك هو الذى حارب الليديين عندما تحول النهار فجأة الى ليل . وأخضع لحكمه جميع دول آسيا الى مابعد نهر هاليس . جمع ذلك الملك كل الامم الخاضعة لحكمه وسار بهم لمحـاربة نينوى ، معتزما الأخذ بثـأر أبيه ، ومؤملا أن ينتصر فى غزو هـذه المدينة ، فالتحـم الجيشان فى معركة هزم فيها الأشوريون . وبدأ كياكساريس بحصار المدينة ، فاذا بجيش عرمرم من السكوثيين يهجم عليهـم بقيادة الملك ماديس ، وكاد يطـارد الكيميريين من أوربا . وهكذا دخل السكوثيون الأراضى الميدية .

بعد أن غزا السكوثيون ميديا ، وجدوا معارضة قوية من الميديين الذين اشتبكوا معهم فى حرب شعواء . ولكنهم هزموا فى النهاية وفقدوا امبراطوريتهم . وبذا أصبح السكوثيون سادة آسيا .

لم يقنع السكوثيون بذلك النصر ، فتقدموا فى سيرهم قاصدين غزو مصر . بيد انهم عندما وصلوا الى فلسطين ، قابلهـم بساميتيكوس ملك مصر بالهدايا والتضرعات . وبذا نجح فى وقف تقدمهم الى بلاده . وعند عودتهم مروا بمدينة اسكالون فى سوريا(١) فسار الجزء الاكبر منهم فى طريقه دون احداث أى ضرر . أما القلة التى كانت فى المؤخرة فنهبت معبد فينوس السماوية(٢) وقد استفسرت عن هذا الامر فعلمت أن معبـد أسكالون هو أقدم المعابد المكرسة لتلك الربة . اذ بنى معبدها فى قبرص باعتراف القبرصيين انفسهم محاكاة لمعبدها فى أسكالون . أما معبدهـا الموجود فى كوثيرا فبناه الفينيقيون التابعون لذلك الجزء من سوريا. وقد عاقبت هذه الربة السكوثيين الذين نهبوا معبدها بأن سلطت عليهمالمرض

---

(١) كانت اسـكالون من أقدم مـدن فلسطين(القضاة ١ ، ٨ ، ١٤ ، ١٩ ، وغيرها). جاء ذكر اسكالون لاول مرة في المخطوطات المسمارية في عصر سيناكريب الذى فتحها في حملته الشهيرة التى قام بها في السنة الثالثة من حكمه .

(٢) ربما يقصد هيرودوت الربة السورية انيرجايس أوديركينو التىكانوايعبدونها في أسكالون وفي سائر المدن السورية . وتصور في هيئة حورية ـ بحرية نصفها العلوى لامرأة والسفلى لسمكة . ويمكن تشبيهها باستراتى ومن ثم بفينوس الاغريقية .

الانثوى (ربما يقصد هيرودوت بهذا المرض ، الولع الشديد بالنساء؟ الذى لايزال عالقا بذريتهم • ويعترف أولئك السكوثيون بأنهم أصيبوا بهـذا المرض بسبب نهبهم ذلك المعبد • ويستطيع السـائحون الذين يزورون سكوسيا أن يعرفوا أى نوع من الامراض هذا الذى سـلطته عليهم تلك الربة • ويطلق على من يصابون به اسم Enarees

ظل السكوثيون يحكمون آسيا مدة ثمان وعشرين سنة أظهروا فيها منتهى الوقاحة والغطرسة والاستبداد حتى عم الخراب كل مكان • ففضلا عن الجزية المعتادةفرضوا كثيرا من الضرائبالاضافية على عدة أمم ، وكانوا يحددونها حسبما يتراءى لهم • وعاثوا فسادا فى طول البـلاد وعرضها ونهبوا من جميع الافراد كل ما أمكنهم نهبه • واخيرا وقد بلغ السـيل الزبى ، دعا كياكساريسوالميديون أكبر عدد منهم الىوليمة قدموا لهمفيها كميات وافرة من الخمر حتى سكروا • عندئذ أعملوا فيهم التقتيل حتى أبادوهم عن بكرة أبيهم • وبعد ذلك استعاد الميديون امبراطوريتهم بكامل حدودها السابقة • فأخذوا نينوى ــ وسأروى كيفية أخذهم اياها فى باب آخر ــ وفتحوا جميع آشورماخلا منطقة بابل• بعد ذلك مات كياكساريس وقد حكم الميديون أربعين سنة بما فيها المدة التى حكم فيها السكوثيون •

ورث استياجيس ابن كياكساريس العرش بعد أبيه • وكان له ابنة تدعى ماندانى وذات ليلة ، رأى فيما يراه النائم حلما عجيبا بخصوصها رأى أن تيارا عظيما من الماء تدفق منها ، ولم يملأ عاصمته فحسب ، بل وغمر جميع آسيا • فعرض رؤياه على الكهنة Magi الذين لهم موهبـة تفسير الاحلام • فأخبروه بمعناه كاملا • فلما سمع تأويلهـم ذعر ذعرا بالغا • وعلى هذا عندما كبرت ابنته وبلغت سن النضج ، لم يزوجها لأحد من الميديين ذوى المستوى المناسب ، لئلا يتحقق الحـلم • وانما زوجهـا لرجل فارسى من أسرة طيبة حقا ، وكان هادىء الطباع يعتبره الملك أقل منزلة من أى رجل ميدى متوسط الحال •

هكذا تزوج قمبيز (وهو اسم الرجل الفـارسى) ماندانى ' وفى السنة الاولى لزواجها ، رأى استياجيس حلما آخر • رأى كرمة نبتت من رحم ابنته وظللت جميع آسيا • وبعد أن عرضه أيضا على مفسرى الاحلام ، أرسل فىاستدعاء ماندانى " التى كانتوقتذاك حبلى فى شهورهاالاخيرة• وعندما حضرت اليه ' أقام عليها الحراسة معتزما قتل الطفل الذى تلده• لان الكهنة أخبروه بأن مولود ابنته سيحكم آسيا بدلا منه • ولكى يتحاشى استياجيس حدوث هذا ، ما أن ولدت ابنته طفلها كوروس ، حتى أرسل

يستدعى هارباجوس وكان رجلا من أفراد بيته ، كما كان أخلص ميدى للملك الذى اعتاد أن يعهد اليه بجميع شئونه فقـــال له : « انى آمرك يا هارباجوس ألا تهمل فى العمل الذى سأعهد به اليك • لا تخن مصالح مليكك من أجــل خاطر الآخرين ، لئــلا تجلب الخراب على رأســك فى أى وقت تظهر فيه خيانتك • خذ الطفل الذى ولدته ابنتى ماندانى ، معك الى بيتك حيث تقتله ؛ ثم ادفنه • » فأجاب الآخر ؛ قائلا : « لم يحــدث أن عصى هارباجوس لك أمرا فى وقت يا سيدى • كن على يقين من أنه سيظل كذلك فى المستقبل جميعه ولن يأتى أمرا قط يمكن أن تســـتاء منــه • فطالما كانت مشيئتك أن يتم هذا الامر ، فمن واجبى أن أنفذ أمرك بكل اخلاص » •

عند ما سمع الملك اجابة هارباجوس هذه ؛ سلمه الطفل ملفوفا فى ثياب الموت • فأسرع الاخير الى منزله يبكى • فلما بلغه ، وجد زوجته ، فقص عليها الخبر ، فقالت : « وماذا تنوى ، فى دخيلة نفسك ، أن تفعل الآن ؟ » قال : « لن أنفذ رغبة استياجيس • فلن يكون فى أى وقت ، أشد جنونا ولا تهورا ، منه الآن• ولكنى لست ذلك الرجل الذى يوافقه على هذا أو يساعده على القتل بهذه الصورة • هناك عدة أسباب تمنعنى من قتل الطفل • فأولا : ينتمى الى هذا الطفل من ناحيتى القرابة والصــداقة وثانيا : ان استياجيس رجــل عجوز لا ولد له • فاذا مات ، ورثت ابنته التاج ـ ابنته التى يريد أن يستخدمنى فى قتل ابنها هذا ـ فماذا يبقى لى اذن ، غير الخطر ، وأشد الاخطار هولا ؟ حقــا ، يجب أن يموت الطفل حفظا لسلامتى • ولكن شخصا ما ، من أتبــاع استياجيس ، هو الذى سيقتله ، ولست أنا ، أو أحد من أتباعى » •

ما ان قال هــــذا حتى بعث رســولا يطلب حضور رجل يقال له ميترادانيس وهو أحد الرعاة التابعين لاستياجيس ؛ اذ كان هارباجوس يعرف أن مراعيه أنسب مكان يتم فيــه هــذا الغرض ، لأنها تقع وسط الجبال وتؤمها الوحوش الكاسرة • وقد تزوج هذا الرجل احــدى اماء الملك واسمها الميدى سباكو ؛ ومعناه بالاغريقية كونو ومعنى اللفظ الميدى « خنزيرة » وتقع الجبال التى ترعى الماشية على جوانبها ، شمالى أجباتانا! جهة ايوكسين وهذه الاخيرة منطقة ميدية على حدود ساسبيريا عبــارة عن مرتفع كثير الجبال ومكسو بالغابات ، بينما سائر الاراضى الميدية الاخرى سهول منبسطة •

أسرع ذلك الراعى بتلبية نداء هارباجوس • فلما وصل اليه ، قال

له الاخير : « يأمرك استياجيس بأن تأخذ هذا الطفل وتضعه فى أكثر مناطق الجبال خطرا ، حيث تفتك به الوحوش بسرعة • كما أمرنى أن أخبرك بأنك اذا لم تقتل هذا الطفل ، وسمحت له بالهروب ، بطريقة ما ؛ فسيقتلك أشنع قتلة • وقد عيننى ، أنا نفسى لأتأكد من موت الطفل » •

بعد أن سمع الراعى هذا الكلام ؛ أخذ الطفل على ذراعيه ؛ وعاد به من الطريق التى جاء منها ؛ حتى بلغ الموضع الذى ترعى فيه قطعانه • ولحسن الحظ ، كانت زوجته حبلى فى آخر شهورها فجاءها المخاض فى غياب زوجها ، ووضعت طفلا ذكرا وكان كل من الراعى وزوجته فى قلق على الآخر • أما هو ، فبسبب ان زوجته كانت فى آخر أيام الحمل ويتوقع أن تلد طفلها الاول فى أية لحظة • وأما هى ؛ فلأن هارباجوس لم يسبق أن أرسل فى طلب زوجها قبل ذلك • فلما وصل الى بيته ورأته زوجته يعود اليها على غير انتظار ، كانت أول من بدأ بالكلام ، ورجته فى أن يخبرها لماذا أرسل هارباجوس فى طلبه بهذه السرعة ، فقال لها : « زوجتى ! عندما ذهبت الى المدينة ، رأيت وسمعت أشياء — أقسم بالسماء ، أننى لم أر مثلها يحدث لسادتى من قبل • كل فرد فى بيت هارباجوس كان يبكى ففزعت غاية الفزع ، ولكنى برغم هذا دخلت البيت • وماذا رأيت بمجرد دخولى غير طفل فوق الارض ؛ يصرخ ويتلوى ؛ وقد غطى كله بالذهب ؛ ولف بملابس جميلة الالوان • وما أن رآنى هارباجوس حتى أمرنى بأن أحمل الطفل بين ذراعى وأنصرف به • وماذا تظنين أن أفعل به ؟ أن أتركه فى الجبال حيث تكثر الوحوش المفترسة ؛ وأخبرنى بأن الملك نفسه هو الذى أمر بهذا • وهددنى بالوعيد المخيف ان لم أطع أمره • وهكذا حملت الطفل على ذراعى وجئت به • وكنت أعتقد أنه ابن احدى اماء الملك • وقد أدهشتنى حقا رؤية الذهب وملابس الطفل الجميلة • ولم أستطع تعليل مثل ذلك البكاء فى منزل هارباجوس • ولكن سرعان ما عرفت الحقيقة كلها • فقد أرسلوا معى خادما يدلنى على الطريق الى خارج المدينة ، ويسلمنى الطفل • فأخبرنى ذلك الخادم أن أم الطفل هى ماندانى ابنة الملك ، وأن أباه قمبيز بن كوروس • وأن الملك هو الذى أمر بقتله • وانظرى ، ها هو الطفل » •

عند ذلك كشف الراعى الغطاء عن الطفل لتراه زوجته • فما أن رأت جماله وحسن شكله، حتى انخرطت فى البكاء وتعلقت بركبتى زوجها متوسلة ألا يتصرف فى هذا الطفل بحال ما • فأجابها بأنه لا يستطيع أن يفعل غير ما أمر به • اذ من المؤكد أن هارباجوس سيرسل من يتأكد من تنفيذ الامر • وان خالف ، فلا ينتظر غير أشنع ميتة • فلما وجدت

الزوجة أنها أخفقت فى أولى محاولاتها ، قالت ثانيــة : « اذن ؛ فبما أنه لا فائدة من أى توسل أو رجاء ، ولابد من رؤية طفل مقتول فوق الجبال فلا أقل من أن تفعل ما سأشير به عليك • خذ الطفل الذى ولدته ميتا منذ لحظات ، وضعه على الجبل • وبذا نربى نحن مولودا ابنة استياجيس ، ولا تتهم أنت بعدم الاخلاص للملك ، ولا نكون قد أســأنا التصرف فى صالح أنفسنا • سيحظى ابننا الميت بجنازة ملكية ، ولا يقتل هذا الطفل الحى • »

وجد الراعى أن هذه المشورة هى خير رأى يمكن العمل به فى مثـل هذه الظروف • وعلى ذلك عمل بها فى الحال • فأعطى زوجته الطفل الذى كان عليه أن يقتله ، وأخذ طفله الميت ووضعه فى المهد الذى حمل فيــه الآخر ، بعد أن ألبسه جميع الملابس الملكية الفاخرة ، ثم انصرف به فتركه فى أشد مواضع الجبال وحشية ، وبعد ثلاثة أيام ترك أحد مســاعديه لحراسة الجثة ؛ وانطلق الى المدينة ؛ فذهب مباشرة الى بيت هارباجوس وأعلن استعداده لاطلاعهم على جثة الطفل • فأرسل هارباجوس رجلا من حرسه الخاص ، كان يثق به أكثر من غيره ، ليرى الجثة بنفسه • ولمـا اقتنع برؤيتها ؛ أمر باقامة الجنازة • وهكذا دفن ابن الراعى • أما الطفل الآخر ، الذى عرف بعد ذلك باسم كوروس ، فأخذته زوجة الراعى ونشأته باسم آخر •

لما بلغ الصبى العاشرة من العمر حـدث أمر ، سأرويه الآن ، كان سببا فى اكتشاف حقيقـة شخصيته • « كان يلعب ذات يوم فى القرية حيث ترعى قطعان الماشية مع بعض غلمان من نفس سنه • فاختــار الصبيان ابن الراعى ، كما كانوا يسمونه ، ليكون ملكهم • فأخذ يصدر أوامره اليهم – بعضهم يبنى له البيوت ، وآخرون يعملون حرســا له • ويكون أحدهم جاسوسا للملك ، وآخر يقوم بتوصيل الرســائل ، وهكذا كان لكل غلام من أصدقائه عمل فى مملكته • وكان بينهم ابن ارتيمباريس أحد أعيان الميديين المبرزين • فرفض ذلك الولد أن يقوم بما خصصه له كوروس من عمل • فما كان من كوروس الا أن أمر بالقبض عليه • ولما نفذ أمره ، أخذ السوط فضربه به ضربا مبرحا وما أن أخلى سبيل ابن أرتيمباريس حتى أسرع الى المدينـة وهو فى أشـد حالات الغضب ممـا أصابه على يدى ابن الراعى من ضرب لا يليق بمنزلته • وشكا الى والده والدموع تنهمر غزيرة من مآقيه ، مالقيه من كوروس • وطبعا لم يقل ان اسمه كوروس اذ لم يكن قد سمى بهذا الاسم بعـد ، بل قال انه ابن راعى أبقار الملك • فانطلق أرتيمباريس والشرر يتطاير من عينيه ودخل

على استياجيس ، ومعه ولده ؛ فشكا اليه ما حل بابنه ؛ وأشار الى كتف الصبى وقال : «هكذا ، أيها الملك ؛ أهان كرامتنا أحد عبيدك ٠٠ ابن راع» ٠

عندما رأى الملك آثار الضرب ، وسمع هذه الالفاظ ، أراد أن يقتص لابن أرتيمباريس اكراما لخاطر والده ٠ فأرسل يستدعى الراعى وابنه . فلما مثلا بين يديه ، أحدق أستياجيس فى عينى كوروس ، وقال له : « كيف أتتك الجرأة ، وأنت ابن رجل حقير كهذا ، أن تفعل مافعلت بابن هذا النبيل ، الذى هو من أعظم أفراد حاشيتى ؟ » فأجاب الصبى قائلا : « مولاى ! لم أفعل به غير مايستحق : لقد انتخبنى صبيان القرية ملكا عليهم فى اللعب لانهم اعتقدوا أننى خير من يصلح لهذا المنصب . وكان هذا الغلام نفسه واحدا ممن انتخبونى . وقد فعل سائر الصبيان الآخرين ماأمرتهم بعمله الا هذا الصبى الذى رفض أمرى واستخف به ، حتى نال جزاءه الوفاق . فان كنت أستحق العقاب على هذا العمل ، فهأنذا على استعداد لتنزله بى » .

بينما كان الصبى يتكلم ، شك استياجيس فى شخصيته ٠ خيل اليه أنه يرى فى وجه الغلام ملامح تشبه ملامحه هو نفسه . كما أن هناك نبلا فى اجابته . وعلاوة على ذلك فان سنه تنطبق وسن حفيده الذى أمر بقتله ٠ واذ دهش استياجيس من كل هذا ، ظل صامتا لا يستطيع الكلام فترة من الوقت . ثم استعاد قدرته بصعوبة ، ورغب فى التخلص من ارتيمباريس كى يستطيع استجواب الراعى على انفراد ، فقال للاول: « أعدك ، ياأرتيمباريس ، بأن اسوى هذه المسألة بحيث لاتكون لك أو لابنك أى شكوى بعد ذلك . » فخرج أرتيمباريس من حضرته . ثم أشار الملك الى الخدم ، فأخذوا كوروس الى جناح داخلى . ولما بقى الملك والراعى وحدهما ، سأله من أين حصل على ذلك الصبى ، ومن الذى أعطاه اياه . فأجاب الراعى بأن الصبى ابنه ، أنجبه هو بنفسه ، وأن الام التى ولدته لاتزال على قيد الحياة ، وتعيش معه فى بيته . فلاحظ أسيتاجيس أن الرجل وقع فريسة مشورة سيئة فأوقع نفسه فى مثل هذا المأزق . فأصدر الملك أمره الى الحراس بالقبض عليه . وبينماكانوا يجرونه الى السجن ، بدأ القصة من أولها ، وقص على الملك القصة من بدايتها كما حصلت فعلا دون أن يخفى شيئا . وفى النهاية توسل الى الملك متضرعا أن يمنحه العفو .

لما عرف أستياجيس الحقيقة من الراعى ، لم يهتم بعقابه بعد ذلك ، ولكن غضبه كله انحصر فى هارباجوس . فأمر الحراس باستدعائه

الى حضرته ، فلما جاء سأله الملك : « بأية ميتـة ، ياهارباجوس ، فتلت طفل ابنتى الذى سلمته اليك ؟ » فلما أبصر هارباجوس راعى البقر فى الحجرة ، لم يعمد الى الكذب لئلا يظهر افتراؤه وخيانته ، فأجاب بقوله : « مولاى ! عندما وضعت الطفل بين يدى ، أخـذت أفـكر من فورى فى الطريقة التى أنفذ بها رغبتك ، فرأيت ألا أحمل فى رقبتى جرم تلويث يدى بالدم ، الذى كان فى الحقيقة دم ابنتك ، ودمك أنت نفسك ، وأكون فى الوقت ذاته مخلصا لشخصك . وهاك الطريقة التى عمدت اليهـا . استدعيت هذا الراعى وأعطيته الطفل ، وأخبرته بأن يقتله بأمر الملك . ولست كاذبا فى هذا لانك أمرت به وفضلا عن هذا ، فلما أعطيته الطفل ، أمرته بأن يتركه فى مكان موحش بالجبال ، ويراقبه من كثب حتى يموت وهددته بأقسى أنواع العقاب ان أهمل . وبعد أن نفذ كل ماأمرته به ، ومات الطفل ، أرسلت أحد خصيانى الذى أثق به أكثر من غيره ، فرأى الجثة نيابة عنى . وبعد ذلك دفنت الطفل . هذه يا مولاى ؛ هى الحقيقة الخالصة . وهذه هى الميتة التى مات بها ذلك الطفل » .

هكذا روى هارباجوس القصة كلها بطريقة بسيطة صادقة . وعند ذلك لم يظهر استياجيس أية أمارة تنم عن غضبه الشديد ، بل أخذ يكرر على مسامعه ماعرفه من الراعى ثم أردف قائلا : « وهـكذا بقى الطفل حيا . وهذا خير ماعمل ، اذ سبب لى قتل الطفل حزنا شديدا ، وحزت فى قلبى تعنيفات ابنتى حقا ، لقد لعب الحظ دورا خدمنا به فى هـذه المسألة ، انصرف الى بيتك الآن ، وأرسل ابنك ليكون بصحبة هذا الضيف العزيز . وانى لأعتزم تقديم الذبائح الى الآلهة الذين يستحقونها شكرا على سلامة الطفل . ويسرنى أن أدعوك الليلة الى الوليمة » .

عندما سمع هارباجوس قول الملك ، تنفس الصعـداء ورجع الى بيته مبتهجا اذ وجد أن عدم طاعته أمر الملك كان من حسن حظه ، وأنه بدلا من العقـاب مدعو الى مأدبة تقـديم الشـكر للآلهـة بمناسبة هـذا الحادث السعيد فما أن وصل الى بيته حتى نادى ابنه ، وكان شابا فى حوالى الثالثة عشرة من العمر ، وحيد والديه ، وأمره بأن يتوجه الى قصر أستياجيس ويقوم بكل مايطلبه منه . وفى غمرة سروره ، ذهب الى زوجته وأخبرها بكل ماحدث . فى تلك الاثناء ، أخذ أستياجيس الغلام ابن هارباجوس ، وذبحه ثم قطعه قطعا ، شوى بعضها على النار ، وسلق بعضا آخر منها . ولما انتهى من اعدادها جميعا ، حفظها لوقت الحاجة اليها . ولما أقبلت ساعة الوليمـة ، جلس المدعوون جميعا الى المـائدة

وقدمت اليهم صنوف اللحم . أما هارباجوس فجلس وحده الى مائدة خاصة ، لم يقدم له سوى لحم ابنه ليس غير · وضع أمامه جميع اللحم ماعدا اليدين والقدمين والرأس ، التى حفظت فى سلة ووضع فوقها غطاء . ولما أكل هارباجوس كفايته من اللحم ، استدعاه اليه أستياجيس ليعرف منه كيف التذ بالوليمة . فأجاب بأنه تمتع بوليمة فاخرة . وعندئذ أحضر المختصون السلة ووضعوها أمام هارباجوس وطلبوا منه أن يكشف غطاءها ، ويختار لنفسه ما يحب منها · فرفع الغطاء عن السلة فرأى بداخلها بقايا جثة ابنه · ومع ذلك ، فلم يفقده منظرها رشده أو يخرجه عن صوابه . ولما سأله الملك عما اذا كان يعرف أى حيوان هذا الذى أكل من لحمه . أجاب بأنه يعرفه حق المعرفة . وأن كل مايفعله الملك جميل مقبول . وبعد أن رد عليه هكذا ، حمل معه بقايا الجثة وبعض قطع اللحم المطهية التى لم يأكلها ، وعاد الى بيته ودفن تلك البقايا .

ذلك كان عقاب أستياجيس لهارباجوس . بعد ذلك ، شرع الملك يفكر فيما يعمله بحفيده كوروس . فأرسل الى الكهنة الذين سبق أن فسروا له حلمه ، وسألهم عما يهم خاطره ، وكيف فسروه له . فأجابوه اجابة لاتختلف قط عما سبق أن قالوه : « يجب أن يكون هذا الولد ملكا اذا كبر ولم يمت صغيرا . » فقال لهم أستياجيس : « ولكن الصبى أفلت من الموت ولا يزال حيا · لقد ربى فى الريف ، واقامه أطفال القرية الذين يلعب معهم ملكا عليهم · كان له حرسه الخاص ، وحجابه ، ومراسلوه ، وجميع الموظفين الآخرين اللازمين لخدمة الملك · فاخبرونى اذن ، ما معنى هذا الامر ؛ وماذا ينطوى عليه ؟ فأجاب الكهنة : « اذا كان الغلام قد عاش وحكم ملكا دون تدبير أحد ، فاننا نبشرك بالفرح · لا تخف منه بعد ذلك فلن يحكم مرة ثانية · فقد سبق أن رأينا تكهنات كثيرة تتم بطريقة غريبة ، وأحلاما أكثر منها تحققت بصورة عجيبة » · فلما سمع استياجيس ردهم ، قال : « هذا ما فكرت فيه أنا نفسى ، وأميل الى تصديقه · لقد صار الغلام ملكا ؛ وبذا تم تحقيق الحلم ، وليس هناك ما يدعو الى الخوف منه بعد ذلك · ومع هذا ، فأرجو أن تهتموا بذلك الامر غاية الاهتمام . ثم انصحونى بخير النصائح اللازمة لسلامة بيتى ومصالحكم ! انتم أنفسكم · فأجاب الكهنة قائلين : « حقا ، أيها الملك ، انه لمن صالحنا جدا أن تظل مملكتك ثابتة على أساس راسخ . اذ لو ذهبت الى هذا الصبى ، لوقعت فى أيد أجنبية ، لانه فارسى ؛ وعندئذ نفقد حريتنا نحن معشر الميديين ، ويحتقرنا الفرس ويعتبروننا أغرابا · ولكن ، طالما تبقى ، يامواطننا ، فوق العرش ، فاننا نحظى بكل ما يحفظ شرفنا ، ومع ذلك فلسنا محرومين

من نصيب فى حكومتك · اذن ؛ فهناك كثير من الاسباب تدعونا الى التنبؤ بعناية من أجلك ومن أجل مملكتك وان وجدنا أى داع للخوف فى الوقت الحاضر ، فكن على يقين من أننا لن نخفيه عنك · بيد أننا اقتنعنا حقا بأن الحلم قد تحقق بهذه الطريقة البريئة ، وبذا زالت جميع مخاوفنا واطمأنت نفوسنا ، ونطلب منك أن تترك مخاوفك أنت أيضا · أما بخصوص الولد نفسه فاننا ننصحك بارساله الى أبويه فى فارس » ·

سر أستياجيس عندما سمع تأويل الكهنة ، وأرسل يستدعى كوروس ليمثل بين يديه · فلما جاء قال له : « أى طفلى · دعانى حلم الى أن ألحق بك الأذى ، غير أن ذلك الحلم انتهى الى لا شىء · وقد أنقذك من هذا الاذى حظك الحسن ارحل الآن مطمئنا الى فارس · وسأرسل معك من يرافقك فى رحلتك وستحظى فى نهاية تلك الرحلة برؤية أبيك وأمك الحقيقيين ، وهما يختلفان تمام الاختلاف عن ميتراداتيس؛ راعى الابقار ؛ وزوجته » ·

صرف استياجيس حفيده بهذه الكلمات · وعندما وصل الغلام الى بيت قمبيز ، شاهد والديه اللذين عندما عرفا شخصيته ، عانقاه بحرارة بعد أن كانا يعتقدان أنه قتل بعد ولادته مباشرة · وعلى هذا سألاه كيف نجا من الموت · فأخبرهما بأنه لم يكن يعرف من أمره شيئا الى ما قبل ذلك بفترة وجيزة · وكان مخطئا كل الخطأ فى حقيقة نسبه ، ولم يعرفه الا فى أثناء الطريق وهو آت من ميديا · كان يعتقد انه ابن راعى أبقار الملك · غير أن رسول الملك الذى رافقه فى الرحلة قص عليه كل شىء · ثم تحدث عن زوجة الراعى التى ربته ، وأفاض فى الثناء عليها فكان يكرر دائما ، فى حديثه عن نفسه ؛ اسم كونو · كانت كونو كل شىء ـ فلما سمع أبواه الاسم من فمه ، أذاعا بين الفرس انه عندما ترك كوروس بين الجبال ، أرضعته خنزيرة · هذا هو منشأ تلك الاشاعة ·

عندما بلغ كوروس مبلغ الرجال ، واشتهر بأنه أشجع وأبرز شخصية بين مواطنيه بدأ هارباجوس ، الذى صمم فى دخيلة نفسه على الانتقام من استياجيس؛ يتودد اليه ويبدى اخلاصه له بالهدايا وبالرسائل اذ كانت منزلته متواضعة لا يأمل بواسطتها فى الانتقام بغير مساعدة أجنبية · فلما وجد أن كوروس ، الذى لحقه من الضرر ما يماثل ضرره ، قد كبر بهذه الصورة ؛ رأى فيه من ينتقم له · فأخذ يعمل على تأييده ومساعدته فى ذلك الأمر · ومهد الطريق فعلا لتنفيذ خطته بأن أوعز الى كثير من عظماء النبلاء الميديين ، الذين استاءوا من فظاظة ملكهم وحكمه

الاستبدادى أن خير ما يمكنهم عمله هو أن يقيموا كوروس ملكا عليهم ويخلعوا أستياجيس • فلما تمت هذه الاستعدادات ، وصار هارباجوس مستعدا للثورة ؛ تلهف الى ابلاغ نواياه الى كوروس الذى كان لا يزال مقيما بفارس • بيد أن الحراسة كانت شديدة على الطريق بين فارس وميديا • ولذا كان عليه أن يتدبر وسيلة لتوصيل كلمة الى كوروس سرا • فلجأ الى الوسيلة الاتية : آخذ أرنبا وشق بطنها دون أن يتلف فراءها • ثم وضع بداخل البطن خطابا بكل ما يريد أن يقوله له • وبعد ذلك خاط البطن بعناية وأعطى الارنب الى عبد من أخلص عبيده فتنكر العبد فى زى صياد يحمل شباك الصيد ، وذهب الى فارس يحمل ذلك الصيد هدية الى كوروس • وأمره بأن يخبر كوروس شفويا ، أن يفتح بطن الارنب بنفسه دون أن يكون معه أحد فى ذلك الوقت •

تم كل شيء كما أراد هارباجوس • عندما شق كوروس بطن الارنب، وجد بداخله الخطاب ، فقرأ فيه : « يا ابن قمبيز ! لا شك أن الآلهة ترعاك والا لما اجتزت كل هذه المغامرات العديدة العجيبة ــ هذا هو الوقت الذى تأخذ فيه بثأرك من استياجيس قاتلك • تذكر أنه كان يريد موتك • وانك لتدين بحياتك الآن لى وللآلهة ، ولا أظنك جاهلا مافعله بك ، ولا ماأصابنى على يديه بسبب أنى سلمتك لراعى الابقار ولم أقتلك • اصغ الى الآن وأطع مشورتى ، تصبح امبراطورية استياجيس كلها ملكا لك ادفع راية العصيان فى فارس، ثم سر مباشرة الى ميديا • فسواء اختارنى استياجيس لقيادة قواته ضدك ، أو اختار غيرى من أمراء ميديا ؛ فكل شيء سيتم حسبما ترغب • سيكونون أول من يتخلى عنه وينضمون الى جانبك ، وسيحاولون جهدهم تأليب قواته ضده • تأكد أن كل شيء ، من جانبنا، على أتم استعداد • وما عليك الا أن تقوم بدورك وتقوم به على وجه السرعة •

ما ان علم كوروس بمضمون الخطاب حتى شرع يفكر فى الكيفية التى يحث بها الفرس على الثورة • وبعد تفكير طويل ، عزم على الفكرة الآتية : كتب ما رآه لازما على قرطاس • ثم طلب عقد اجتماع للفرس • فلما اجتمعوا أفضى اليهم بمحتويات القرطاس ، وقرأ فيه ان استياجيس قد عينه قائدا عليهم • ثم قال : « والآن ؛ بما أن الامور صارت على هذا النحو ، فانى آمر كل فرد منكم أن يحضر منجله ويعود• » وبعد ذلك صرف الاجتماع •

أطاع الفرس أمر كوروس ، وعادوا اليه بمناجلهم • فقادهم الى بقعة من الارض مربعة الشكل طول ضلعها ثمانية عشر أو عشرون

فورلنجا ، مليئة بالشوك • وأمرهم بتطهيرها من الاشواك قبل أن ينصرم النهار • ولما أنجزوا ما أمرهم به ، أصدر اليهم أمرا ثانيا : أن يستحم كل واحد منهم فى صباح اليوم التالى ويأتى اليه • وفى أثناء ذلك ، جمع كل قطعان والده من الاغنام والماعز ، وكل ثيرانه ، وذبحها جميعا ، واستعد لتقديم وليمة للجيش الفارسى برمته • كما أعد لهم خمرا وخبزا من أجود الانواع • وعند مطلع الغد، جاء الفرس • فأمرهم بالجلوس على الحشائش والتمتع بالوليمة وبعد أن انتهوا من الطعام والشراب ، طلب منهم أن يخبروه : « أيهما ألذ لهم ، عمل اليوم أم عمل الامس ؟ » فأجابوا على الفور « ان التناقض لعظيم حقا : فلم يأت لهم عمل الأمس ، الا بكل قبيح شاق ، أما عمل اليوم فجاءهم بكل ما هو حسن لذيذ » • فما أن سمع كوروس منهم هذا حتى تمسك بأقوالهم وأفضى اليهم بما يهدف اليه ؛ قائلا : « هكذا ، يارجال فارس ستصير الامور معكم • ان اخترتم طاعة أمرى استمتعتم بهذه الخيرات وبعشرات الآلاف مثلها ولم تعرفوا للمشقات بعد ذلك طعما • أما اذا رفضتم العمل بمشورتى فاستعدوا من الآن لأعمال متعبة كثيرة ، شبيهة بعمل الامس • وعلى ذلك ، أطيعونى الآن وكونوا أحرارا • أما عن نفسى ؛ فانى أشعر بأن العناية الالهية قد اختارتنى لتحريركم • وأما أنتم ، فلا أعتقد أنكم أقل من المديين فى كل شىء ؛ ولا سيما فى الشجاعة • جاهروا بعصيانكم لاستياجيس دون أن تتأخروا فى ذلك لحظة واحدة » •

كان الفرس يئنون تحت نير الحكم الميدى • فلما وجدوا من يقودهم الآن ، سرهم أن يدفعوا عنهم ذلك النير •• فى أثناء ذلك، علم أستياجيس بأفعال كوروس • فأوفد اليه رسولا يطلب مثوله بين يديه • فأجاب كوروس : « قل لاستياجيس أننى سأحضر اليه بأسرع مما يحب » • وعندما تسلم استياجيس الرد ، قام فى الحال وسلح جميع رعاياه • وكأنما قد جردته الآلهة من كل ادراك ، فعين هارباجوس قائدا لجيشه ؛ ناسيا أنه سبق أن جرحه جرحا لا يلتئم• وعندما التقى الجيشان واشتبكا، قاتلت فئة قليلة من الميديين لم يكونوا على علم بالسر • وانضم آخرون علنا الى جموع الفرس • أما الجزء الاكبر الباقى ، فألم به الذعر والخوف، فأطلق العنان لقدميه •

لما علم أستياجيس بفرار جيشه المخزى ، وتشتيت شمله : أخذ يكيل التهديد والوعيد ضد كوروس ، قائلا : « لن يجد كوروس داعيا لفرحه بعد ذلك » • فقبض فى الحال على الكهنة الذين أشاروا عليه بالسماح لكوروس بالهرب ، وقتلهم • ثم سلح جميع الميديين الباقين فى

المدينة ؛ صغارا وكبارا ؛ وهاجم بهم الفرس في معركة هزم فيها هزيمة ساحقة ؛ اذ أبيد جيشه ووقع هو نفسه في أيدى العدو ٠

عندئذ اقترب منه هارباجوس وأخذ يعلن له شماتته،ويتهكم عليه؛ ويذكره بأعمال الظلم التي كان يأتيها ، ومنها ذلك العشاء الذى قدم له فيه لحم ابنه وسأله كيف يتمتع وقتئذ بالعبودية بعد أن كان ملكا ؟ فسأله استياجيس بدوره لماذا ينسب الى نفسه أعمال كوروس ؟ فأجاب هارباجوس يقول ، لان خطابى هو الذى جعله يتألب ضدك ٠ وهكذا يكون لى شرف هذا التدبير ٠ » فاتهمه استياجيس بأنه اذن أغبى وأظلم رجل ٠ أغبى ؛ لانه كان في مقدوره أن يلبس التاج على رأسه ان كانت هذه المؤامرة كلها من تدبيره ؛ بدلا من أن يضعه على رأس رجل آخر ٠ وأظلم ، لانه بسبب وليمة جلب العبودية على الميديين ٠ فلو فرض أنه اضطر الى تحويل السلطان الى شخص آخر ، لكان الاولى أن يكون هذا الشخص ميديا وليس فارسيا وعلاوة على ذلك ، فقد استعبد كل الميديين الذين لم يشتركوا في المقاومة بدلا من أن يصيروا سادة ، كما استعبد جميع الذين غدوا رعايا حتى ذلك الوقت » ٠

وهكذا فقد أستياجيس تاجه بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاما ، وأوقع الميديين تحت حكم الفرس نتيجة لقسوته فقد ظلت امبراطوريتهم في آسيا الى ما بعد نهر هاليس مدة مائة وثمان وعشرين سنة ، باستثناء الفترة التى حكمهم فيها السكوثيون٠ بعد ذلك ندم الميديون على خضوعهم للاجنبى ، فثاروا ضد داريوس ولكنه هزمهم في المعركة التى دارت رحاها ، وأخضعهم ٠ وعلى ذلك حدث في عهد استياجيس أن ثار الفرس على الميديين بزعامة كوروس ، وصاروا نتيجة لهذا حكام آسيا ٠ أما أستياجيس فقد أبقاه كوروس في بلاطه بقية حياته ، ولم يصبه بأى أذى بعد ذلك ٠

هذه هى ظروف مولد وتنشئة كوروس وتلك هى الخطوات التى أوصلته الى العرش ٠ وفى تاريخ متأخر هاجمه كرويسوس ، بيد أنه هزم كما سبق أن أوضحنا في باب متقدم ٠ وكانت هزيمته لكرويسوس سببا في جعله سيدا على آسيا كلها ٠

الفصل السابع

الفــــرس

كان الفرس يتبعون عادات وتقاليـد ، أعرف منهـا ما يلي : لم يكن لديهم أية صور أو تماثيل للآلهة ، ولا معابد ولا مذابح ؛ اذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الحماقة • وأظن هذا راجع الى عدم اعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من نفس طبيعة البشر، كما يتصور الاغريق• ومع ذلك، كان من عادتهم أن يصعدوا الى قمم أعـلى الجبال ، ويقدموا الذبائح لجوبيتر وهو الاسـم الذى يطلقونه على المجموعة الـكونية كلها • كمـا كان من عادتهم أيضا أن يقدموا الذبائح للشمس وللقمر وللأرض وللنار وللمـاء وللرياح • هـذه فقط هي الآلهة التي توارثوا عبادتهـا عن أسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة •

أما أعظم يوم يحتفلون به ، من بين أيام السنة كلها فهو يوم عيد ميلادهم فـكان من عادتهم أن يقيموا وليمة في ذلك اليوم ، تقدم فيهـا أطعمة أفخر من أطعمتهم العادية• فكان ذوو اليسار يشوون ثورا وحصانا وجملا وحمارا كاملة (١) ويقدمونهـا في ذلك اليوم على هذه الصورة • أما الطبقات الافقر فيقدمون أنواعا من الحيوانات أصغر من تلك • وكان من عادتهم أيضا أن يأكلوا قليلا من الاطعمة الجـافة وكثيرا من الحلويات والفاكهة ، يقدمونها على المائدة ، على عدة دفعات ؛ بضعة أطبـاق في كل دفعة • ولهذا كانوا يقولون : « عنـدما يأكل الاغارقة ؛ يتركون المائدة وهم جياع ، اذ لا يقدمون زيادة على اللحوم سوى القليل • أما اذا وجدوا أمامهم مزيدا من الاطعمة ، فانهم لا يكفون عن الاكل » • والفرس مولعون

---

(١) من العادات المتبعة في الدول الشرقية اليوم ان يشووا الخروف كاملا ، حتى على الموائد العادية • وتتبع هذه العادة في الاعيـاد في دلماشـيا وبعض دول أوروبيـة أخرى •

بالخمر ؛ يعبون منها كميات كبيرة (١) ويحرمون القيء واطاعة مطالب الطبيعة (كالتجشؤ والعطاس وما اليها) في حضور الغير . هذه عادتهم في تلك الامور .

كذلك من عادتهم أن يتناقشوا في الامور الهامة وهم سكارى . وعندما يفيقون في الصباح يوضع أمامهم القرار الذى اتخذوه ليلا بوساطة صاحب الدار التى اتخذ فيها . فان وافقوا عليه عملوا به والا تركوه . ومع ذلك فأحيانا تحدث المناقشة الاولى وهم في حالة اتزانهم ، ولكنهم في تلك الحالة لا بد أن يتخذوا القرار وهم تحت تأثير الخمر (٢) .

اذا قابل الفارسي فارسيا آخر ، أمكنك أن تعرف ما اذا كان الشخصان المتقابلان من درجة واحدة بالعلامات الآتية : اذا قبل كل منهما الآخر من شفتيه بدلا من التحية بالكلام . أما اذا كان أحدهما أقل درجة من الآخر فان القبلة تكون على الخد . واذا كان البون شاسعا بين الدرجتين، استلقى الأقل درجة على الارض(٣) وأعظم تقديرهم للأمم الاجنبية هو لأقرب جيرانهم . أما الامم التى تعيش بعد أولئك الجيران ، في الموقع ، فيكون تقديرهم لها في المرتبة الثانية وهكذا مع بقية الامم ، كلما بعد مكان الامة عنهم قل تقديرهم لها . والسبب في ذلك أنهم ينظرون الى أنفسهم على أنهم متفوقون على بقية البشر في كل شيء ، ويقترب الآخرون منهم في الميزات بنسبة قربهم من بلادهم . أما الامم النائية الموقع عنهم فأكثر البشر انغماسا في الرذيلة والانحطاط .

لاتبارى أمة الفرس في محاكاتهم للتقاليد الاجنبية(٤) فقد اقتبسوا زى ملابسهم عن الميديين ، اذ وجدوه أرقى من زيهم . ويلبسون في الحرب درع الصدر المصرية . وما أن يسمعوا عن صنف من صنوف

---

(١) من عادة الفرس المترفين اليوم أن يجلسوا الى المائدة قبل العشاء بعدة ساعات يشربون الخمر ويأكلون الفواكه المجففة كالجوز والبندق واللوز والفستق واللب وغيرها . والحقيقة أن الآكلين يجلسون الى المائدة في الساعة السابعة ، ولايقدم لهم العشاء الا في الساعة الحادية عشرة .

(٢) يؤكد تاكيتوس أنه كان من عادة الجرمانيين أن يتناقشوا في مواضيع السلم والحرب وهم تحت تأثير الخمر ، ويحتفظون بقرارهم الى الصباح .

(٣) لايزال الفرس مشهورين باتباع الرسميات وآداب المعاشرة .

(٤) يبدو من الباب الخامس أن زى الفرس الوطنى القديم كان سترة ضيقة وسروالا من الجلد أما الزى الميدى فكان ، تبعا لكسينوفون يخفى تقاطيع الجسم ويعطيه مظهر العظمة والاناقة ويبدو أنه كان جلبابا فضفاضا .

الترف حتى يحاكوه • وعلى هذا ، فمن العادات الجديدة عليهم أنهم تعلموا الانغماس فى الامور الجنسية من الأغريق فاقتنى كل منهم عددا من الزوجات ، وعددا أكبر من المحظيات •

أما الرجولة الكاملة فأولى خواصها البسالة فى استخدام الاسلحة ويليها فى المرتبة أن يكون الرجل كثير الابناء • وفى كل عام يقدم الملك هدايا ثمينة لمن يبرهن على أنه أب لأكبر عدد من الابناء ، اذ يعتبرون كثرة العدد قوة • ويعلم الابناء بعناية منذ عامهم الخامس حتى يبلغوا العشرين من العمر ، ثلاثة أمور ليس غير ؛ هى: ركوب الخيل ؛ واستخدام القوس ، وقول الصدق (١) • ولا يسمح للأبناء ، قبل الخامسة من العمر ، بأن يراهم أبوهم ، بل يقضون حياتهم اذ ذاك وسط السيدات ، وذلك حتى اذا مات الطفل صغيرا لم يحزن أبوه على موته •

فى اعتقادى أن هذه قاعدة تنطوى على كثير من الحكمة ، وكذلك القاعدة الآتية : لا يحكم الملك على أى فرد بالموت من أجل هفوة واحدة • ولا يعاقب الرجل الفارسى عبده عقابا شديدا على هفوة واحدة • بل تقارن حسناته وسيئاته فى كل حالة ، فان رجحت كفة السيئات على كفة الحسنات ، عوقب العبد •

يتمسك الفرس بأنه لم يحدث قط أن قتل أحد أباه أو أمه • ولكنهم على يقين من انه اذا حدث ذلك ، وحققت المسألة من أساسها ظهر أن الولد اما أن يكون مجنونا أو ابن زنا • اذ يقولون انه لا يمكن أن يهلك الاب الحقيقى بيدى ولده •

كذلك يحرمون الكلام فى الاشياء التى لايحل فعلها • ويليها فى مرتبة الرذيلة أن يكون المرء مديونا • فمن الاسباب الاخرى أن يضطر المدين الى الكذب • واذا أصيب رجل فارسى بالجزام ، فلا يسمح له بدخول أية مدينة أو بالتعامل مع أى فارسى آخر • لا بد أن يكون ذلك الشخص حسب قولهم قد أذنب فى حق الشمس • أما الاجانب المصابون بهذا المرض فيجبرون على مغادرة المملكة كلها • وحتى المصابون بالبرص يطردون كذلك ، للذنب نفسه ولا يلوثون قط نهرا بافرازات أجسامهم

---

(١) ناقش لارنر تقدير الفرس للصدق من قوة خطبة داريوس في الكتاب الثالث (الباب ٢٤) • ومع ذلك ، فلا يوجد في التاريخ ذكر لهذه الخطبة اطلاقا • ويتضح تقدير الفرس الخاص لقول الصدق ، وضوحا بينا من مخطوطات داريوس التى تذكر أن الكذب عنوان الشر •

ولا حتى يغسلون أيديهم فى نهر ، ولا يسمحون للغير بفعل ذلك ، لانهم يبجلون الانهار تبجيلا عظيما • وهناك شيء غريب آخر لم يلاحظه الفرس أنفسهم ، ولكنه لم يفتنى : تنتهى جميع اسمائهم الدالة على بعض الميرات الجسدية أو العقلية بنفس الحرف ـ الحرف الذى يسميه الدوريون « سان » San ويسميه الأيونيون سيما Sigma (حرف س فى اللغة العربية) • ومن يرغب فى التحقق من هذا ، يجد أن جميع الاسماء الفارسية بغير استثناء تنتهى بهذا الحرف •

هذا هو ماأستطيع ذكره عن الفرس ، وأنا على يقين منه تبعا لمعلوماتى الواقعية • وهناك عادة أخرى يتكلمون عنها بتحفظ ولا يذكرونها جهرا ، وتختص بموتاهم • يقولون : ان جثة الفارسى الذكر لاتدفن اطلاقا الا بعد أن يمزقها كلب أو طائر جارح • ولا شك فى أن هذه العادة معروفة لدى الماجى (الكهنة الميديون) اذ يمارسونها علنا دون ما اخفاء • وبعد ذلك تطلى أجسام الموتى بالشمع ثم تدفن فى الارض •

والماجى فئة غريبة الاطوار ، يختلفون تمام الاختلاف عن الكهنة المصريين • والحقيقة انهم يختلفون عن سائر الناس مهما كانت جنسيتهم • ويحرم الكهنة المصريون قتل أى حيوان حى ، الا مايقدمونه قربانا • أما الماجى ، فعلى نقيض ذلك ، يقتلون بأيديهم جميع انواع الحيوان ما خلا الكلاب والانسان • ويبدو أنهم يجدون لذة فى قتل الحيوان ، اذ يقتلونه بسرعة كما يقتلون الحيوانات الاخرى كالنمل والافاعى والطيور والزواحف ومع ذلك ، فبما أن هذه عادتهم ، فلنحتفظ بها • ثم أرجع الى قصتى السابقة •

الباب الثامن

****

ثورة سارديس

ما ان غزا الفرس ليديا حتى أرسل الأغارقة الايونيون والايوليون سفراءهم الى كوروس فى ساردیس يتوسلون اليه فى أن يكونوا تابعين له بنفس الشروط التى حصلوا عليها من كرويسوس ٠ فأصغى كوروس بانتباه الى مقترحاتهم ، ورد عليهم بأسطورة ، فقال : « يحكى أن زامرا كان يسير ذات يوم على شاطىء البحر ؛ فأبصر بعض الأسماك ٠ فطفق يعزف لها على زمارته ، ظنا منه أنها ستخرج اليه فوق الأرض ٠ ولما رأى أخيرا أن لاجدوى مما يؤمله ؛ أحضر شبكة وأحاط بها كمية كبيرة من السمك ، وسحبها الى الشاطىء ٠ عندئذ أخذت الاسماك تقفز وترقص ٠ ولكنه قال لها : « دعى عنك الرقص الآن ، اذ رفضت الرقص عندما عزفت لك على المزمار » ٠ رد كوروس هكذا على الأيونيين والايوليين ، لانه عندما بعث اليهم الرسل يحثهم على الثورة ضد كرويسوس ، رفضوا طلبه ٠ وما ان تم له الاستيلاء على ساردیس حتى جاءوا يعرضون عليه الطاعة ٠ اذن ؛ فقد رد عليهم بهذا الرد وهو غاضب ٠ فلما سمع الايونيون اجابته شرعوا فى الحال يحصنون مدنهم ٠ وعقدوا اجتماعات فى البانيونيوم ، كان يحضرها جميع الايونيين ماعدا الميليسيين الذين عقد معهم كوروس تحالفا منفصلا ، ومنحهم بموجبه نفس الشروط التى حصلوا عليها من كرويسوس ٠ فقرر الايونيون الآخرون أن يرسلوا السفراء الى أسبرطة يطلبون مساعدتها ٠

عندما وصل سفراء الأيونيين والايوليين ، الذين ذهبوا الى اسبرطة بأقصى سرعة ؛ الى تلك المدينة ؛ اختاروا من بينهم رجلا فينيقيا يدعى بوثيرموس لينوب عنهم فى الكلام ٠ ولكى يجذب اليه أكبر عدد من المستمعين ارتدى ثوبا من الأرجوان ، ثم وقف يتكلم ٠ فالقى خطابا طويلا

توسل فيه الى الاسبرطيين أن يهبوا لمساعدة مواطنيه • غير أنهم لم يكونوا على استعداد لقبول التوسل • فأعطوا أصواتهم ضد ارسال أية نجدة • وعلى هذا عاد السفراء أدراجهم بيد أن اللاكيدايمونيين ، بالرغم من رفضهم توسل أولئك الأقوام ، أرسلوا سفينة ذات خمسين مجدافا تحمل بعض الرجال الاسبرطيين ، الى ساحل آسيا • وكان غرضهم من ذلك ، على ماأظن هو مراقبة كوروس وايونيا • فلما بلغ هؤلاء الرجال فوكيا ؛ أرسلوا الى ساردیس أعظم رجل بينهم واسمه لاكرينيس ، ليحذر كوروس ؛ باسم اللاكيدايمونيين من التعرض لأية مدينة اغريقية لانهم لن يسمحوا له بهذا •

يقال ان كوروس ، عندما سمع كلام ذلك الرسول ؛ سأل بعض الاغارقة الذين كانوا واقفين قريبا منه : « من يكون أولئك الاكيدايمونيين وما عددهم حتى يرسلوا اليه مثل ذلك الاعلان ؟ » ولما سمع اجابتهم التفت الى الرسول الاسبرطي وقال له : « لم يحدث حتى الآن أن خفت أى رجال لديهم ميدان وسط مدينتهم حيث يجتمعون معا ، ويخدع كل منهم الآخر ويحنثون فى ايمانهم • اذا قدر لى أن أعيش ، فسيكون لدى الاسبرطيين مشاكل تشغلهم بالتحدث فيها بدلا من الاهتمام بأمور الايونيين » • قصد كوروس بهذا الكلام زجر جميع الاغريق لان لهم أسواقا للبيع والشراء ، فى حين لا يعرف هذه العادة الفرس الذين لا يشترون من أسواق مكشوفة • والحقيقة أنه لايوجد فى بلادهم ، ولا سوق واحدة •

بعد هذه المقابلة غادر كوروس ساردیس • بعد أن عهد بها الى تابالوس الفارسى ، وعين باكتياس الليدى ليجمع الاموال الخاصة بكرويسوس وغيره من الليديين ويضرها اليه • أما كوروس فقد توجه بنفسه الى أجباتانا ومعه كرويسوس غير عابىء بأن يكون الايونيون هدفه المباشر • كانت لديه خطط أعظم من هذه • كان يعتزم أن يحارب بنفسه بابل والباكتريانيين والسكوثيين ومصر • وعلى ذلك ، اعتزم أن يعهد الى أحد قواده بموضوع غزو أيونيا •

ما أن غادر كوروس ساردیس حتى حث باكتياس مواطنيه على الثورة علنا ضد كوروس وضد وكيله تابالوس • ولما كانت تحت تصرفه أموال ضخمة ، أبحر بها واستخدمها فى استئجار قوات من المرتزقة • وفى الوقت نفسه ، جعل سكان الشاطىء ينضمون الى جيشه • وبعد ذلك سار للاستيلاء على ساردیس ، حيث حاصر تابالوس الذى حبس نفسه فى قلعتها •

بينما كان كوروس فى طريقه الى أجباتانا ، بلغته هذه الأنباء ؛

فالتفت الى كرويسوس وقال : « ماذا تظن ، يا كرويسوس ، أن تسفر عنه هذه الأمور ؟ · يبدو أن هؤلاء الليديين لن يكفوا عن خلق المشاكل لأنفسهم ولغيرهم · انى لأفكر فيما اذا كان من الخير لى أن أبيعهم كلهم عبيدا · أظن أن مافعلته الآن هو فعل من « يقتل الأب ويبقى على حياة طفله » · لقد قبضت عليك ، أنت الذى كنت أكثر من أب لشعبك ، وحملتك معى ، وعهدت بالمدينة الى أهلها · ألا يدهشنى الآن أن أسمع بقيام الفتنة فيها؟ » هـــكذا صرح كوروس بنواياه الى كرويســوس ، الذى خشى أن يخرب كوروس·· سارديس ويهدمها » · فأجاب قائلا : « كلامك معقول ، ياMولاى ولكنى أرجوك ألا تترك الغضب يتملكك ، ولا تحكم بالدمار على مدينة قديمة لا ذنب لها فى المشاكل الماضية أو الحاضرة . كنت أنا نفسى سببا فى المشاكل الأولى وهأنذا أدفع ثمنها · وقام باكتياس بالمشاكل الأخرى ، وهو الذى عهدت اليه بساردیس مدة غيابك عنها.دعه يتحمل جزاء فعلته واعف عن بقية الليديين . ولكى تتأكد من عدم تمردهم عليك أو معاكستهم اياك مرة أخرى ، ارسل اليهم وحرم عليهم الاحتفاظ باسلحة القتال . مرهم بارتداء الجلابيب تحت العباءات ، ولبس أحذية فى أقدامهم ، واجعلهم يربون أولادهم ويعلمونهم العزف على القيثــارة والآلات الموسيقية الأخرى . والاشتغال بالتجارة . وعندئذ ...سرعان ما ترى أنهم صاروا نساء وليسوا رجالا ، ولن يتطرق الخوف الى نفسك منهم بعد ذلك .

اعتقد كرويسوس أن هذا أفضل لشعب ليديا من أن يباعوا عبيدا· وعلى ذلك أبدى لكوروس هذه النصيحة ، اذ عرف أنه ان لم يشر عليه بشيء رادع فلن يستطيع ان يثنيه عن عزمه · كما انه خشى ان يقوم الليديون بثورة فى المستقبل فيجلبوا الخراب على أنفسهم · فسر كوروس من هذه النصيحة ورضى بالتنازل عن غضبه وأن يعمل بما اشار به كرويسوس · فاستدعى اليه رجلا ميديا يسمى مازاريس ، وعهد اليه باصدار الأمر الى الليديين تبعا لنصيحة كرويسوس كما أمره بأن يبيع – كعبد – كل من انضم الى الليديين فى هجومهم على ساردیس . وبأن يجعل أول همه أن يرجع اليه باكتياس حيا عند عودته . وبعد ان أصدر كوروس هذه الاوامر ، استأنف رحلته الى الأراضى الفارسية .

الفصل التاسع

****

بــابـل

كانت أشـور تضم عددا كبيرا من المدن ، أهمهـا وأقواها فى ذلك الوقت « بابل » التى نقل اليهـا مقر الحكومة بعد سقوط مدينة نينوى ' وهاك وصفا لهذا البلد :

تقع هذه المدينة فى سهل فسيح ، وموقعها مربع الشكل تماما ، يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه مائة وعشرين فورلنجا • وبذا يكون طول محيطها كله أربعمائة وثمانين فورلنجا • وعلاوة على مساحتها العظيمة هذه فانها من ناحية الجمال لم تكن هناك مدينة أخرى تدانيها فيه . فأولا : كان يحيط بها خندق عريض عميق مملوء بالماء ، يرتفع وراءه سور من البناء عرضه خمسون ذراعا ملكية ، وارتفاعه مائتا ذراع «الذراع الملكية أطول من الذراع العادية بعرض ثلاث أصابع (١) » .

يجب ألا يغيب عن بالى ، أن أذكر هنا الغرض الذى استعملت فيه الأتربة التى خرجت من حفر ذلك الخندق العظيم ، ولا الطريقة التى بنى بها هذا السور • فانه ما ان أتم القوم حفر الخندق حتى صنعوا من التراب المستخرج منه لبنا (طوبا نيئا) ولما تم صنع كمية كافية من اللبنـات ، أحرقوها فى قمائن حتى صارت آجرا (طوبا أحمر) ثم شرعوا فى البناء ، مبتدئين ببناء حافات الخندق أولا • وبعدها مباشرة ، أخذوا يبنون السور نفسه ، متخذين ملاطهم كله من القار الساخن ، وواضعين طبقة من الغاب

---

(١) لو فرض أن القدم البابلية كانت تعادل القدم الانجليزية ، فان الذراع العادية تعادل قدما وثمانى بوصات . أما الذراع الملكية فتعادل قدما و ٤ر١٠ من البوصة وتقاس الذراع العادية بالمسافة ما بين الكوع ومنتصف الاصبع الوسطى .

(البوص) المضفور بين كل ثلاثين طبقة (مدماك) من الاجر(١) وأقاموا فوق سطح السور جميعه أبنية .. من حجرة واحدة .. تقابل كل منها الأخرى ، تاركين بينها مسافة تتسع لمرور عربة تجرها أربعة خيول . ويوجد فى محيط السور كله مائة باب جميعها من النحاس الأصفر ، ذات قوائم واطارات من النحاس أيضا . وأحضروا القار المستعمل فى ذلك العمل من نهر ايس ، وهو أحد الروافد التى تصب فى نهر الفرات عند المدينة المسماة بنفس اسمه، وتقع على مسيرة ثمانية أيام من بابل، اذ توجد فى هذا النهر كميات وافرة من كتل القار .

يجرى نهر وسط تلك المدينة ، فيقسمها الى قسمين . انه نهر الفرات . ويمتد سور المدينة الى كل من جانبى النهر . وعلى ذلك يصل ركن السور الى نهاية كل شاطىء فى صورة حاجز من الآجر . ومجرى نهر الفرات عميق سريع الجريان ، ينبع من أرمينيا ، ويصب فى بحر اروثريا ، أما البيوت فيتكون أغلبها من ثلاثة أو أربعة أدوار وشوارعها كلها مستقيمة . منها الموازى لمجرى النهر ، ومنها المستعرض الموصل الى شاطئيه . وتوجد فى نهاية هذه الشوارع عند الشاطىء أبواب منخفضة الارتفاع مفتوحة فى السور المحاذى للنهر ، تشبه الابواب العظيمة الموجودة فى السور الخارجى . وهى كذلك مصنوعة من النحاس الاصفر ، وتفتح الى المياه .

تتكون وسائل الدفاع الرئيسية لتلك المدينة من سورها الخارجى . بيد أن هناك سورا آخر، داخليا ، عرضه أقل من عرض السور الاول ، ويقل عنه قوة . ويحتل وسط كل قسم من قسمى المدينة حصن . فى أحدهما قصر ملوك بابل الذى يحيط به سور عظيم الضخامة والقوة . وفى الحصن الآخر . . المعبد المقدس لجوبيتر بيلوس ، وهو على شكل مربع طول ضلعه فورلنجان . وله أبواب سميكة مصمتة من النحاس الاصفر ، كانت موجودة أيضا فى عهدى . وكان بوسط المعبد برج مربع الشكل من البناء المتين ، طول كل من جوانبه فورلنج واحد ، أقيم فوقه برج ثان وفوق هذا ثالث ، وهكذا حتى ثمانية أبراج . ويصل الصاعد الى القمة من الخارج بواسطة طريق يدور حول الابراج . وفى منتصف هذا الطريق موضع للراحة به مقاعد لجلوس الصاعدين الى أعلى الابراج . وفوق أعلى برج ... معبد واسع ، به سرير خارق الحجم مزخرف بأنفس الزخارف .

---

(١) توجد طبقات من الغاب في بقايا أبنية الطوب الباقية الآن في بابلونيا ، ولكن المسافات بينها أقل من المذكورة هنا .

وبجانبه نضد من الذهب · وليس بالمعبد أى تمثال · ولا ينام فى المعبد ليلا غير سيدة وطنية واحدة ، تبعا لما يؤكده جماعة الخلديانيين ؛ وهم كهنة ذلك الرب(١) ·

تحت ذلك المعبد معبد آخر به تمثال جالس لجوبيتر ، مصنوع كله من الذهب الخالص · وأمام التمثال نضد من الذهب ، ضخم الحجم ، عليه العرش · وكذلك قاعدة التمثال من الذهب أيضا · وقد أخبرنى أولئك الكهنة أن مجموع وزن الذهب المستعمل ثمانمائة تالنت (التالنت يعادل ٥٧ رطلا انجليزيا) · وخارج المعبد عمودان ، أحدهما مصمت من الذهب لا يجوز أن تقدم فوقه أية ذبائح الا من الحيوانات الرضع أما العمود الآخر فمذبح عادي كبير، تقدم عليه ذبائح من الحيوانات الكاملة النمو. ويحرق الكهنة فوق ذلك المذبح العظيم كميات كبيرة من اللبان الذكر يقدر وزنها بحوالى ألف تالنت فى كل عام ، فى عيد ذلك الرب · كما كان يوجد بهذا المعبد فى عهد كوروس تمثال لرجل ارتفاعه اثنا عشر ذراعا ، كله مصمت من الذهب النضار · أما أنا نفسى ، فلم أر هذا التمثال ، ولكنى سمعت عنه من الكهنة · وقد تآمر داريوس بن هوستاسبيس على نقل ذلك التمثال · بيد أنه لم يجرؤ على أن يضع يديه فوقه · وقتل كسيروكسيس ابن داريوس. . .الكاهن الذى منعه من نقل هذا التمثال، وأخذه. وعلاوة على الزخارف التى ذكرتها ، يوجد عدد هائل من التقدمات الخاصة ، فى ذلك المعبد المقدس (٢) .

حكم مدينة بابل هذه عدة ملوك بذلوا جهودا ومساعدات فى بناء أسوارها وتزيين معابدها · وسأتكلم عنهم فى سردى لتاريخ أشور · وكان من بينهم سيدتان وتسمى أولاهما سميراميس ، تولت الحكم خمسة أجيال قبل أن تأتى بعدها الملكة التالية ومن أعمالها أنها أقامت بعض الجسور الجديرة بالذكر فى السهل المجاور لمدينة بابل ، للاشراف على النهر الذى كان ، حتى ذلك الوقت ، يفيض على جانبيه فيغرق جميع الاراضى المحيطة به ·

---

(١) يبدو ، اذن أن الخلديانيين فرع من جنس عقاد Akkad الهاميتى Hamite الذى كان يقطن بابلونيا منذ أقدم العصور · وهؤلاء القوم هم الذين اخترعوا فن الكتابة وبناء المدن وطرق العبادة وتنمية جميع العلوم وخصوصا علم الفلك · وهم الكلدانيون ·

(٢) لا شك في انه يمكن التعرف على معبد بابل العظيم ، الذى ترك الاغارقة كثيرا من الادلة على وجوده ، بالرابية الهائلة التى يسميها العرب عامة باسم «بابل».

أما الملكة الثانية فهى نيتوكريس ، وكانت أكثر حكمة من سـابقتها فلم تترك وراءها ، تخليدا لذكرى جلوسها على العرش ، ولكنها لما رأت قوة الميديين البالغة ومشروعاتهم العظيمة ، وأنهم استولوا على عدد كبير من المدن من بينها نينوى ، وتوقعت أن تهاجم بدورها ، بذلت كل مجهود مستطاع لتقوية وسائل دفاع امبراطوريتها • فبدأت بنهر الفرات الذى كان يخترق المدينة فى خط مستقيم • فحفرت بعض المجارى على مسافة من أعلى النهر ؛ وبذا صار يدور ويحف بالقرية نفسها ثلاث مرات • وهى قرية فى أشور كانت تسمى أرديريكا • والى يومنا هذا ، كل من يذهبون من بحرنا الى بابل ، عندما ينزلون الى ذلك النهر ، يمرون بنفس تلك البقعة ثلاث مرات ، فى ثلاثة أيام مختلفة • كما أقامت جسرا بطول كل من جانبى نهر الفرات ، وكانا عجيبين فى عرضهما وفى ارتفاعهما . وحفرت حوضا لبحيرة على مسافة بعيـــدة من بابل الى جوار هذا النهر • وكان الحوض عميقا فى كل نقطة يصل فيها الى المياه • وكان عرضه هائلا حتى ان محيطه ليبلغ اربعمائة وعشرين فورلنجا • واستخدمت الاتربة الناشئة من حفر هذا الحوض فى تعلية الجسور بطول مجرى الماء • وبعد أن أتمت حفره ، أحضرت الاحجار وأقامت بها حوائط تبطن محيط الحوض بأكمله • وهكذا أتمت هذين العملين ، وهما التفاف النهر وحفر البحيرة ، حتى يصبر التيار أبطأ بسبب عدد الانحناءات التى يدور فيها ، وتغدو الرحله طويلة دائرية ، حتى يضطر القائم بها الى المرور حول البحيرة فيقطع شوطا بعيدا • كل هذه الاعمال تمت على جانب مدينة بابل حيث تقع الممرات • وكانت الطرق المؤدية الى ميديا أكثر استقامة ، وغرض الملكة من هذا هو أن تمنع الميديين من الاتصال بالبابليين ، وبذا لا يكونون على علم بشئونها •

بينما استخدمت التربة المستخرجة من حفر البحيرة فى اقامة وسائل دفاع المدينة ، شغلت نيتوكريس نفسها فى عمل آخر ، هو فى الحقيقة تابع للعملين السابقين وأقل شأنا منهما . بقسم النهر المدينة ، كمـا أسلفنا ، الى قسمين منفصـلين . فكان فى عهـد الملوك السـابقين اذا أراد شخص أن ينتقل من أحد القسمين الى الآخر ، اضطر الى عبور النهر فى قارب . وهذه مسألة يبدو لى أنها كانت شاقة متعبة ، ما فى ذلك ريب • وعلى هذا ، بينما كانت نيتوكريس تحفر البحيرة ، أرادت الانتفاع بها فى التغلب على هذه الصعوبة ، فتخلف وراءها تذكارا آخر لجلوسها على عرش بابل . فأصدرت امرها بقطع كتل من الاحجـار بالغة الضخامة ، فلما قطعت وحفر الحوض ، حولت جميع مجـرى نهر الفرات الى مكان قطع الاحجار ، وبهذا بينما يمتلىء الحوض بالماء

يكون المجرى الطبيعى للنهر جافا تماما • فأنشأت تنفذ هذا العمل • فبدأت أولا بتبطين ضفتى النهر داخل المدينة بجسرين من الآجر ، وكذلك مواضـــع النزول أمام الابواب المطلة على النهر ، مســـتعملة طـــريقة البناء نفسها التى اســـتخدمت فى بناء سور المدينـــة . بعد ذلك بنت بالمـــواد التى أعدت ، قنطرة من الحجـــر ، قريبة من وسط المدينة قدر المستطاع . وربطت أحجارها بعضها الى بعض بالحديد والرصاص وفى أثناء النهار كانت توضع معابر من الخشب بين الشاطئين يمر فوقهـــا السكان عند عبور النهر من جانب الى آخر • بيد أن تلك المعابر كانت ترفع ليلا لئلا يمر الناس من أحد القسمين الى الآخر بغية السرقة • وبعد أن ملأت مياه النهر مكان قطع الاحجار ، وتم انشاء القنطرة ، حول النهر ثانية الى مجراه القديم • وهكذا تحول الحوض فجأة الى بحيرة تفى بالغرض الذى أنشئت من أجله ، وحظى سكان المدينة ، بمساعدة ذلك الحوض ، بقنطرة تريحهم فى عبور النهر •

كانت هـــذه الملكة نفســـها هى التى دبرت الخدعة الشهيرة . فقد شيدت مقبرة لها فى الجزء العلوى من أحد الابواب الرئيسية للمدينة ، فى مستوى يرتفع فوق رءوس المارين . ثم كتبت عليها هذه العبارة : « اذا احتاج أحد الملوك . . الذين سيخلفوننى على عرش بابل . . الى الاموال ، فليفتح قبرى ويأخذ منه ما يشاء ، ولايفعلن ذلك الا اذا كان محتاجا حقا الى الاموال ، والا فلن يفيـــد منه شيئا » • ظل ذلك القبر كمـــا هو لا يمسه أحد ، حتى جاء داريوس الى المملكة فرأى من الوحشية ألا يكون فى مكنته استخدام أحد أبواب المدينة ، وأن يبقى مبلغ من المـــال محبوسا دون الانتفاع به • وعلاوة على هذا ، شق على نفسه أن يمنع يده من الوصول الى ذلك الكنز • فامتنع عليه استخدام الباب ، لانه عندما يمر بعربته تكون الجثة الميتة فوق رأسه • وبناء على كل ذلك ، فتح القبر ، ولكنه بدلا من أن يرى الكنز ، وجد الجثة الميتة ليس غير ، وبجـــوارها كتابة تقول : « لو لم تكن جشعا ومولعا بجمع المال الحرام ، ولا يهمك من أى طريق تحصل عليه ، لما تجرأت على فتح ضريح الموتى » •

قامت حملة كوروس ضد ابن هذه الملكة ، الذى كان يسمى بنفس اسم أبيه لابينيتوس ، وكان هذا الابن ملـــكا على الاشوريين وكان من عادة الملك العظيم عندما يخرج الى الحرب أن تأتيه من وطنه مئونة تجهز بعناية هناك ، وتحملها دواب من ماشيته هو نفسه • كما كان يحمل معه الماء اللازم لشربه مأخوذا من نهر خواسبيس ، الذى كان يجرى فى سوسا

(أوشوشانة ، وكانت عاصمة منطقـــة سوسيانا ، وكان من عادة ملوك الفرس أن يقضوا فيها فصل الشتاء) ، لانه الماء الوحيد الذى كان يذوقه ملوك فارس • وأينما رحل الملك ، تتبعه عربات ذات أربع عجلات تجرها البغال تحمل ماء نهر الخواسبيس ؛ مغليا ومعدا للاستعمال ؛ ومعبا فى قوارير من الفضة ، تنقل معه من مكان الى آخر •

الفصل العاشر

****

سقوط بابل

مر كوروس فى طريقه الى بابل بشواطىء نهر الجونديس ، وهو نهر ينبع من الجبال الماتيينية ، ويجرى خلال مملكة الدردانيين ، ثم يصب فى نهر دجلة وبعد أن يأخذ دجلة الماء من الجونديس ، يجرى مارا بمدينة أوبيس ويصب ماءه بعد ذلك فى البحر الايروثرياني (الخليج الفارسى) وعندما بلغ كوروس ذلك النهر الذى لا يمكن اجتيازه الا بالسفن ، جفل أحد الخيول البيضاء المقدسة المرافقة لهفى حملته ، ونزل الى الماء ، وحاول عبور النهر بنفسه • بيد أن التيار جرفه معه وأغرقه ، فغاص الى الاعماق • فغضب كوروس من وقاحة ذلك النهر ، وهدد بكسر شوكته الى أن يستطيع كل فرد ، حتى النساء ، أن يعبره فى المستقبل بسهولة دون أن يبلل ركبتيه . وبناء عليه ، أرجأ هجومه على بابل مؤقتا . وقسم جيشه الى قسمين • ثم خطط بالحبال مواضع مائة وثمانين خندقا على كل من جانبى نهر الجونديس ، تتفرع منه الى جميع الجهات • وأمر جيشه بحفر هذه الخنادق ، على أن يعمل نصف الجيش على الضفة اليمنى والنصف الآخر على الضفة اليسرى • وهكذا نفذ وعيده بمساعدة ذلك العدد الهائل من الايدى • غير أنه قضى فى ذلك فصل الصيف كله •

بعد أن أخذ كوروس ثأره من نهر الجونديس بأن شتت ماءه فى ثلثمائة وستين قناة ، انتظر حتى أقبل الربيع التالى ، ثم استأنف سيره الى بابل • فأقام البابليون معسكرهم خارج أسوارهم وانتظروا قدومه ونشبت بين الفريقين معركة على مسافة قصيرة من المدينة ، هزم فيها البابليون على يدى الملك الفارسى • وعلى ذلك انسحبوا الى داخل أسوارهم حيث أقفلوا الابواب ، وحبسوا أنفسهم داخل المدينة مستهترين بالحصار ، اذ كانوا قد خزنوا فيها كميات كبيرة من المئونة تكفيهم عدة سنوات ،

استعدادا لذلك الهجوم المتوقع ، اذ عندما راوا أن كوروس يغزو أمة بعد أخرى ، صاروا على يقين من أنه لن يكف عن التقدم ، وسوف يأتى دورهم فى النهاية .

حار كوروس عندئذ فى أمره ، اذ مر الوقت ولم يستطع الهجوم على ذلك المكان . وربما كان فى هذا الضيق ، أو اقترح عليه أحد ؛ ماجعله يفكر فى خطة وبدأ ينفذها : وضع جزءا من جيشه عند مكان دخول النهر الى المدينة ، وجزءا آخر عند موضع خروجه منها . وأمرهم بأن يسيروا نحو المدينة عن طريق مجرى النهر بمجرد أن يصير المـــاء ضحلا بدرجة كافية . ثم سار هو نفسه بالجزء غير المحارب من جيشه الى الموضع الذى حفرت فيه نيتوكريس حوض النهر . وفعل نفس ما فعلته هى من قبل . فحول مياه نهر الفرات ، عن طريق قناة ، الى الحوض الذى كان مستنقعا وقت ذاك . فتدفق فيه النهر لدرجة أن مجراه الطبيعى أصبح ضحلا سهل العبور . وعندئذ تدفق الجيش الفارسى ـ الذى تركه كوروس أمام بابل ـ عند مدخل ومخرج النهر لهذا الغرض ، عبر المجرى الذى لم يبلغ عمق الماء فيه الى منتصف فخذ الرجل . وبهذا دخل الجيش الفارسى المدينة . ولو فكر البابليون فيما قصد اليه كوروس ، أو لاحظوا الخطر المحدق بهم ، لما سمحوا للفرس بدخول مدينتهم . بل كان بوسعهم أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم . اذ كان فى امكانهم أن يقفلوا جميـــع الابواب المطـــلة من الطرقات على النهر ، ويصعدوا الى أعلى السور بجانب النهر ، وبذا كان يمكنهم أن يقبضوا على العدو كمـــا لو كان داخل مصيدة . ولكن الذى حدث ، هو أن الفرس أخذوهم على غرة . وبهذا استولوا على المدينة . ونظرا لاتساع المدينة العظيم ، فان سكان الأجزاء الوسطى (كما قرر سكان بابل) ظلوا مدة طويلة ، بعد استيلاء العدو على الاجزاء الخارجية من المدينة ، لا يعلمون شيئا عما حدث ، لانهم كانوا مشغولين بالاحتفال بأحد أعيـــادهم . فاستمروا يرقصون ويحتســــون الخمر ، حتى علموا بسقوط مدينتهم بعد فوات الأوان . هذه هى ظروف فتح بابل لأول مرة (١) .

هاك أهم الادلة التى تبين قوة البابليين وثراءهم : علاوة على الجزية المحـددة التى يجبيها الفرس من الممـالك التى فتحوها ، فانهم قسموها جميعا الى أقسام . وفرضوا عليها أن تورد الطعام للملك العظيم ولجيشه

---

(١) يقصد هيرودوت أن يقارن بين هذا الغزو ، والغزو الثانى الذى قام به داريوس بن هوستاسبيس .

فى خلال فترات خاصة من السنة . كان على بابل أن تقـدم الطعام مدة أربعة أشهر من شهور السنة الاثنى عشر . أما بقية مناطق آسيا فتورده خلال الثمانية الشهور الباقية ومن هذا يبدو أن موارد أشور كانت تقدر بثلث موارد آسيا كلها . كانت هذه أفضل حكومة فارسية من حيث وجهة نظر البابليين . فعندما استولى عليها تريتانتاخميس بن أرتابازوس كانت تدر عليه كل يوم اردبا من الفضة . وكان يملك لنفسه خاصة ، علاوة على خيول الحرب ، ثمانمائة حصان للنتاج وستة عشر ألفا من الأفراس ، بواقع عشرين فرسا لكل حصان . . وفضلا على كل هذا ، كان يحتفظ بعدد كبير من كلاب الصيد الهندية لدرجة أنه أعفى أربع قرى كبيرة ، من أرض السهول ، من جميع الالتزامات ، على شرط أن تكفل لها الطعام .

الامطار بأشور قليلة لا تكاد تكفى لانبات الحبوب . وبعد ذلك يتغذى النبات وتتكون السنابل بواسطة الرى من النهر . لان النهر لايغمر الحقول بالماء من تلقاء نفسه كما يحدث فى مصر ، بل ينشر المـاء فوق المزروعات بالايدى أو بواسطة الآلات . وتخترق الترع جميع أراضى بابلونيا كما هو الحال فى مصر . وتخرج أكبر هذه الترع التى تتجه نحو « شمس الشتاء » والتى لا يمكن عبورها الا بالسفن من نهر الفرات وتصل الى مجرى آخر يعرف بدجلة ، وهو النهر الذى كانت تقع عليه مدينة نينوى . ولا نعرف قط أرضا أكثر انتاجا للحبوب من بابلونيا . والحقيقة أنها لا تدعى لنفسها انتاج التين أو الزيتون أو الكروم أو أية شجرة أخرى من تلك الانواع ولكن غلتها من الحبوب عظيمة بحيث تغل مائتى ضعف المحصول العادى . وعندما يكون المحصول فى أوجه تصل الغلة الى ثلاثمائة ضعف . ويبلغ عندئذ عرض عود القمح أو الشعير أربع أصابع . أما الذرة العويجة والسمسم فلن أقول الى أى ارتفاع تصل عيدانهما ، ولو أننى أعلم ذلك حق العلم ، اذ أعرف أن من لم يزر تلك البلاد لا يمكن أن يصدق ما كتبته عن غلة أراضى بابلونيا . ولا يستعمل البابليون زيتا غير المستخرج من بذور نبات السمسم . وينمو النخيل هناك بكثرة فى طول البلاد وعرضها ، وخصوصا النوع المثمر . وتمدهم ثماره بالخبز والخمر والعسل . وتشبه زراعته أشجار التين من جميع الوجوه ، ومن بينها : يربط الوطنيون ثمار النخيل الذكر — كما يسميه الاغارقة — فى جريد النخيل الذى يثمر البلح ، كى تدخل حبوب اللقاح الى البلح فتعمل على نضجه ومنع سقوطه . وتشبه ذكور النخل أشجار التين البرية فى أن حبوب اللقاح توجد عادة فى ثمارها .

سأروى الآن ما أدهشنى فى تلك البلاد أكثر من غيره ، بعد المدينة نفسها : فالسفن التى تسير فى النهر ذاهبة الى بابل مستديرة الشكل ومصنوعة من الجلد · فتصنع هياكلها المكونة من خشب الصفصاف فى بلاد أرمينيا الواقعة فوق أشور ، ثم تكسى الهياكل من الخارج بالجلد ، فلا تعرف لها حيزوما ولاكوثلا بل تكون السفينة مستديرة تماما كالترس· بعد ذلك تملأ الى حافتها بالقش وتوضع حمولتها فوق ظهرها ، ثم تترك لتسير مع التيار المنحدر الى أسفل · والحمولة الرئيسية لهذه السفن هى الخمر معبأة فى نواجيد مصنوعة من جريد النخل · ويقود السفينة رجلان يقفان فوقها وبيد كل منهما مذراة ، أحدهما يجر والآخر يدفع(١) وتختلف هذه السفن فى أحجامها · فمنها الكبير ومنهـا الصغير · وتصل حمولة السفينة الكبيرة الى خمسة آلاف تالنت · وتحمل كل سفينة على ظهرها حمارا حيا وتحمل السفن الكبيرة أكثر من حمار · اذ عندما تصل السفن الى مدينة بابل ، تفرغ شحنتها على البر وتعرض للبيع · وبعد أن تباع السلع ، يفكك الرجال السفن ويبيعون هياكلها وما فيها من القش · أما الجلود فيضعونها على ظهور الحمير ويعودون بها ثانية الى أرمينيا · لان التيار فى ذلك النهر بالغ القوة لا يسمح للسفن بالعودة صاعدة فيه · ولذلك تصنع السفن هناك من الجلد أفضل من الخشب · وما ان يعود الرجال الى أرمينيا حتى يصنعوا سفنا جديدة للرحلة التالية ·

يلبس البابليون جلبابا من التيل يصل الى أقدامهم ، وفوقه جلباب آخر من الصوف · وعلاوة على ذلك يضعون حـول أكتافهم عباءة قصيرة بيضاء · أما أحذيتهم فغريبة الشكل ، لا تشبه مايلبسه البيوتيون ، Boeotians ويتركون شعور رءوسهم تطول ، ويلبسون العمـائم ، ويدهنون جميع جسمهم بالعطور(٢)

---

(١) تشبه هذه السفن القوارب البيضية الشكل . وقد وجدت رسومها منحوتة في آثار مدينة نينوى ، ولاتزال تسير في نهر الفرات ·

(٢) يبدو الزى البابلى مرسوما على « الاسطوانات » في صورة جلباب مخيط يصل من الرقبة الى القدمين . وتبين بعض الرسوم الزى مكونا من قميصين أو جلبابين ، العلوى منهما أشبه بالسترة القصيرة ، مخيطا مثل الجلباب السفلى أو الجونلة . ونرى بجلاء شعر البابليين على الاسطوانات ، يرسلونه خلف ظهورهم ، اما في هيئـة خصلات طويلة ، أو يضفرونه في صورة جديلة تبـدو كالعصـا وراءهم . أما أغطيـة الرأس فمتعددة الاشكال والانواع ، وأكثرها شيوعا القلنسوة القصيرة أو العمامة التى يخرج منها قرنان مقوسان وقمة عالية أو « طرطور » يبدو بوضوح ·

ويحمل كل منهم ختما (١) ، وعصا منحوتة من أعلاها على هيئة تفاحة أو وردة أو نسر أو ما أشبه (٢) اذ من عادتهم ألا يمسكوا العصا بغير زخرفة فوقها .

للبابليين عادات كثيرة ، سأذكر واحدة ، أعتقد حسب تقديرى الشخصى ، أنها أعظم عاداتهم حكمة • تجتمع فتيات كل قرية ، اللواتى فى سن الزواج ، معا فى مكان واحد ، مرة فى كل عام • ويقف الرجال راغبو الزواج حولهن فى دائرة • ثم ينادى الدلال الفتيات واحدة واحدة ، ويعرضهن للبيع ، مبتدئا بأجمل فتاة • وبعد أن تباع بمبلغ غير قليل ، يعرض التى تليها فى مرتبة الجمال وهكذا تباع جميعهن ليصرن زوجات لأولئك الرجال • فيدخل أكثر البابليين ثراء فى مزاد للحصول على أجمل فتاة • فى حين يحصل الأكثر تواضعا ، ممن لا يهتمون بالجمال ، على الفتيات الأكثر خبرة بأعمال البيوت نظير بائنات • فمن عادتهم ، أن الدلال ، بعد أن يبيع جميع الفتيات الجميلات ، ينادى على أكثرهن دمامة فتاة كسيحة – لو تصادف وجود واحدة – ويعرضها على بقية الرجال طالبا منهم أن يتقدم من يرضى بها نظير الحصول على أقل بائنة زواج • فيأخذها من يعرض أقل مبلغ يقنع به • وتدفع هذه البائنات من المبالغ التى جمعت ثمنا للفتيات الجميلات • وهكذا يكون ثمن الجميلة بائنة لفتاة دميمة • ولا يسمح لاى رجل بأن يختار زوج ابنته . كما لا يستطيع أى زوج أن يأخذ الفتاة التى اشتراها دون أن يدفع تأمينا حقيقيا كى يتخذها زوجة له • فاذا لم يتفقا رد المبلغ ثانية • ويحضر هذا المزاد كل راغبى الزواج ، حتى من القرى البعيدة ، ويزايدون فى الحصول على زوجة لكل منهم • هذه خير عاداتهم ، غير أنهم اتبعوا طريقة أخرى تختلف عن هذه لدرء العنف عن فتياتهم ومنع انفصالهن عنهم والاغتراب فى بلاد بعيدة ، الأمر الذى يجعل من بناتهم مومسات • ويتبع هذه الطريقة الآن فقراء عامة الشعب ، الذين يعاملهم سادتهم ، منذ الغزو ، أسوأ معاملة بعد أن جلبوا الخراب على أسرهم .

وهاك العادة التى تلى العادة السابقة فى حكمتها : ليس لدى أولئك

---

(١) لاشك في أن الاسطوانات البابلية هى الاختام التى ذكرها هيرودوت • وقد وجدت رسوم كثيرة منها على الالواح الفخارية .

(٢) يوجد كثير من رسوم العصي على الاسطوانات البابلية ونرى فى الآثار البابلية المنحوتة أن حاجب المحكمة يمسك دائما عصا في يده ، يبدو أنه استعملها شعارا لوظيفته .

القوم أطباء · بيد أنه اذا مرض أحدهم ، أرقدوه فى الساحة العامة ؛ ويمر به الذاهب والغادى · فاذا تصادف أن أحدهم سبق أن مرض بمثل مرضه، أو كان يعرف شخصا آخرأصيببمثل هذا المرض، ذكر له الوصفة التى وجد فيها الشفاء فى حالته هو نفسه ، أو فى الحالة التى يعرفها · ولا يجوز أن يمر شخص بالمريض ولا يسأله عما يشكو منه ·

ومن عادة البابليين أن يدفنوا موتاهم فى العسل ، ويقيموا مأتما للبكاء كما يفعل المصريون .

وعندما يضاجع البابلى زوجته، بجلس أمام مدفأة يتصاعد منها دخان البخور ، وتجلس زوجته قبالته . وعند الفجر يغتسلان اذلايستطيعان أن يلمسا أى اناء عام قبل الطهر · ولا يزال العرب أيضا يزاولون هذه العادة ·

يتبع البابليون عادة مرذولة ومخجلة للغاية · يجب على كل امرأة ولدت فى تلك البلاد أن تذهب مرة واحدة فى حياتها ، فتجلس فى معبد فينوس حيث يضاجعها رجل غريب · وتذهب كثيرات من نساء الاثرياء ، — اللواتى يأنفن من الاختلاط بالاخريات — الى المعبد فىعربة مقفلة، يتبعها جمع كبير من الخدم ، ثم تتخذ مكانها هناك · أما العدد الاكبر من النساء فيجلسن داخل سور المعبد ويضعن الأكاليل على رءوسهن ويوجد هناك دائما جمع غفير من الناس ، بعضهم قادم وبعضهم عائد · وتحدد الممرات فى جميع الاتجاهات وسط النساء بالحبال · فيمر الأغراب بينهن ليختار كل منهم من تروقه · وما ان تأخذ المرأة مجلسها هناك ؛ لا تستطيع العودة الى منزلها قبل أن يرمى أحد الاغراب عملة فضية فى حجرها ، ويأخذها معه وراء الارض المقدسة ويقول الرجل وهو يرمى قطعة النقود : «فلتباركك الربة موليتا (يطلق البابليون اسم «موليتا» على فينوس) · ويجوز أن تكون العملة الفضية من أية فئة · ولا يمكن رفضها لان القانون يحرم ذلك ، اذ تصبح تلك العملة مقدسة وهكذا تذهب المرأة مع أول رجل يرمى القطعة الفضية فى حجرها ، وليس لها أن ترفض أى شخص · وبعد أن تذهب معه ، فترضى الربة ، تعود الى منزلها وبعد ذلك لا يمكنها أن تفرط فى عفافها نظير أية هدية مهما بلغت · وعادة ماتنتهى مهمة السيدات الجميلات الفارعات الطول ، بسرعة ، ثم يرجعن الى بيوتهن أما الاخريات الدميمات الخلقة فيطول بهن المقام هناك قبل انجاز تلك المهمة التى يتطلبها القانون· وقد انتظرت بعضهن ثلاث أو أربع سنوات فى المعبد · وتوجد مثل هذه العادة أيضا فى جزيرة قبرص ·

الفصل الحادى عشر

****

مصر

بعـد موت كوروس ، تـولى الحكم بعده ابنه قمبيز من زوجته كاساندرانى ابنة فارناسبيس ولما توفيت كاساندرانى فى حياة زوجها كوروس حزن عليها حزنا بالغا وأمر جميع رعاياه بالحداد عليها مثله · ولما كان قمبيز — ابن هذه السيدة من كوروس — يعتبر الاغارقةالايونيين والايوليين عبيد والده ، قادهم فى حملتـه على مصر(١) ، مع بقية الامم الاخرى الخاضعة لسلطانه ·

كان المصريون قبل حكم ملكهم بساميتيخوس يعتبرون أنفسهم أعرق البشر جميعا · ومنذ أن قام بساميتيخوس بمحـاولة عملية لمعرفة أقدم الأجناس حقا ، عرف المصريون أنهم ، رغم تفوقهم على جميع الامم ، ليسوا أقدمهم، بل الفروجيون أقدم منهم· فعندما رأى هذا الملك استحالةالبت فى من يكون أعرق الامم··· من سؤال الاقوام، فكر فى طريقة لذلك: أخذ طفلين من الطبقات العادية وعهد بتربيتهما الى أحد الرعاة التابعين له ، وأمره بأن يحملهما الى مراعيه ، مشددا عليه ألا يسمح لأى فرد بأن ينطق أمامهما بأية كلمة ، بل يضعهما فى كوخ منعزل. وأن يضع فى مسكنهما عنزة من وقت الى آخر ، ويراعى أنهما يحصلان على كفايتهما من اللبن · كما يراعى القيام بكل ما يلزمهما . كان غرضه من ذلك أن يعرف ، بعد أن ينتهى عهد تمتمة الطفلين ، أية كلمة سينطقان بها بوضوح. فحدث ، كما كان يتوقع ··· أطاع الراعى أوامره لمدة سنتين · وبعد انقضاء هذه المدة ، بينما كان يفتح باب حجرتهما ذات يوم ويدخل ، اذ جرى اليـه

---

(١) لايمكن تحديد تاريخ حملة قمبيز على مصر بصفة أكيدة ولكن عام ٥٢٥ ق.م هو التاريخ الاكثر احتمالا بين جميع التواريخ التى وصلتنا .

الطفلان باسطين أذرعهما وقالا بوضوح .. بيكوس .. ولما حدث هذا لأول مرة ، لم يهتم به الراعى . ولكنه لما وجدهما يكرران تلك الكلمة كلما ذهب اليهما للقيام بما يلزمهما ، أخبر سيده بها . فامره الملك باحضارهما اليه ، فسمع بساميتيخوس الكلمة بنفسه ، وعندئذ راح يستعلم عن أى الامم يستعمل كلمة « بيكوس » فعلم أنها كلمة فروجية بمعنى « خبز » . وعلى ذلك اعترف المصريون بأن الفروجيين أقدم منهم .

أما من ناحية الامور البشرية ، فان ما اتفق عليه الجميع هو : كان المصريون ، كما يقولون ، أول من اكتشف السنة الشمسية وقسموها الى اثنى عشر قسما . وقد حصلوا على هذه المعرفة بواسطة النجوم .

عندما يفيض النيل ، لا يغرق الدلتا فحسب ، بل وجميع الاراضى الواقعة على كل من جانبيه . وكان الناس يعتقدون أن فرعيه تابعان لليبيا ولبلاد العرب وكان يغرق الاراضى على جانبيه الى مسافة مسيرة يومين من شاطئيه . وفى بعض الاماكن .. الى مسافة أكثر من هذه ، فى حين أنه لا يفيض على أماكن أخرى .

لم أتمكن من الحصول على أية معلومات عن طبيعة ذلك النهر ، سواء من الكهنة أو من غيرهم . كنت متلهفا بنوع خاص الى أن أعرف منهم السبب فى أن النيل يبدأ بالارتفاع فى أول الصيف (١) ويستمر الفيضان فيه مائة يوم . ولماذا بعد مضى هذه المدة يعود الى الهبوط فى مجراه ، ويستمر فى الانخفاض طيلة الشتاء كله حتى يعود الانقلاب الصيفى مرة ثانية . لم أستطع الحصول على معلومات من الأهلين عن هذه المسائل (٢) برغم أننى كنت أسأل كل من ألتقى به فى طريقى لأعلم ما يعرفه الناس هناك عنها بالاجماع — فلم يستطع أى فرد منهم أن يخبرنى عن سبب تناقض النيل فى طبيعته ، ولا السبب فى اختلافه عن سائر الأنهار الاخرى

---

(١) دهش هيرودوت من أن ماء النيل يرتفع في الانقلاب الصيفى وينخفض في الشتاء . ففى نطاق ممفيس ، يبدأ الفيضان في حوالى العاشر من شهر يونية ، ويصل في شهر أغسطس الى الارتفاع الذى يقطع فيه الجسور ويغرق السهول . ويصل الفيضان الى أقصاه عادة في آخر سبتمبر . وبهذا تكون فترة الفيضان من ٩٢ يوما الى مائة يوم ، تبعا لما كتبه هيرودوت .

(٢) سبب الفيضان هو سقوط مياه الامطار على جبال الحبشة خلال موسم المطر هناك ويمتد مدى الامطار الاستوائية شمالا الى خط عرض ٤٣ — ١٧° .

فلا يخرج نسيما من سطحه (١) .

بيد أن بعض رجالات الاغريق الراغبين فى أن يذيع صيتهم فى جميع أنحاء العالم ويشتهروا بالبراعة ، وضعوا تفسيرات لهذه الظواهر ٠ فعللوا حدوثها بثلاث طرق ٠ اثنتان منها : لا أظنهما تستحقان حتى أن يتكلم المرء عنهما ، ولا أن يذكر ما هما : فيدعى أحدهم أن الرياح الموسمية (٢) هى السبب فى ذلك الارتفاع بأن تمنع ماء النيل من الجريان الى البحر ٠ فأولا : حدث كثير عند عدم هبوب الرياح الموسمية أن ارتفع ماء النيل كعادته ٠ وفضلا على هذا ، فان كانت الرياح الموسمية تحدث هذا الأثر ، فانه يجب فى حالة الانهار الاخرى التى تجرى فى عكس اتجاه تلك الرياح أن تحدث فيها هذه الظواهر نفسها التى تحدث للنيل ، بل وأكثر مما يحدث له ، لانها أصغر من النيل وتياراتها أضعف من تياره ٠ ولكن هذه الانهار ، ويوجد كثير منها فى كل من سورية وليبيا ، تختلف عن النيل تمام الاختلاف ، من هذه الوجهة ٠

أما الرأى الثانى ، فأقل من هذا — علميا — وأكثر غرابة ، اذ يعزو سبب الفيضان الى أن النيل يسير على طريقة غريبة اذ ينبع من المحيط ، وأن المحيط يجرى حول الكرة الارضية كلها .

وأما التفسير الثالث ، الذى هو أكثر تصديقا من التفسيرين السابقين ، فأبعدهما جميعا عن الحقيقة اذ لا أساس له ٠ وهو نظريا أكثر منه واقعيا ٠ يعزو فيضان النيل الى ذوبان الثلوج ٠ ولما كان النيل ينبع من ليبيا ، ويمر خلال اثيوبيا ، ثم الى مصر ، فكيف يمكن أن يقال انه يتكون من الثلوج الذائبة وهو يجرى من أكثر المناطق حرارة فى العالم الى مناطق أبرد منها ، هناك كثير من البراهين تقنع أى فرد قادر على التفكير ، بأن هذا لا يمكن أن يكون سبب الفيضان ٠ فأول برهان وأقوى البراهين جميعا يأتى من الرياح التى تهب ساخنة من تلك المناطق ٠ وثانيهما أنه لا يعرف قط تكون الامطار والصقيع فى هذه الجهات ٠ فعندما ينزل الثلج ، لا بد من سقوط الامطار فى خلال خمسة أيام ٠ وعلى هذا لو كانت هناك ثلوج فى تلك النواحى لوجب أن تنزل فيها الامطار أيضا ٠ وثالثها ، من المؤكد أن أهالى هذه المناطق ذوو بشرة سوداء بسبب الحرارة،

(١) اذا كان معنى هذا أن النيل لا يولد نسيما ، ولا يخرج من سطحه أى نسيم فهو حقيقى . ولكن هذا لايعنى عدم هبوب أى تيار هوائى على واديه .

(٢) تهب الرياح الشمالية الغربية سنويا من البحر المتوسط خلال فترةالفيضان ولكنها ليست السبب في ارتفاع ماء النيل ، ولو انها تساعد بدرجة بسيطة في مقاومة جريانه نحو الشمال . ولكنها بالغة الاهمية للملاحة في هذا النهر .

وأن السماء تظل هناك زرقاء ، كما يظل طائر الخطاف هناك طول العام ، وأن الكراكى عندما تهاجر هربا من زمهرير شتاء سكوثيا ، تذهب الى هذه المناطق لتقضى فيها فصل البرودة • فان حدث فى المناطق التى ينبع منها النيل أو التى يمر خلالها أن سقط الثلج ، فمن المستحيل أن تحدث أية حالات من هذه •

أما الكاتب الذى عزا الفيضـــان الى المحيط فانه يعيش فى ظـلام يستحيل معه البرهنة على خطئه بالجدل وأما أنا شخصيا فلا أعرف نهرا باسم المحيط ، وأظن أن هومير أو أحد الشعراء السابقين له قد ابتكر هذا الاسم وذكره فى أشعاره •

ربما حق للمرء بعد تعداد النظريات التى وضعت عن هذا الموضوع الغامض أن يقترح تعليلا من استنتاجه • وعلى هذا سأبدأ فى شرح ما أعتقد أنه السبب فى فيضان النيل صيفا • فخلال الشتاء تدفع الرياح الشمس عن مسارها المعتاد وتنتقل الى الاجزاء العليا من ليبيا • هذا هو السر كله فى عبارة موجزة • لان المناطق التى يقترب منها اله الشمس أكثر من غيرها ، ويمر فوقها مباشرة ، هى أقل المناطق ماء ، وتنكمش فيها مجارى المياه التى تغذى الانهار ، أكثر من انكماشها فى المناطق الاخرى •

لكى نشرح هذا الرأى بالتفصيل نقول : عندما تمر الشمس فوق الأجزاء العليا من ليبيا ، تؤثر فيها بالطريقة الآتية • لما كانت السماء صافية دائما فى تلك البلاد والجو حارا بسبب انعدام الرياح الباردة ، فعندما تمر الشمس فوقها تؤثر فيها بنفس تأثيرها على الاماكن التى تمر عليها صيفا عندما يكون مسارها فى وسط السماء — أى أنها تجذب المياه وبعد أن تجذب المياه تقذفها فى المنـــاطق العالية حيث تحملهـــا الرياح وتبعثرها وتحولها الى بخار • ومن هذا يحدث أنه من الطبيعى جدا أن تكون الرياح التى تهب من هذه الامكنة — وهى الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية تكون محمـــلة بالامطار أكثر من غيرها • ومن رأيى الشخصى أن الشمس لا تتخلص من جميع المياه التى تجذبها من النيل عاما بعد عام ، بل تحتفظ لديها بجزء منها ، وعندما يبدأ الشتاء يخف ، تعود الشمس ثانية الى مكانها الاول فى وسط السماء ، وتشرع فى جذب المـــاء بقوة متساوية فى جميع المناطق • ومن رأيى أن النيل عندما يخترق أرض ليبيا كلها ، يتساوى فى طوله مع الايستر وبهذا انتهى من هذا الموضوع •

الفصل الثانى عشر

****

العادات المصرية

سأتناول موضوع مصر فى شىء من التفصيل ، اذ لاتوجد مملكة تعادلها فى كثرة عجائبها ، ولا فى ذلك العدد الهائل من الاعمال التى تتحدى كل وصف ، لا تختلف مصر فى طقسها فحسب عن سائر بلاد الدنيا ، ولا فى أنهارها ، ولكن سكانها يختلفون كذلك عن بقية سكان العالم • ان معظم أخلاقهم وعاداتهم مناقض تماما لاخلاق وعادات غيرهم من البشر . فتؤم نساؤهم الاسواق ويتاجرن ، بينما يمكث الرجال فى البيوت أمام الانوال . وبينما يتبع بقية العالم فى النسيج أن تكون اللحمة فوق السداة ، فان المصريين يجعلونها أسفلها . كما أن النساء يحملن الاثقال فوق أكتافهن ، بينما يحملها الرجال على رءوسهم • ويتناول المصريون طعامهم فى الطرقات خارج بيوتهم ، ويأوون الى بيوتهم للاغراض الخاصة وحجتهم فى ذلك أن العمل غير اللائق ، والضرورى فى وقت واحد ، يجب أن يتم سرا . أما الامور الخالية من أى شىء غير لائق فيجب أن تحدث فى الطريق علنا ومحظور على المرأة الاشتغال بأعمال الكهنة سواء للآلهة أو للربات ، فى حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما . ولا يلتزم الابناء بكفالة والديهم الا باختيارهم أما البنات فملزمات بذلك سواء أكان هذا برضاهن أو على كره منهن .

يطيل كهنة الدول الاخرى شعورهم أما كهنة المصريين فيحلقون رءوسهم ومن العادة فى جميع بلاد العالم أن يحلق الناس شعورهم حدادا على الاقارب أما المصريون ، الذين من عادتهم أن يحلقوا شعورهم فى الحالات العادية ، فيتركون لحاهم وشعور رءوسهم تطول عندما يموت قريب لهم . ويعيش الناس فى البلاد الاخرى بمعزل عن الحيوانات ، ولكن المصريين يعيشون دائما مع حيوانات . وتتغذى الشعوب الاخرى بالشعير والقمح بينما يعتبر المصريون ذلك عارا أى عار ، ويتغذون

بالذرة الهندية التى يطاق عليها البعض اسم « زيا » ويعجنون الدقيق بأرجلهم ، أما الطين فيخلطونه بأيديهم ، كما يحملون القاذورات والتراب بأيديهم أيضا . وهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يعرف الختان ومن يعرفه من الشعوب الاخرى فقد تعلمه من المصريين . ويلبس رجالهم ثوبا من قطعتين أما ثوب النساء فمن قطعة واحدة (١) كما يلبسون الخواتم ويربطون حبال الاشرعة من داخلها ، أما غيرهم فيربطها خارج الشراع ولايكتبون كالاغريق من اليسار الى اليمين ، بل من اليمين الى اليسار ، ورغما من هذا يصرون على أنهم هم الذين يتجهون بكتابتهم نحو اليمين أما الاغارقة فهم الذين يتجهون نحو اليسار ويتخذون نوعين من الكتابة يطلقون على أحدهما اسم « المقدس » وعلى الثانى اسم « العادى » .

يتمسك المصريون بدينهم الى درجة بالغة أكثر من أى شعب آخر ، ويتبعون هذه المراسيم : يشربون فى أقداح نحاسية يغسلونها ويجلونها كل يوم ولايشذ عن هذه العادة أحد قط . ويلبسون ثيابا من التيل يحافظون دائما على أن تكون مغسولة حديثا . ويزاولون الختان بقصد النظافة مفضلين اياها على حسن المظهر . ويحلق الكهنة جميع جسمهم كل يومين حتى لا يعلق به القمل والاقذار الاخرى وهم يقومون بخدمة الآلهة . وثيابهم كلها من التيل ، وأحذيتهم من نبات البردى . ولايصح لهم أن يرتدوا ثيابا أو أحذية من مادة أخرى غير هاتين . ويستحمون مرتين يوميا بالماء البارد ومرتين فى كل ليلة . وعلاوة على هذه العادات ، لهم آلاف من العادات الاخرى .

---

(١) وبما تكونت لدينا فكرة خاطئة اذا علمنا أن ثوب الرجال في مصر يتكون من قطعتين بينما يتكون ثوب المرأة من قطعة واحدة . كان الثوب العادى للرجال عبارة عن جلباب طويل تحته جونلة قصيرة . فكانوا يخلعون الجلباب وقت العمل ويشتغلون بالجونلة . أما النساء فيلبسن الجلباب الطويل وحده . فاذا أريد لبس ثوب زيادة على ماتقدم صار ثوب الرجل من ثلاث قطع وثوب المرأة من قطعتين . وعلى هذا لايقتصر ثوب المرأة على قطعة واحدة بل يجعلونه من قطعتين أى أقل دائما بقطعة واحدة عن ثوب الرجل .

الفصل الثالث عشر

****

حيوانات مصر

عدد الحيوانات الاليفة فى مصر كبير جدا . وكان يجب أن يكون أكبر من هذا لولا مايصيب القطط . فعندما تلد القطة لاتسعى بعد ذلك وراء صحبة الذكر ، ولذا تلجأ ذكور القطط الى حيلة غريبة كى تصاحب الاناث مرة أخرى : تقبض الذكور على صغار القطط الحديثة الولادة وتنقلها الى مكان بعيد حيث تقتلها . فلما تجد الاناث أنها فقدت قطيطاتها ، وهى مولعة بحبها ، تتلهف الى الاستعاضة عنها بغيرها ؛ فتسعى من جديد الى صحبة الذكور وكلما شب حريق فى مصر يحدث أمر غريب كل الغرابة من القطط ، اذ يترك الاهالى النار تتأجج ماشاءت أن تتأجج ، بينما يقفون حولها على مسافات متفاوتة ويراقبون هذه الحيوانات التى تتسلل من بين الرجال أو تقفز من فوق رءوسهم ، وتندفع الى داخل اللهب مباشرة . وعندما يحدث هذا يتألم المصريون أشد الالم وأمضه . واذا ماتت قطة فى بيت ميتة طبيعية ، حلق جميع السكان فى ذلك البيت حواجبهم . وعندما يموت كلب ، يحلقون رءوسهم وجميع جسمهم .

عندما تموت القطط تؤخذ الى مدينة بوباستيس حيث تحنط ثم تدفن فى مدفن خاص مقدس . أما الكلاب فتدفن فى البلاد التى تموت فيها ، فى مدافن مقدسة أيضا . وكذلك يحدث نفس الشىء فى حالة النمس . وعلى عكس هذا عندما تموت الصقور وفيران الحقل تنقل الى مدينة بوتو Buto لتدفن هناك . أما طيور أبى قردان ، فتدفن فى مدينة هيرموبوليس وأما الدببة النادرة الوجود فى مصر ، والذئاب التى لاتكبر الثعالب كثيرا فى حجوم أجسامها ، فتدفن حيث تموت .

هاك بعض غرائب التمساح : لاتأكل التماسيح شيئا خلال أشهر

الشتاء الاربعة (وهى مدة البيات الشتوى) أنها حيوانات ذوات أربعة أقدام ، تعيش على البر وفى الماء على حد سواء . وتضع الانثى بيضها وتفقسه على الشاطىء وتقضى جل نهارها على اليابسة ، ولكنها تأوى الى النهر فى الليل لأن ماءه ادفأ من هواء الليل ومن الندى . والتمساح هو الوحيد بين جميع الحيوانات ، الذى يكبر بنسبة عظيمة ، من أصغر حجم الى أكبر حجم . فبيضة التمساح أكبر قليلا من بيضة الاوزة ويولد التمساح فى حجم البيضة تقريبا . وعندما يبلغ أقصى نموه يصير طوله سبع عشرة ذراعا (أى حوالى ٨٫٦٥ من الامتار) أو اكثر . وتشبه عيناه عينى الخنزير وأسنانه ضخمة فى شكل الانياب ، يتناسب حجمها مع حجم اطارها . ويختلف التمساح عن سائر الحيوانات الاخرى فى أنه عديم اللسان ، كما ينفرد أيضا فى كونه لايستطيع تحريك فكه الاسفل ، اذ هو الحيوان الوحيد فى العالم كله الذى يحرك فكه العلوى دون السفلى . وله مخالب قوية ، وجلده مغطى بحراشيف وحراشيف ظهره قوية لايمكن أن تنفذ فيها الأسنة أو تؤثر فيها النصال . ولايبصر التمساح فى الماء ، بيد أنه حاد البصر وهو على اليابسة . ولما كان يقضى معظم حياته فى الماء ، فان فمه مملوء دائما بالدود . ولهذا السبب ، بينما تتحاشاه جميع الطيور والحيوانات فان هناك طائرا واحدا ، هو العصفور الطنان trotichus يعيش معه فى صداقة وسلام ، اذ يدين التمساح لهذا الطائر بالشىء الكثير . فمن عادة التمساح عندما يخرج من الماء الى اليابسة ، أن يستلقى علىالارض ويفتح فاه فى مواجهة النسيم الغربى . عندئذ يدخل الطائر فمه وهو مطمئن ، ويلتقط الدود منه . هذا العمل يريح التمساح ويسره ، ولذا فهو لايصيب ذلك الطائر بأذى قط .

يقدس بعض المصريين التمساح بينما يعامله بعضهم الآخر معاملة الاعداء . فيقدسه من يعيشون بقرب مدينة طيبة وحول بحيرة مويريس (وهى بركة قارون الحالية) . ويحتفظ سكان كل من هذين المكانين بتمساح واحد معين ويدربونه ويستأنسونه . ويزينون أذنيه بأقراط من الذهب أو الاحجار الكريمة ، ويضعون الاساور حول قدميهالاماميتين ويقدمون اليه فى كل يوم مقدارا معينا من الخبز مع عدد من الحيوانات ليفترسها . وهكذا يبجلونه أعظم تبجيل وهو حى . وعندما يموت ، يحنطونه ويدفنونه فى مقبرة مقدسة . أما سكان فيلة فلايعتبرون هذه الحيوانات مقدسة ، حتى انهم يأكلون لحومها . واسم التمساح باللغة المصرية القديمة خمبساى champsae أماكلمة Crocodile فقد أطلقها

عليه الايونيون لعظم الشبه بينه وبين السحلية التى تعيش فى أيونيا داخل الجدران ويطلقون عليها هذا الاسم ٠

هناك طرق كثيرة مختلفة لصيد التمساح ٠ وسأوضح هنا الطريقة التى تبدو لى جديرة بالذكر : يضع صيادو التماسيح قطعة من لحم الخنزير فى شص ويعلقونه فى وسط الماء ، بينما يقف الصياد على الشاطىء ممسكا بخنزير حى ، ويضربه كى يصرخ ٠ فيسمع التمساح صراخ الخنزير ، فيندفع متجها نحو الصوت ، وعندئذ يلتقى بقطعة اللحم فيلتهمها فى الحال ٠ فيسحبه الرجال الواقفون على الشاطىء الى البر ٠ وما ان يصل الى اليابسة حتى يسرع الصياد فيأخذ قطعة من الطين ويطلى بها عينى التمساح ٠ وبذا يستطيع أن يفعل به ما يشاء ، والا سبب له متاعب جمة ٠

يعتبر فرس النهر (السيد قشطة) مقدسا فى جهة بابريميس ولكنه على خلاف ذلك فى بقية البلاد المصرية ٠ ويمكن وصف فرس النهر بأنه : حيوان من ذوات الاربع ، مشقوق الاظلاف ، تشبه حوافره حوافر الثور ، وأنفه عريض مفلطح وله معرفة وذيل يشبهان معرفة وذيل الحصان ، وأنيابه ضخمة ظاهرة ، وصوته يحكى صهيل الفرس ٠ وهو فى حجم أكبر ثور ٠ وجلده بالغ الصلابة حتى لتصنع منه الحراب بعد تجفيفه ٠

كذلك يوجدبالنيل كلب الماء (حيوان مائى يتغذى بالسمك) ، ويعتبر مقدسا ٠ كما يقدس المصريون نوعين من الاسماك ليس غير ، هما : ثعبان الماء ونوع آخر جسمه مغطى بقشور صلبة معينة الشكل يعرف باسم ليبيدوتوس ويقدسونهما للنيل ٠ وكذلك الحال بين الطيور ، فيقدسون نوعين منهما يشتهران بالمكر كالثعالب ، ويعرفان باسمى البانسر والأوزة الماكرة ٠

كذلك لديهم طائر مقدس آخر هو الفنيكس ولو اننى لم أره شخصيا وانما رأيت صورته والحقيقة انه طائر نادر الوجود جدا ، حتى فى مصر ، ولا يذهب اليها (تبعا لرواية سكان هليوبوليس) الا مرة فى كل خمسمائة سنة عندما يموت الفنيكس القديم ٠ واذا كان لهذا الطائر وجود ، ويشبه مافى الصورة ، فحجمه ومنظره هكذا : بعض ريشه احمر ، وبعضه ذهبى اللون ٠ وأما شكله وحجمه فكالنسر تماما ٠ (وربما كان هو العنقاء) ويحكون قصة غريبة عن ذلك الطائر ، لاتبدو لى معقولة أو مستساغة ٠ يقطع هذا الطائر المسافة كلها من بلاد العرب الى مصر طائرا حاملا أباه داخل قالب من المر المكى الى معبد الشمس حيث يدفنه ٠ ويفعل ذلك بأن يصنع أولا كرة من المر المكى ، فى أكبر حجم يمكنه حمله ثم يفتح فجوة

كبيرة فى تلك الكرة ، تتسع لوالده ، ويضعه داخلها ثم يسد الفجوة ثانية بالمر المكى أيضا • وعندئذ تكون الكرة بنفس وزنها الأصلى وهكذا يحضر والده الى مصر داخل قالب من المر المكى كما سبق أن ذكرت وبعد ذلك يودعه معبد الشمس • هذه هى القصة التى يحكونها عن ذلك الطائر •

كان المصريون يقدسون بعض الحيات فى جوار مدينة طيبة • وهى حيات عديمة الأذى تماما وصغيرة الحجم لكل حية منها قرنان فى قمة رأسها وعندما تموت هذه الأفاعى تدفن فى معبد جوبيتر ، وهو الاله الذى تكرس له هذه الحيات •

ذهبت ذات مرة الى مكان مافى بلاد العرب قبالة مدينة بوتوتاما، لاستعلم عن الحيات المجنحة • فلما وصلت الى هناك رأيت عظاما من السلاسل الفقرية والضلوع ، فى اعداد لاتحصى ، وكلها لثعابين • فأكوام الضلوع عديدة ، بعضها ضخم ، وبعضها صغير وبعض آخر متوسط الحجم • ويقع المكان الذى به تلك العظام عند مدخل واد صخرى ضيق وسط جبال شديدة الانحدار تطل على سهل فسيح يتصل بسهل مصر العظيم • وتقول القصة ان الحيات المجنحة(١) تأتى فى فصل الربيع طائرة من بلاد العرب متجهة شطر مصر • بيد انها تلتقى فى هذا الوادى بطائر يقال له «ابامنجل» يعترض طريقها وهى داخلة الى الوادى ويفتك بها جميعا • ويؤكد العرب ، كما يعترف المصريون بأنهم يقدسون «ابامنجل» من أجل هذه الخدمة العظيمة •

أبو منجل طائر أسود اللون ، ذو أرجل كأرجل الكركى ومنقار معقوف شديد التقوس ، وهو فى حجم الدجاجة الرومية تقريبا ، هذا وصف أبى منجل الأسود الذى يبيد الأفاعى • أما النوع العادى والاكثر شيوعا (لان هناك نوعين من هذا الطائر يختلف كل منهما عن الآخر) (٢) فعارى الرأس والرقبة كلها من الريش ، ولونه أبيض الا رأسه ورقبته فمن لون داكن ، وكذلك أطراف جناحيه وذنبه ، ويشبه النوع الأول فى منقاره وأرجله • (انه الطائر المعروف باسم أبى قردان) ويشبه الثعبان الطائر ثعبان الماء ، وأجنحته عديمة الريش ولكنها تشبه أجنحة الخفاش • وبهذا انتهى من موضوع الحيوانات المقدسة فى مصر •

(١) حيرت حياة هيرودوت المجنحة كثيرا من الناس منذ عصر باوسانياس الى الوقت الحاضر وقد ورد ذكر « الافاعى الطائرة النارية » بالتوراة ، فى سفر أشعيا (٣٠ – ٦) •

(٢) يقدس المصريون أبا منجل لابادته الحشرات الضارة • كما كانت البجعة تقدس فى تساليا لنفس السبب • ويقدس أبو منجل للاله تروث ، وهو هيرميس المصرى •

الفصل الرابع عشر

****

التقاليد المصرية

بعد أن تنتهى الوليمة فى الحفلات الاجتماعية لطبقة الاغنياء ، يمر خادم على الزائرين وهو يحمل نعشا به تمثال خشبى منحوت ومطلى بالالوان ليحكى جثة طبيعية لشخص ميت ، بقدر الامكان . يبلغ طول التمثال ذراعا أو ذراعين . ويقول الخادم وهو يقدمه لكل ضيف بدوره : «تأمل فى هذا التمثال ، واشرب وكن مرحا فعندما تموت ستكون على هذه الصورة » .

هناك عادة أخرى يحاكى المصريون فيها بعضا من الشعوب الاغريقية يعرفون باللاكيدايمونيين : عندما يرى الصغار الكبار فى الطريق يفسحون لهم الطريق وينتحون جانبا . واذا أقبل شخص كبير الى حيث يوجدالصغار نهض هؤلاء الصغار من مجلسهم واقفين . ويختلف المصريون عن جميع الشعوب الاغريقية فى نقطة ثالثة . فعندما يقابل أحدهما الآخر فى الطريق لا يتحدث كل منهما الى الآخر ، بل ينحنى ويخفض يديه الى ركبتيه .

يلبس المصريون جلبابا من التيل ذا أهداب حول الأرجل يقال له كالاسيريس ويرتدون فوقه ثوبا من الصوف الابيض . وتحرم عليهم ديانتهم أن يذهبوا الى المعبد مرتدين أى ثوب من الصوف أو يدفنوا به .

كذلك اكتشف المصريون لمن من الآلهة يقدس كل يوم وكل شهر ، وكانوا يعرفون منذ ولادة المرء(١) ماسيلاقيه طول حياته . كذلك اكتشف

---

(١) استعمل المصريون الابراج السماوية منذ القدم . وقد تكلم شيشرون عن المصريين وعن الكلديين فقال انهم يتنبئون بالمستقبل وبمصير المرء ، منذ ولادته بمراقبتهم للنجوم .

المصريون تنبؤات عديدة أكثر من بقية شعوب العالم ٠ فكلما صادفوا أمرا غريبا ، لاحظوه ودونوا ملاحظاتهم عنه والنتائج التى ينتهى اليهـا ٠ فاذا تكرر حدوث نفس الشيء توقعوا نفس تلك النتائج ٠

مارس المصريون الطب بطريقة استقل فيها كل فرع من فروعه عن بقية الفروع الاخرى فكل طبيب يعالج نوعا خاصا من الامراض ولا يعالج غيره فقط ٠ وبذا كانت البلاد زاخرة بالاطباء ٠ بعضهم اخصائى فى أمراض العيون ، وآخرون فى أمراض الرأس وبعض ثالث لايعالج سوى أمراض الاسنان ٠ ويختص غير هؤلاء فى اضطرابات الامعـاء ، وبعض آخر فى أمراض غير موضعية ، وهكذا ٠

سأبين لك ، أيها القارىء ،طريقة المصريين فى الحداد واقامة الجنائز: عندما يموت أحد الوجهاء ، تطلى نساء الأسرة رءوسهن بالطين ، وأحيانا يطلين وجوههن أيضا ٠ ويتركن الجثة خارج الدار ويطفن بطرقات المدينة ٠ وقد ربطن أثوابهن بأشرطة ، وتركن صدورهن عاريات ، يلطمنها بأيديهن وهن سائرات ٠ وينضم اليهن جميع النسوة قريباتهن فيفعلن مثلهن ٠ أما الرجال فيفعلون مثلهن ، ويلطمون صدورهم على انفراد وبعد الانتهاء من هذه التقاليد ، تنقل الجثة للتحنيط ٠

هناك فئة خاصة ، فى مصر ، تمارس فن التحنيط وتتخذه مهنـة خاصة بها وعندما يتسلمون جثة لتحنيطها ، يقدمون الى أهل الميت نماذج جثث من الخشب مطلية بالألوان المماثلة للألوان الطبيعية ٠ وأجود هـذه الطرق وأعظمها كمالا ، طريقة من لا يسمح لى احترام الدين بذكر اسـمه فيما يتعلق بهذا الامر ٠ أما الطريقة الثانية فتقل عن هـذه فى الجودة والنفقات ٠ واما الثالثة فارخصها جميعا ٠٠ يشرح اخصائيو التحنيط كل هذه الطرق لأهل الميت ، ثم يسألونهم عن الطريقة التى يرغبون فى أن تحنط بها الجثة ٠ وبعد الاستقرار على نوع التحنيط ، والانتهـاء من المساومة على الاجر ، ينصرف أهل الميت ليبدأ خبراء التحنيط عملهـم ، وأجود تحنيط يكون هكذا : يأخذ المحنطون خطافا من الحديد(١) يسحبون به المخ من الخياشيم وبذا يتخلصون من جزء منه ٠ أما بقيته فيزيلونهـا بنقع الجمجمة فى عقاقير خاصة ٠ بعد ذلك يشقون أحد جانبى الجثـة

---

(١) توجد آثار بالمومياء تدل على التخلص من المخ عن طريق الخياشيم ٠ أمـا العقاقير فكانت تستعمل لازالة الاجزاء التى لم يستطع الخطاف الوصول اليها ٠

بحجر (٢) اثيوبى حاد ، ويستخرجون عن طريقه جميع محتويات البطن الذى ينظفونه بعد ذلك بأن يغسلوه جيدا بكحول النخيل ، ثم يغسلوه بعد ذلك عدة مرات بمحاليل العطور بعد هذا يملئون تجويف البطن بأنقى أنواع المر المكى المجروش ، وخيار الشنبر ، وجميع انواع التوابل ما عدا اللبان الذكر ، ثم يخيطون الفتحة • وبعد كل هذا ، يضعون الجثة فى النطرون لمدة سبعين يوما بحيث يغطيها تماما • وبعد انقضاء هذه المدة ، التى لايجب أن تزيد على هذا القدر ، يغسل الجسم كله ، ويلف من الرأس الى القدم بمنسوج التيل الرفيع ، ويطلى بالصمغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء • ثم يسلم على تلك الحال لأقاربه ، فيضعونه فى صندوق خشبى صنعوه خصيصا لهذا الغرض على صورة انسان • ثم يقفلون الصندوق ويضعونه فى الضريح ، ويسندونه رأسيا الى الحائط • هذه هى أغلى الطرق لتحنيط الموتى •

أما اذا أراد اهل الميت الاقتصاد فى نفقات التحنيط ، واختاروا الطريقة الثانية فهاكها : تملأ عدة محاقن بزيت يستخرج من شجر الأرز ، ثم يحقن الزيت فى بطن الجثة • وتسد الفتحة التى يعود منها هذا الزيت ، وتوضع الجثة بعد ذلك فى النطرون مدة السبعين يوما المعلومة • وبعد انقضائها يترك الزيت ليخرج من الجثة • وهذا الزيت قوى المفعول لدرجة أنه يخرج معه كل المعدة والامعاء فى حالة سائلة كما أنه يكون قد أذاب اللحم فلا يبقى من الجثة غير الجلد والعظام • ويعاد الميت وهو على تلك الحال الى أقارب الميت دون عمل أى اجراء آخر •

وطريقة التحنيط الثالثة التى تستخدم فى حالة الطبقات الأكثر فقرا هى : تزال الأمعاء بمحقن ثم تترك الجثة فى النطرون مدة سبعين يوما ، ثم تسلم بعد ذلك مباشرة لمن يحضرون لتسلمها •

لا ترسل نساء الطبقات الراقية الى التحنيط بعد موتهن مباشرة ، ولا النساء الجميلات أو الجليلات القدر • لايؤخذ هؤلاء الى اخصائيى التحنيط الا بعد أن يمضى على موتهن ثلاثة أو أربعة أيام ، وذلك لعدم الحط من أقدارهن •

واذا قتل تمساح شخصا ، سواء أكان أجنبيا أو مصريا ، أو غرق

(٢) وجدت بالمقابر مومياء غير مشقوقة الجنب ولا مفرغة الاحشاء . بيد أن هذا الشق وجد في كثير منها ، وحتى في أنواع من التحنيط الأقل من هذا . وعلى ذلك لا يقتصر شق الجنب على التحنيط الممتاز . والحقيقة ان هناك درجات كثيرة لكل نوع من أنواع التحنيط .

شخص فى النهر فان القانون يحتم على سكان المدينة التى ألقيت الجثة بقربها أن يحنطوها ويدفنوها فى احد المقابر المقدسة مع القيام بكل مايمكن من مظاهر التبجيل(١) ولا يسمح لاحد قط ، حتى ولا الاقارب أو الاصدقاء أن يمسوا الجثة • وانما يقوم كهنة النيل دون سواهم ، باعداد الجثة بأيديهم للدفن – معتبرين اياها أكثر من جثة انسان – ويضعونها فى القبر بأيديهم أيضا •

لايجتمع السمك بأية اعداد فى الانهار ، بل يؤم البحيرات الساحلية ثم يهجرها وينزح الى البحر فى موسم التناسل ، قطعانا وجماعات • وتتقدم ذكورها الاناث وتفرز السائل المنوى فى الماء وهى سائرة بينما تتعقبها الاناث مباشرة وتلتهم ذلك السائل فى شراهة • وبهذا تحبل تلك الاناث • وبعد أن تقضى مدة فى البحر تتكون البطارخ فى بطونها • وعندئذ تعود الجماعة كلها الى موضعها القديم • وفى اثناء العودة ، تتقدم الاناث الذكور سابحة ككتلة واحدة وتفعل ما كان يفعله الذكور من قبل تماما • فتسقط حبوب البطارخ قليلا قليلا وهى سائرة ، بينما تسرع الذكور السابحة خلفها بالتقاط تلك الحبوب التى هى عبارة عن أسماك ، كل حبة سمكة • وفى تلك الاثناء تهرب بعض الحبوب دون أن تبتلعها الذكور فتكبر وتصير سمكا يافعا • واذا صيد بعض هذه الاسماك وهى سائرة فى طريقها الى البحر ، وجد الطرف الأيسر من رأس كل منها مشقوقا • اما اذا صيدت وهى عائدة فالشق يكون فى الجانب الأيمن • والسبب فى ذلك انها عندما تسبح ذاهبة الى البحر تلتزم الشاطىء الأيسر للنيل ، وعندما تعود تلتزم كذلك نفس ذلك الشاطىء لتتأكد من أنها لم تضل الطريق ، فتحتك به باستمرار فيحدث بها ذلك الجرح • وعندما يبدأ النيل يفيض تمتلىء الأخاديد والمستنقعات القريبة منه بالماء قبل أى مكان آخر، بواسطة تسرب الماء خلال الشاطئين • وعندما تصبح هذه بركا تزخر بالاسماك الصغيرة • فعندما انحسر ماء النيل فى العام السابق ، عادت الاسماك مع الماء المنحسر ، ولكنها برغم هذا تكون قد وضعت أجنتها فى الطين على الشاطىء • وهكذا عندما تعود المياه فى موسم الفيضان تخرج الاسماك الصغيرة من بيض العام السابق هذا كل مايتعلق بالاسماك •

يدهن المصريون المقيمون بأراضى المستنقعات أجسامهم بزيت

---

(١) القانون الذى يحتم على الاهلين تحنيط جثة من يوجد ميتا بقرب مدينتهم وأن يدفنوها باحتفال عظيم وبأبهى مظاهر البذخ هو قانون الشرطة وقانون السلطات الصحية •

يستخرجونه من ثمار نبات ينمو بريا فى بلاد الاغريق ويطلق المصريون عليه اسم «كيكى» فيزرعونه على شواطىء الانهار والبحيرات حيث يثمر بغزارة وتكون رائحة الثمار كريهة للغاية . فتجمع هذه الثمار وتسحق وتعصر أو تسوى فى الماء المغلى بعد تحميصها . ثم يجمع السائل المستخرج منها ويكون زيتى القوام وصالحا للاضاءة مثل زيت الزيتون تماما بيد أنه يختلف عنه فى رائحته غير المقبولة .

تزخر البلاد بالبعوض ، فيتخذ القوم حياله الطرق الآتية : فى بلاد مصر المرتفعة عن أراضى المستنقعات ، يقضى السكان ليلهم فوق الربىء اذ لا يستطيع البعوض أن يطير الى أى ارتفاع بسبب الرياح . أما الاراضى المنخفضة التى لاتوجد بها الروابى فيشترى كل فرد لنفسه شبكة يستخدمها له كلة (ناموسية) بالليل ، ويصيد بها السمك نهارا . فيغطى بها فراشه الذى يستريح فيه ليلا ، ويتسلل تحتها وينام هادئا . أما اذا التف بثيابه أو بملاءة من الموسلين ، دون استعمال الكلة فلا ريب فى أن البعوض يلدغه من خلال المنسوج ، ولكنه لايستطيع المرور من ثقوب الكلة .

ينقل المصريون بضائعهم فى سفن يصنعونها من خشب السنط . والسنط شجر كثير الشوك ، عندما يكبر يكون قريب الشبه من شجر اللوتس الكورينى ؛ ويفرز نوعا من الصمغ . فيقطعون من هذا الشجر ألواحا طول كل منها حوالى ذراعين، ثم يشرعون فى صنع السفن. فيرصون تلك الالواح كما يرص الطوب ويربطونها الى دعامات طويلة أو قضبان حتى يتم صنع هيكل السفينة . بعد ذلك يضعون الالواح المستعرضة فوقها ، ممتدة من جانب الى الجانب الآخر . ولا يتخذون ضلوعا لسفنهم ، بل يحشون الشقوق بأوراق البردى من الداخل . ولكل سفينة دفة واحدة تغرس فى قاع السفينة مباشرة . وتصنع سارية السفينة من خشب السنط أيضا والشراع من ورق البردى . ولا تستطيع هذه السفن أن تسير الى أعلى النهر ضد التيار الا بمساعدة الريح . وعلى ذلك فهى تسحب من الشاطىء وهى متجهة الى أعلى النهر . أما اذا سارت الى أسفله مع التيار فتكون قيادتها هكذا : لكل سفينة طوف مصنوع من أخشاب الأثل المربوطة معا بعيدان الغاب المضفورة . كما أن لكل سفينة حجر مثقوب من وسطه يبلغ وزنه حوالى تالنتين . ويربط الطوف الى السفينة بحبل ويترك ليسير مع التيار أمام السفينة ، التى يسميها القوم «باريس»، بينما يتدلى الحجر

من مؤخر السفينة بحبل مربوط به • فتكون النتيجة أن يسرع الطوف مع التيار ويجر السفينة ، فى حين أن الحجر المتدلى عميقا فى الماء يسحب مؤخرها الى أسفل فيعمل على الاحتفاظ بها أفقية • ويوجد بمصر عدد كبير من هذه السفن تبلغ حمولة بعضها عدة آلاف من التالنتات •

عندما يفيض النيل ، يغرق الاراضى ، ويحيلها الى بحر ، فلا يظهر منها شيء غير المدن التى تبدو كالجزر وسط بحر أيجه • وفى هذا الموسم لاتسير السفن فى المجرى الاصلى للنيل ، وانما تسير فى المياه التى تغمر السهل •

الفصـــل الخامس عشر

****

بعض ملوك مصر

تكلمت عن مصر فى الابواب الســابقة تبعا لمشــاهدتى • فذكرت مارأيته بعيني رأسي والآراء التى كونتها بنفسى ، ونتائج أبحاثى الشخصية • أما المعلومات الآتية فاستقيتها من المصريين أنفسهم • وبناء عليه أذكرها هنا كما هى ، وأضيف اليها بعض الملاحظات التى استرعت انتباهى •

قال لى الـكهنة ، ان أول ملوك مصر هو مينـــا ، وأنه هو الذى أقام الجسر الذى يقى مدينة ممفيس خطر فيضان النيل • فقد كان النيل قبل عهده يفيض على طول سلسلة من التلال الرملية التى تحد مصر من ناحية ليبيا • فصنع سدا وسط النيل عند المنحنى الذى يكونه النهر جنوبى ممفيس بحوالى مائة فورلنج وبذا جفف مجراه القديم . وفى نفس ذلك الوقت حفر له طريقا جديدا فى منتصف المسافة بين صفى التلال •

بعد هذا ، قرأ لى الكهنة من أوراق البردى أسماء ثلاثمائة وثلاثين ملكا خلفوه على العرش ، تبعا لأقوال أولئك الكهنة • وفى هذه الاجيال العديدة تولى الحكم ثمانية عشر ملكا اثيوبيا وملكة وطنية واحدة • أما بقية الملوك فكانوا رجالاومصريين• وكانت تلكالملكة تحمل نفساسم ملكةبابل، أى نيتوكريس . فيقولون انها خلفت أخاهاالذى كان ملكا علىمصر وقتله رعاياه ثم أقاموها على العرش مكانه • ولما كانت قــد صممت فى قرارة نفسها على أن تأخذ بثأر أخيها ، وضعت خطة بدهاء فأبادت عددا كبيرا من المصريين : شيدت قاعة واسعة تحت الارض وبحجة تدشينها اقامت وليمة عظمى دعت اليهــا أولئــك المصريين الذين كانت تعرف أنهم قاموا بالدور الرئيسى فى مقتل أخيها وبينما هم يولمون أطلقت عليهم ماء النهر فجأة بواسطة سد سرى بالغ الحجم • هذا هو كل ما أخبرنى به الكهنة عن تلك

الملكة ، باستثناء أنها عندما فعلت هذا ألقت بنفسها فى حجرة مليئة برماد النار هربا من الانتقام الذى تتعرض له .

أما الملوك الآخرون ، فبحسب أقوال الكهنة ، لم يكونوا من المشهورين أو الجديرين بالذكر .

بعد اغفال الكلام عن أولئك الملوك الخاملى الذكر ، أتحدث عن الملك الذى حكم بعدهم . كان اسمه سيزوستريس قال الكهنة ان أول شيء بدأ به هذا الملك هو أنه سار بأسطول من السفن الحربية ، من الخليج العربى بمحاذاة سواحل ايروثرايا (الخليج الفارسى) ، فأخضع الأمم التى مر بها حتى وصل أخيرا الى بحر غير صالح للملاحة بسبب كثرة الاماكن الضحلة به . ثم عاد من هناك الى مصر ، حيث جمع جيشا فى عداد الحصى ؛ بحسب أقوال الكهنة ؛ وتقدم به عن طريق البر الى وسط آسيا ، فأخضع جميع الامم التى كانت فى طريقه. وقد أقام أعمدة(١) فى البلادالتى قاومه أهلها وحاربوه بشجاعة مدافعين عن حريتهم ، ونقش على الاعمدة اسمه واسم دولته ، وأنه أخضع لحكمه أهل ذلك البلد بقوة السلاح . أما الامم التى استسلمت له مباشرة بدون قتال ، فنقش على الاعمدة التى تركها ببلادهم ، بالاضافة الى ما سبق ، شارة تدل على أنهم أمة من النساء ، أى أنهم غير مقاتلين ومخنثون .

اختفت أغلب الاعمدة التى اقامها سيزوستريس فى البلاد التى غزاها . أما التى أقامها فى سوريا فقد رأيتها قائمة فى المنطقة المعروفة بفلسطين ، وعليها النقوش التى ذكرتها وكذلك الشارة ، واضحة تمام الوضوح .

استطرد الكهنة يقولون ان سيزوستريس هذا عندما عاد الى وطنه يتبعه جمع غفير من الشعوب التى أخضع بلادها (٢) ، استقبله أخوه الذى كان

---

(١) توجد هذه الآثار الخاصة برمسيس الثانى في سوريا فوق الصخور القائمة على مصب نهر لوكوس (ويسمى الآن بنهر الكلب) .

(٢) كان من عادة ملوك مصر أن يحضروا أسراهم الى مصر ويستخدموهم في الاعمال العامة كما تدل على ذلك النقوش العديدة الموجودة على الآثار ، وكما يقول هيرودوت (في الباب الثامن بعد المائة) . وكذلك كانوا يستخدمون اليهود بنفس الطريقة . فبرغم أنهم حصلوا أولا على مراع لماشيتهم في أرض جوشن (التكوين ٦٦ ، ٣٤) أو البوكوليا حيث كانوا يرعون قطعان الملك (لتكوين ٦٧ ، ٦ ، ٢٧) فانهم أجبروا أخيرا على القيام بعدة أعمال كأسرى الحرب العاديين .

سيزوستريس قد أنابه عنه فى حكم مصر ابان غيابه ، وكان يقيم فى دفنى قرب بيلوسيوم ، ودعاه الى وليمة حضرها سيزوستريس وأبناؤه · غير ان أخاه أحاط المكان الذى به الوليمة بالاخشاب واشعل فيها النيران · فلما رأى سيزوستريس ما حدث ، استشار زوجته فى الحال ، وكانت برفقته فى الوليمة ، فأشارت عليه بأن يضع اثنين من أبنائه الستة فوق النيران ويتخذ منهما قنطرة يمر عليها بقية أفراد الأسرة · ففعل كما نصحته زوجته · وهكذا احترق اثنـان من أبنائه وماتا ولكنه نجـا هو وأبناؤه الباقون ·

بعد ذلك عاد الملك الى بلده وانتقم من أخيه · ثم شرع يستخدم الجموع الذين أحضرهم معه من البلاد التى غزاها ، فى نقـل كتل الصخر الضخمة التى نقلها ابان حكمه الى معبد فولكان — وفى حفر مختلف الترع التى تخترق جميع أراضى مصر · وبهذه الأعمال الاجبارية تغير وجه المملكة تغيرا كليا · فبينما كانت مصر ، قبل ذلك ، تصلح لسير كل من الخيول والعربات ، غدت غير صـالحة لسير أيهمـا (١) فعلى الرغم من أن رقعـة أرض مصر كانت كلها سهولا مستوية ، الا أنها أصبحت بهذا العمل غير صالحة لسـير الخيول ولا العربات · اذ صـارت تخترق أرضها الترع العديدة التى شقت فى جميع الاتجاهات وكان غرض ذلك الملك من هذا العمل توصيل المياه الى سكان المدن الكائنة فى وسط المملكة والتى لا تقع على النيل ، اذ كانوا يضطرون قبل ذلك ؛ بعد انحسار ميـاه الفيضان الى أن يشربوا ماء ملحا يحصلون عليه من الآبار (٢) ·

كذلك قسم سيزوستريس ، كما يقرر الكهنة ، أرض مصر الى قطع مربعة الشكل متساوية فى المساحة ، ووزعها على السكان ، مانحا كل فرد قطعة منها على أن يدفع له ايجـارا سـنويا واذا محا النهر جزءا من نصيب أى رجـل ، ذهب الى الملك وشكا اليـه بما حدث ؛ فيرسل الملك مندوبين ليقيسوا بالضبط مسـاحة الجزء الذى أزاله النهر ، وبناء على هذا التحديد يخفض الايجـار · فلا يطالب ذلك الرجل الا بايجـار قطعة

---

(١) كان من الممكن جدا أن يزيد عـدد الترع في عصر رمسيس الثانى · ويدل هذا ، كبقية رواية هيرودوت ، على أن رمسيس الثانى هو نفس سيزوستريس الذى يصف أعماله هنا .

(٢) يتسرب الماء خلال التربة الطينية الى الآبار الموجودة في باطن الارض حيث يصير عذبا ، ولو أنه في بعض الاحيان يكون عسرا (الماء العسر هو المحتوى على املاح لاتحدث رغوة مع الصابون).

الارض الباقية له . وأظن أن تلك العملية هى التى أوجدت علم الهندسة لأول مرة فى مصر ثم انتقل منها الى بلاد الاغريق . أما المزولة وتقسيم النهار الى اثنى عشر قسما فقد أخذهما الأغارقة عن أهل بابل .

لم يكن سيزوستريس ملك مصر فحسب ، بل وملك اثيوبيا أيضا . كان هو الملك المصرى الوحيد الذى حكم ذلك القطر الاخير . ومن الآثار التى تركها تخليدا لذكرى حكمه تلك التماثيل القائمة أمام معبد فولكان : اثنان منها يمثلانه هو وزوجته وارتفاع كل منهما ثلاثون ذراعا . أما الأربعة الباقية فتمثل أبناءه وارتفاع كل منها عشرون ذراعا هذه هى التماثيل التى رفض كاهن فولكان ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، أن يسمح لداريوس الفارسى بأن يقيم أمامها تمثالا لنفسه ، اذ كما قال ذلك الكاهن : « لم يعمل داريوس أعمالا كالتى عملها سيزوستريس المصرى . لان سيزوستريس أخضع جميع الشعوب التى أخضعها داريوس ، وزاد عليها السكوثيين الذين أخفق داريوس فى اخضاعهم . وعلى ذلك فليس من العدل أن يقيم لنفسه تمثالا أمام تمثال ذلك الملك الذى لم يستطع داريوس أن يتفوق عليه فى أعماله » . ويقولون ان داريوس عفا عنه من أجل ذلك الكلام .

قال الكهنة ، بعد موت سيزوستريس اعتلى العرش ابنه فرعون ولم يقم هذا الملك بأية حملات حربية ، اذ أصابه العمى بسبب هذه الظروف : فى احدى السنوات ارتفع ماء النيل ارتفاعا غير عادى حتى وصل الى ثمانى عشرة ذراعا ، وأغرق الحقول . وتصادف أن هبت الريح فجأة فارتفعت المياه فى موجات عظيمة . عندئذ استبدت بالملك نزوة الحاد ، فأمسك رمحه وقذفه وسط اللجج العاتية . وفى الحال اصابه مرض فى عينيه انتهى الى اصابته بالعمى بعد فترة وجيزة (١) ، فظل محروما من قوة الابصار عشر سنوات . وأخيرا ، فى السنة الحادية عشرة بلغته نبوءة من مدينة بوتو ، تقول :

---

(١) هذه احدى روايات العرافين الاغارقة . قد ينظم الشاعر الاغريقى قصة حسنة السبك عن اخيل أو عن نهر طروادة . أما كتبة النثر المصريون فلا يصورون ملوكهم يقومون بأعمال تناقض عاداتهم ومعتقداتهم الدينية . وكذلك قصة النساء هذه غير مصرية . اما ذكر العلاج الذى لايزال يستعمل في مصر للرمد ، فيدل على أن حقيقة بسيطة قد حولت الى قصة غير محتملة الحدوث .

« لقد انقضت مدة العقوبة ويجب أن يسترد فرعون بصره بأن يغسل عينيه بالبول • ينبغى أن يبحث عن سيدة مخلصة لزوجها ولم تفضل عليه قط أى رجل آخر » وعلى ذلك بدأ الملك بتجربة بول زوجته ، ولكنه لم يعد شيئا ــ ظل أعمى كما كان من قبل • فكرر التجربة ببول سيدات أخريات حتى نجح فى النهاية واستعاد قوة ابصاره • وبعد هذا جمع كل النساء اللواتى استعمل بولهن ، ما عدا الاخيرة ، وقادهن الى المدينة التى تسمى ايروثرابولوس (أى الارض الحمراء) حيث أحرقهن جميعا مع المدينة نفسها • أما السيدة التى يدين لها بشفائه فتزوجها • وبعد تمام شفائه قدم الهدايا لجميع المعابد • ومن أهم هذه الهدايا مسلتان قدمهما لمعبد الشمس • انهما من روائع الفن ، اذ نحتت كل منهما من قطعة واحدة من الصخر عرضها ثمانى أذرع وارتفاعها مائة ذراع •

الفصـل السـادس عشر

****

قصة رامبسينيتوس

لمـا توفى بروتيـوس خلفـه على العـرش رامبسينيتوس (١) Rhampsinitus تبعا لاقوال الكهنة وآثاره التى تركها بعده، هى : المدخل الغربى لمعبد فولـكان ، والتمثالان القـائمان أمام هـذا المدخل ، ويطلق المصريون على أحدهمـا « الصيف » وعلى الآخر « الشتاء » ، وارتفـاع كل منهما خمس وعشرون ذراعا • ويتجه تمثال الصيف الى الشمال أكثر من الآخر ويعبـده السكان الوطنيون ؛ وله كثير من الهدايا قدموها اليه • أما تمثال الشتاء القائم جهة الجنوب ، فيعامل على نقيض هذه المعاملة تماما •

يقال ان الملك رامبسينيتوس كان واسع الثراء يملك كنوزا عظيمة من الفضة والحقيقة أن كميتها كانت بالغة لدرجة أنه لم يتفوق عليه أو يساويه أحد فى ثرائه من جميع الملوك الذين خلفوه • ولكى يحرس أمواله جيـدا ، عزم على أن يبنى حجرة واسعة من الصخر المنحوت بحيث يكون أحد جوانبها واجهة قصره • ولما كانت للبناء أطماع فى تلك الكنوز صمم خطة وهو يقوم بالبناء ، فوضع حجرا فى القاعة يسهل نزعه من مكانه بواسطة رجلين ، أوحتى رجل واحد • وهكذا تم بناء الحجرة وأودعت فيها أموال الملك ••• مرت الايام وتعاقبت الاعوام ، ومرض البناء • فلما أحس بقرب منيته ، نادى ولديه وأخبرهما بأمر الحجر السرى فى خزانة الملك ، قائلا لهما انه انما فعل هذا من أجلهما كى يستطيعا الحياة دائما فى بذخ • وشرح لهما طريقة نزع الحجر ، مبينـا لهما جميع الابعـاد والمسافات • وأمرهما بكتمان السر كى يهيمنا على الخزانة الملكية طيلة

---

(١) من الجلى أن هذا الملك هو رمسيس وليس ذلك الاسم اسم ملك آخر من اسرة سابقة لاسرة رمسيس •

حياتهما • فلما مات الاب ، لم يتوان ابناه فى البدء بالعمل فذهبا الى القصر ليلا ، وعثرا على الحجر فى حائط البناء • فعالجاه حتى نزعاه بسهولة من الحائط ، وبعدها سلبا مبلغا عظيما من الخزانة •

عندما ذهب الملك ، بعد ذلك ، الى مخزن كنوزه ، دهش اذ رأى النقود هابطة فى أحد الاوعية التى ملأها بالفضة • لم يستطع أن يتهم شخصا بعينه • فقد كانت الاختام سليمة ، وأقفال الحجرة موضوعة فى مكانها لم تمتد اليها يد أحد بالعبث • وكلما ذهب الملك الى خزانته بعد ذلك وجد تكرار العبث بأمواله وسرقة كمية كبيرة من النقود فى كل مرة • والحقيقة أن اللصين لم يكفا عن السرقة ، بل كانا ينهبان الاموال باستمرار وأخيرا ، استقر رأى الملك على أن ينصب شركا بقرب الاوعية المحفوظة فيها الاموال فتم هذا • وعندما ذهب اللصان الى القاعة كعادتهما ، ودخل أحدهما من الفتحة السرية اتجه نحو أحد الاوعية ، فاذا به يجد نفسه فجأة قد وقع فى الفخ • فأدرك أنه هالك لا محالة • وعندئذ نادى أخاه من فوره وأخبره بما حدث ، وطلب منه أن يقطع رأسه بأسرع ما فى مكنته ، ويحمل الرأس معه ، حتى اذا ما اكتشف جسمه لم تعرف شخصيته والا ، هلك كلاهما • فعرف اللص الآخر حكمة هذه المشورة ، فاضطر الى تنفيذها ـ ثم وضع الحجر ثانية فى مكانه ، ورجع الى بيته يحمل معه رأس أخيه •

ما ان لمع الفجر فى أفق السماء حتى أسرع الملك الى خزانته ، فاذا به يدهش لوجود جسم فى الشرك بغير رأس ، بينما البناء سليم لم يمس ، ولم ير أية فتحة لدخول اللص أو خروجه فى أى موضع بالحجرة •••• وقف الملك حائرا مبهوتا ، وفى أثناء حيرته أمر بأن ترفع جثة الرجل الميت وتعلق خارج سور القصر ، وأقام عليها الحراس لمراقبتها وأمرهم بالقبض على كل من يبصرونه يبكى أو يولول قريبا من مكان الجثة ، وأن يحضروه اليه • فلما سمعت الأم بعرض جثة ابنها حزنت أبلغ الحزن ، وحز ذلك فى قلبها ؛ فتحدثت الى ابنها الآخر وأمرته بأن يجد طريقة ما لاحضار جثة ابنها • وهددته بأنه اذا لم يحضر لها جثة أخيه فانها ستذهب بنفسها الى الملك وتخبره بجلية الأمر •

حاول الابن جهد طاقته أن يثنى أمه عن عزمها ولكن دون جدوى • فما فتئت تلاحقه بطلبها حتى رضخ أخيرا الى رغبتها ، ودبر الطريقة الآتية لسرقة الجثة : ملأ بعض القرب بالخمر ، وحملها على ظهور الحمير ، وساقها أمامه حتى بلغ مكان الجنود المكلفين بحراسة الجثة • وبينما هو يتظاهر

بأنه يجذب اليه قربتين أو ثلاثا ، حل رباط بعض القرب ، وتركها تتأرجح على جوانب الحمير · فأخذت الخمر تسيل من القرب · وعندئذ شرع يضرب رأسه ويصرخ بأعلى صوته مدعيا أنه لا يعرف بأى الحمير يبدأ · فلما أبصر الحراس الخمر تنسكب على الأرض ، فرحوا وانتهزوا الفرصة ، وأسرعوا جميعا الى الطريق ومع كل واحد منهم اناء أو نحوه ليجمع فيه شيئا من الخمر وهى تسيل · فتظاهر السائق بالغضب وأخذ يكيل الشتائم للحراس الذين حاولوا تهدئته بجميع الطرق ، حتى تظاهر أخيرا بأنه قد لان واستعاد هدوءه ، وساق الحمير بعيدا عن الطريق ، وأنشأ يرتب حمولتها · فى تلك الاثناء ، بينما هو يتحدث الى الحراس ، بدأ أحدهم يمزح معه حتى جعله يضحك · وعندئذ قدم لهم قربة من الخمر على سبيل الهدية · فاستقر عزمهم وقتذاك على أن يجلسوا ويحتسوا الخمر ، ورجوا ذلك الحمار في أن يجلس ويشرب الخمر معهم · واخيرا رضى الرجل وبقى معهم · وبينما هم يحتسون الخمر توثقت عرى الصداقة بينهم ، فقدم لهم قربة أخرى · وعلى ذلك أخذوا يعبون الخمر عبا حتى دارت رءوسهم وغلبهم النعاس ، فناموا فى مواضعهم · فانتظر اللص حتى جن الليل وأخذ جثة أخيه ثم رغب فى أن يسخر منهم · فحلق النصف الايمن من لحية كل حارس ، وتركهم على تلك الحال، ووضع جثة أخيه على الحمير وانصرف عائدا الى أمه فى بيته · وهكذا أنجز ما طلبته والدته ·

لما بلغ مسامع الملك آن جثة اللص قد سرقت ، استشاط غضبا واستبد به الغيظ واذ أراد أن يقبض على الرجل الذى دبر تلك الخدعة ، مهما كلفه الامر عمد الى حيلة (كما قال الكهنة) لا أكاد أصدقها · فيقال انه ارسل ابنته الى مواخير الدعارة العامة وأمرها بأن تسمح بالدخول لكل من يأتى اليها على شرط أن يخبرها بأعظم أعماله دهاء ، وأكثرها شرورا طيلة حياته كلها · فان أخبرها أحد بقصة اللص ، وجب عليها أن تمسك به ولا تسمح له بالانصراف قط · ففعلت الابنة كما طلب منها أبوها فعلم اللص بالامر وعرف ما يرمى اليه الملك وأراد أن يبزه فى المكر والدهاء · ولذلك دبر الخطة الآتية : حصل على جثة رجل ميت حديثا ، وقطع احدى ذراعيه من الكتف وخبأها فى طيات ملابسه ، ثم ذهب الى ابنة الملك · فسألته ، كما كانت تسأل كل فرد غيره · فأخبرها بأن أعظم أعماله شرورا هو قطع رأس أخيه عندما وقع فى الشرك الذى نصبه له الملك فى خزانة أمواله · أما أعظمها دهاء فهو أنه أسكر الحراس وسرق الجثة منهم · فما ان صرح بهذا حتى امتدت اليه يد الفتاة لتمسك

به بيد أن ذلك اللص انتهز فرصة الظلام وقدم لها يد الجثة فظنتها يده فتشبثت بها بينما هرب اللص من الباب ٠

عندما علم الملك بالنجاح الجديد الذى أحرزه ذلك اللص ، دهش لدهاء وجرأة هذا الرجل ٠ فبعث رسلا الى جميع مدن مملكته ليعلنوا العفو الشامل عن اللص والوعد بمنحه مكافأة سخية اذا حضر من تلقاء نفسه وأعلن عن شخصيته ٠ فتمسك اللص بوعد الملك وذهب اليه فى كل جرأة ٠ فأعجب به رامبسينيتوس أيما اعجاب ، ونظر اليه نظرته الى أحكم شخصية فى مملكته كلها، وزوجه ابنته ، قائلا: «يتفوق المصريون على جميع العالم فى حكمتهم ، أما هذا الرجل فقد تفوق على سائر غيره من المصريين » ٠

هذه هى القصص التى يرويها المصريون لتكون تاريخا لهم ٠ أما من جهتى أنا شخصيا فأزمع أن أكتب باخلاص ، فى جميع مؤلفى ، تراث مختلف الامم ٠ ويصر المصريون على أن كيريس وباخوص موجودان فى المملكة السفلى ٠ كذلك كان المصريون أول من اعتقدوا بأن الروح خالدة ٠ وعندما يموت جسد الانسان ، تتقمص روحه صورة حيوان يولد فى نفس لحظة الموت ٠ وبهذا تمر الروح من حيوان الى آخر حتى تدور على جميع صور المخلوقات التى تسكن الأرض والماء والهواء ، ثم تعود ثانية الى هيكل بشرى حيث تولد من جديد ٠ وتستغرق فترة الهجرة والتنقل هذه (كما يقولون) مدة ثلاثة آلاف سنة ٠ وهناك بعض الكتاب الأغارقة ، بعضهم قدامى وبعضهم محدثون ، اقتبسوا هذا المذهب من المصريين ونسبوه لأنفسهم ٠ وبوسعى أن أذكر اسماءهم ، غير اننى اترفع عن هذا ٠

الفصـل السابع عشر

****

الأهــــرامات

قال الكهنة ، ظلت مصر تحكم حكما صالحا حتى عصر رامبسينيتوس، وازدهرت فى أيامه ازدهارا عظيما • ولكن ارتقى العرش بعده خوفو الذى انغمس فى كل صنوف الشرور • فأغلق المعابد ، وحرم على المصريين تقديم القرابين للآلهة ، وأجبرهم بدلا من هذا على أن يعملوا جميعا فى خدمته • فكان على بعضهم أن ينقلوا كتلا من الصخر الى شاطىء النيل من المحاجر الكائنة فى سلسلة التلال الغربية • وآخرون يتسلمون تلك الكتل بعد نقلها فى السفن عبر النهر ، وينقلونها الى سلسلة التلال الليبية • وكان يشتغل فى هذا العمل باستمرار مائة ألف رجل يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر • وقد استمر تسخير الشعب عشر سنوات فى عمل طريق مرتفع (١) لنقل الأحجار • وفى رأيى أن هذا العمل لا يقل مشقة عن بناء الهرم نفسه • طول هذا الطريق خمسة فورلنجات وعرضه عشرة فاثومات (الفورلنج ، كما علمنا = ١/٥ ميل والفاثوم = ٦ أقدام) ، ويبلغ أقصى ارتفـاع له ثمانية فاثومات وقد بنى من الصخر المنحوت المصقول ، وملىء سطحه بتماثيل الحيوانات ، واستغرق بناؤه كما سبق أن أوضحت ، عشر سـنوات ـ أو بالحرى لعمـل المصـطبة التى يقوم عليها الهرم والحجرات الواقعة تحت الارض ، التىأزمع خوفو أن تكون خزائن لاستعماله الخاص • وقد بنيت هذه الاخيرة على قطعة من الارض تشبه الجزيرة يحيط بها الماء المجلوب من النيل بواسطة قناة (٢) وقد اسـتغرق بناء الهرم

---

(١) لاتزال توجد بقايا طريقين مرتفعين ـ الطريق الشمالى وهو أكبرهما ، يتجه نحو الهرم الاكبر . اما الطريق الآخر فيتجه نحو الهرم الثالث •

(٢) لايوجد أثر يدل على أنه كانت هناك قناة ، ولا أى احتمال لوجودها وقتذاك •

نفسه عشرين سنة • وقاعدته مربعة الشكل طول كل من أضلاعها ثمانمائة قدم • أما ارتفاعه فيساوى طول قاعدته (١) وهو مبنى كله من الحجر المنحوت المسوى • وطوبقت الاحجار على بعضها بمنتهى الدقة • ولايقل طول أى حجر استخدم فى بناء ذلك الهرم عن ثلاثين قدما (٢) •

بنى الهرم أولا مدرجا (٣) أو فى صورة الابراج كما يسمونها ، أو كما يسميها آخرون « فى صورة المعابد » • فبعد أن وضعوا أحجار القاعدة ، رفعوا الاحجار الباقية الى أماكنها بواسطة آلات صنعت من ألواح خشبية قصيرة • فرفعتها الآلة الأولى من الأرض الى قمة المصطبة الأولى • ثم وضعت آلة أخرى على هذه المصطبة لتلتقى الأحجار عند وصولها ثم ترفعها بدورها الى المصطبة الثانية حيث تنقلها آلة ثالثة الى المصطبة التى فوقها • ولست أعرف بالضبط ما اذا كان لديهم عدد من الآلات بعدد المصاطب التى يتكون منها الهرم ، أو كانت لديهم آلة واحدة يمكن نقلها بسهولة من مصطبة الى أخرى عند رفع الاحجار • ولذا فانى أذكر هنا كلا من الروايتين • وقد اكملوا الجزء الاعلى من الهرم أولا ، ثم الجزء الاوسط ، ثم فى النهاية أكملوا الجزء الأسفل القريب من الارض • وقد نقشت على الهرم كتابة بالحروف المصرية تسجل كميات الفجل والبصل والثوم التى أكلها العمال الذين شيدوه • وانى لاتذكر جيدا أن المترجم الذى قرأ الكتابة لى ، قال ان الأموال التى أنفقت فى بناء الهرم بلغت ١٦٠٠ تالنت

---

(١) كانت أبعاد الهرم الاكبر ٧٥٦ قدما لكل ضلع من أضلاع القاعدة . ولكنها نقصت بعد ذلك الى ٧٣٢ قدما . وكان ارتفاعه الاصلى ٤٨٠ قدما وتسع بوصات فصارت الآن ٤٦٠ قدما وتسع بوصات . وزوايا ميل الاضلاع على القاعدة ٥٠-٥١ درجة، وزاوية رأسه ٢٠ - ٧٦° . وكان يشغل مساحة قدرها ٥٧١٥٣٦ قدما مربعة فصار الآن يشغل ٥٣٥٨٢٤ قدما مربعة . أما المقاسات التى ذكرها هيرودوت ، أى ٨٠٠ قدم لكل ضلع فليست بعيدة عن الحقيقة كرقم مقرب الى اقرب مائة . أما الارتفاع الذى ذكر انه مثل طول الضلع فبعيد تماما عن الرقم الصحيح .

(٢) تختلف أحجام الاحجار ويشير هيرودوت بهذا الى أحجار الطبقة الخارجية التى اندثرت الآن .

(٣) أوجه الدرجات أو المصاطب المتعاقبة عمودية تقريبا . أو ذات زاوية تقرب من ٧٥° والمسافة المثلثة التى تكونها كل منها تبرز الى مسافة كبيرة أسفل المصطبة التى فوقها مباشرة . وقد ملئت هذه المسافة بعد تمام البناء لتكمل الشكل العام للهرم . أنها لمسألة غريبة ان كان المصريون قد أحضروا معهم فكرة الهرم أو أكوام القبور عندما هاجروا الى وادى النيل ، أو اذا كانت قد نشأت بنفس الفكرة التى تشد بها أبراج آشور من عدة مصاطب ، أو بنفس فكرة بناء معابد الهند .

من الفضة فاذا كانت هذه الارقام صحيحة ، فما أعظم المبالغ التى لابد أن تكون قد أنفقت فى تغذية وكسوة العمال ، مع اعتبار المدة الطويلة التى استغرقها هذا العمل والتى سبق أن ذكرتها ، والوقت الاضافى - وليس هو بالمدة البسيطة على ما أعتقد - الذى أنفق فى قطع الاحجار من المحاجر ، وفى نقلها ، وفى بناء الحجرات التى شيدت تحت الأرض •

بلغت شرور خوفو مبلغا عظيما لدرجة أنه عندما أنفق كل ما فى خزائنه من أموال واحتاج الى المزيد ، أرسل ابنته الى مواخير البغاء العامة لكى تحصل له على مبلغ معين - أما مقدار ذلك المبلغ فلا أعرفه اذ لم يخبرنى به أحد • فجاءت له ابنته بهذا المبلغ ، ولكنها صممت فى الوقت نفسه على أن تترك أثرا يخلد ذكراها • ففرضت على كل رجل أن يقدم لها حجرا هدية ، حتى تتم العمل الذى أزمعت القيام به ، وبنت بهذه الاحجار هرما هو الموجود بين الهرمين الآخرين أمام الهـرم الاكبر ، يبلغ طـول كل من أضلاعه مائة وخمسين قدما •

يقول المصريون ان خوفو حكم مدة خمسين سنة ثم خلفه على العرش أخوه خفرع •

سار خفرع على نفس خلق سلفه ،وبنى هرما مثله ولو أنه لم يصل الى ضخامة هرم أخيه • واننى لعلى يقين من هذا لأننى قست ابعادهما بنفسى (١) وليس لهذا الهرم الثانى حجرات تحت الارض ولا تتصل به أية قناة لتجلب له المياه من النيل كما هو الحال فى الهرم الاكبر اذ يجرى الماء الى هذا الاخير فى مجرى يحيط بجزيرة حيث يرقد جسد خوفو ، كما يقولون • وقد بنى خفرع هرمه بجانب هرم خوفو وبنفس الأبعاد ، مع استثناء أنه خفض ارتفاعه أربعين قدما • واستخدم فى بناء قاعدته أحجار اثيوبيا المتعددة الألوان • ويقع هذان الهرمان على تل واحد فى

---

(١) أبعاد الهرم الثانى هى : طول القاعدة الحالية ٦٩٠ قدما ، وطول القاعـدة السابقة (تبعا للكولونيل هوارد فيز Howard vyse) ٧٠٧ أقدام - وتسع بوصات ، وارتفاعه العمودى الحالى (بحساب الزاوية ٢٠ - ٥٢°) هو ٤٦٠ قدما وتسع بوصات وارتفاعه السابق ٤٥٤ قدما وثلاث بوصات . ويظن هيرودوت أن ارتفاعه يقل أربعين قدما عن ارتفاع الهرم الاكبر ، غير أن الفرق الحقيقى هو ٢٤ قدما وست بوصـات . ومن الغريب الا يلاحظ هيرودوت أبا الهول الذى صنع على الاقل فى عهد الاسرة الثامنة عشرة اذ يحمل اسم تحتمس الرابع •

مستوى لا يقل ارتفاعه عن مائة قدم • وظل خفرع فى الحكم مدة ست وخمسين سنة •

هكذا قاسى المصريون العذاب مدة مائة وست سنوات أغلقت خلالها المعابد ولم تفتح اطلاقا • ولهذا يكره المصريون ذكرى هذين الملكين ولا يحبون حتى ذكر اسميهما وهذا هو السبب فى أنهم يسمون الاهرام باسم فيليتون Philiton أحد الرعاة الذى كان يرعى قطعانه حول ذلك المكان •

الفصل الثامن عشر

****

بعض الأساطير المصرية

يقولون ، لما مات خفرع ارتقى العرش بعده موكيرينوس بن خوفو؛ وكان هذا الملك يمتعض من سلوك أبيه فأعاد فتح المعابد وسمح للشعب الذى وصل الى أقصى درجات البؤس والفاقة بأن يعود الى أعماله ويستأنف تقديم الذبائح • أما اقامته العدل فى القضاء فبذ فيه كل من سبقوه من الملوك • لذلك يثنى عليه المصريون بأكثر مما يثنون على أى ملك آخر مقررين أنه لا يحكم بالعدل فحسب، بل واذا تظلم أى فرد من الحكم فى قضيته عوضه الملك من جيبه الخاص • وهكذا يرضيه ولا يجعل أحدا يتذمر من حكمه • وبينما كان موكيرينوس يوطد أركان العدل فى مملكته بالطيبة والرحمة، نالت منه المصائب كل منال • فأولا ، ماتت ابنته التى كانت ذريته الوحيدة • واذ حزن على موتها حزنا بالغا أراد أن يدفنها بطريقة فذة • فأمر بصنع بقرة من الخشب ؛ وبعد تفريغ جوفها ، كساها كلها بالذهب ، ثم وضع جثة ابنته فى ذلك القبر الطريف •

لم توضع تلك البقرة تحت أطباق الثرى ، وانما بقيت فوق سطح الارض ليراها كل فرد فى جميع العصور حتى عصرى • كانت تحتل حجرة فاخرة الاثاث فى القصر الملكى بمدينة سايس Sois وكانت تحرق أمامها كل يوم جميع أنواع العطور ، ويضىء فى حجرتها مصباح ليلا ونهارا • ووضعت فى حجرة مجاورة عدة تماثيل قرر كهنة سايس أنها تمثل محظيات موكيرينوس • انها حوالى عشرين تمثالا ضخما من الخشب عارية الاجسام • ولست أعرف على وجه التحديد الاشخاص الذين تمثلهم هذه التماثيل ــ وانما أكرر هنا ما أخبرونى به •

هناك رواية أخرى عن هذه التماثيل الضخمة والبقرة الخشبية :

« كان موكيرينوس متيما بحب ابنته ؛ فاغتصبها بالقوة — فحز هـذا فى نفس الفتاة فشنقت نفسها فدفنها موكيرينوس فى تلك البقرة · ولما علمت أمها بجلية الامر قطعت أيدى جميع خادمات مخدعها لأنهن انحزن الى جانب الملك ، وغدرن بالفتاة · ولهذا لم تكن لتماثيل أولئك الخادمات أيد » ·
أما أنا شخصيا فاعتقد أن كل هـذه الروايات محض خرافات ولا سيما ما قيل عن أيدى التماثيل · وكل ما أعتقد بصحته هو أن التماثيل فقدت أيديها بمرور الزمن الطويل · وقعت تلك الايدى من التماثيل ولا تزال ، حتى اليوم ، ملقاة تحت أقدامها ·

أما البقرة فيحجب الجزء الاكبر من جسـمها غطاء أحمر ، ولا يظهر منها غير رأسها وعنقها ، وهما مكسوان بطبقة كثيفة من الذهب · وبين قرنيها صورة من الذهب أيضا تمثل قرص الشمس · وليس تمثال البقرة هذا واقفا على قوائم بل يمثلها راقدة وقد ثنت أرجلها تحت جسمها · انها فى نفس حجم بقرة حقيقية ضخمة · وفى كل سنة تنقل هذه البقرة من موضعها وتعرض لضوء النهـار — يحدث هـذا فى الموسم الذى يلطم فيه المصريون أنفسهم تكريما لأحد آلهتهم ؛ الذى أكف عن ذكر اسـمه فيما يختص بهذا الامر (١) · فيقال ان الفتاة طلبت من والدها فى آخر لحظات حياتها أن يسمح لها بأن ترى الشمس مرة فى كل عام ·

بعد موت هذه الابنة ، أصيب موكيرينوس بكارثة أخرى سـأرويها هنا الآن : بلغت هذا الملك نبوءة من مدينة بوتو ، تقول : « لن تعيش على الارض الا ست سنوات فحسب ، وستموت فى السنة السابعة » · فغضب موكيرينوس وبعث الى الوحى برسـالة مهينـة يزجر فيهـا الهه على عدم انصافه ؛ فقال فيها : « على الرغم من أن أبى وعمى قد أغلقـا المعابد ولم يكترثا للآلهة ، وأهلكا آلافا من الشعب ، فقد تمتعا بحياة طويلة · أما أنا ، الرجل البار التقى فسأموت سريعـا ! » فرد عليه الوحى بقوله : « لهذا السبب ستنتهى حياتك بسرعة — لم تعمل ما كان يليق بك أن تعمـل · كان مقدرا لمصر أن تعانى العذاب مائة وخمسين سنة — أدرك الملكان اللذان سـبقاك على العرش هـذا الأمر · أما أنت فلم تدركه ، وعنـدما تلقى موكيرينوس هذه الرسالة ايقن أن مصيره قد تحدد · فأمر باعداد المصابيح التى كان يضيئها فى مساء كل يوم ليولم ويستمتع بالملذات ليلا ونهارا ، يتنقل بين أراضى الريف والغـابات ، ويزور كل مكان يسمع عن شهرته

(١) انه أوزيريس ·

السياحية • كان كل قصده أن يبرهن على كذب الوحى بأن يحيل الليل الى نهار ، وبذا يعيش اثنى عشر عاما فى فترة ست سنوات •

كذلك ترك موكيرينوس هرما فى حجم هرم والده ، ذا قاعدة مربعة يقل طولها عشرين قدما عن الثلاثمائة قدم • وقد بنى الهرم الى نصف ارتفاعه من أحجار اثيوبيا • وينسبه بعض الاغارقة الى المومس رودوبيس بيد أن هذا خطأ • يبدو لى أن أولئك الناس لم يعرفوا من هى رودوبيس ، والا لما نسبوا اليها عملا يتطلب نفقات باهظة • كانت رودوبيس تعيش فى عصر اماسيس وليس فى عصر موكيرينوس • وعلى هذا تكون من عصر لاحق لعصر بناة الاهرام بسنوات عدة • انها تراقية المولد ، كانت عبدة يملكها ايادمون ابن هيفايستوبوليس السامى • وكان ايسوب ، كاتب الاساطير الخرافية ، عبدا زميلا لها • وهناك عدة أدلة على أن ايسوب كان يملكه ايادمون فعندما أعلن أهل دلفى ، طاعة لأمر الوحى ، أن يتقدم من له الحق فى المطالبة بالفدية عن مقتل ايسوب ، تقدم ايادمون حفيد ايادمون الأول ، وتسلم الفدية اذن فلا بد أن كان ايسوب عبدا يملكه ايادمون الجد •

حضرت رودوبيس الى مصر لتقوم بمهمتها تحت امرة كسانثوس السامى • غير أنها نالت حريتها نظير مبلغ ضخم من المال دفعه خاراكسوس الميتيلينى بن سكاماندرونوموس وشقيق الشاعرة صافو (١) ـ وبعد أن استعادت حريتها بهذه الطريقة بقيت فى مصر • ولما كانت فائقة الجمال ، جمعت ثروة طائلة بالنسبة لسيدة فى حالتها • ومع ذلك ، فلم تكن لتمكنها من اقامة عمل ضخم مثل ذلك الهرم • وكل من أراد أن يتحقق من هذا ؛ فليذهب ويشاهد ١/١٠ ثروتها • عندئذ يدرك أنه يجب على المرء ألا يتصور ثروتها بتلك الضخامة الغريبة • فلما كانت هذه السيدة ترغب فى أن تترك أثرا يخلد ذكراها فى بلاد الاغريق، أصرت على أن تصنع شيئا لا يوجد مثله فى أى معبد ، وتقدمه الى معبد دلفى • وعلى هذا أخذت عشر ثروتها واشترت به كمية من الاسياخ الحديدية كالسفافيد المستعملة فى شواء الثيران كاملة ، وقدمتها للوحى • ولا تزال هذه الاسياخ هناك مكومة خلف المذبح الذى اقامه الخائيون Chians قبالة المعبد • ويبدو أن ناوكراتيس هى المدينة التى تكون بها أمثال هذه السيدة فى غاية الفتنة والاغراء • فأولا كانت بها رودوبيس هذه التى تكلمنا عنها • وقد طبقت

---

(١) كان خاراكسوس شقيق صافو يتاجر فى خمور لسبوس التى كان يحملها الى ناوكراتيس مركز جميع التجارة الواردة لبلاد الاغريق •

شهرتها جميع الافاق حتى ليجرى ذكر اسمها على ألسنة جميع الاغارقة • ثم ارخيديكى الشهيرة فى جميع ارجاء بلاد الاغريق ، ولو أنهم لا يتحدثون عنها كثيرا مثل سابقتها • وبعد أن دفع خاراكسوس فدية رودوبيس ، عاد الى ميتيلينى • وكثيرا ما الهبته صافو بشعرها • أظن أننا قلنا ما فيه الكفاية عن هذه الظاهرة •

قيل لى ان الملك التالى لهذا العاهل كان كاهنا من كهنة فولكان يدعى سيثوس فلما تولى الحكم أهمل طبقة المحاربين المصريين واحتقرهم كما لو كان فى غنى عن خدماتهم • فنزع منهم الاراضى التى امتلكوها ابان حكم الملوك السابقين وقدرها اثنا عشر فدانا من أجود الارض لكل محارب • بعد ذلك ، عندما سار الملك ساناخاريب ، ملك العرب (١) والآشوريين ، بجيشه الضخم الى مصر رفض المحاربون جميعا أن يهبوا لمساعدته فأحس ذلك الملك بخيبة الامل واذ نجعه الحزن العميق انطلق الى المعبد الداخلى وأخذ يندب أمام تمثال الرب ، تلك الكارثة التى حاقت به • وبينما هو يبكى غلبه النعاس فنام • فرأى فى حلم أن الرب أتى اليه ووقف الى جانبه وأمره بأن يتخلى عن غضبه ويبتهج ، وأن يذهب بكل جرأة لملاقاة الجيش العربى الذى لن يلحق به أى أذى لانه سيرسل هو بنفسه من يجب أن يساعدوه • فما انصحا سيثوس من نومه حتى تشجع بهذا الحلم ، فجمع بعض المصريين الراغبين فى أن يتبعوه ، ولم يكن بينهم أى محارب قط ، بل كانوا جميعا من التجار وأرباب الحرف ورجال الاسواق • فسار بهؤلاء الجموع الى بيلوسيوم المشرفة على مدخل مصر ، حيث أقام معسكره • وبينما كان كل من المعسكرين أمام الآخر ، جاءت فى بهيم الليل أسراب من فيران الحقول وأخذت تقرض جميع جعبات الاعداء وأوتار قسيهم ، كما أكلت السيور الجلدية التى يتناول جنود العدو بها تروسهم • فلما أصبح الصباح ورأى

---

(١) من الغريب أن نجد ساناخاريب يسمى هنا « ملك العرب والاشوريين » ويبدو أن ترتيب الالفاظ هنا يجعله ملكا عربيا أكثر منه اشوريا • وبنفس الروح يطلق على جيشه بعد ذلك اسم « الجيش العربى » • ومن المستحيل قطعا أن ندافع عن وجهة نظر هيرودوت هذه اذا تذكرنا كيف اختلط العرب بالاجناس الاخرى فى أرض الجزيرة (ميزوبوتاميا) السفلى ، ومقدار النفوذ البالغ الذى يسيطر به الملك الاشورى العظيم على قبائل الصحراء ، ولا سيما من يقيم منهم على حدود ارض الجزيرة • ومن شأن الصلة في العادات والتقاليد بين هذين الجنسين الساميين العظيمين أن يسهل الاتحاد بينهما نسبيا • ولذا نجد ملوكا من العرب يسيطرون على اشور لزمن ما ، بينما يحدث العكس في زمن آخر فيسيطر ملك من اشور على عدد كبير من القبائل العربية •

الاعداء ما حل بهم ، أطلقوا العنان لأقدامهم هاربين · وهكذا هزمت تلك الجموع الغفيرة لعدم وجود الاسلحة التى يدافعون بها عن أنفسهم · والى هذا اليوم ، يقوم أمام معبد فولكان تمثال للملك سيثوس ، يمسك فأرا فى يده (١) وقد نقش على التمثال عبارة تقول : « أنظر الى وتعلم تبجيل الآلهة » ·

تناولت فى الابواب السابقة ، الكلام عن سلطة المصريين وعن كهنتهم · ويقرر أولئك القوم أن الفترة ما بين أول ملوكهم وهذا الملك الذى تحدثت عنه أخيرا ، وهو كاهن فولكان ، تبلغ ثلاثمائة وواحد وأربعين جيلا · ويقولون ان هذا العدد نفسه يمثل عدد كل من ملوكهم وعظماء كهنتهم خلال هذه الحقبة الزمنية ·

يقال ان عصر أماسيس كان أزهر عصر رأته مصر (٢) ـ كان النهر يجرى الى الاراضى فى حرية أكثر ، وأثمرت الارض محصولا وفيرا انتفع به السكان أكثر مما سبق أن عرف قبل ذلك · وكان عدد المدن المأهولة بالسكان لا يقل عن عشرين ألفا وكان الملك أماسيس هذا هو الذى وضع قانونا يحتم على كل مصرى أن يمثل مرة فى كل عام أمام حاكم منطقته (٣)، ويقدم له تقريرا عن وسائل معيشته أما اذا لم يفعل هـذا أو لم يستطع اثبات أنه يعيش من السبل المشروعة ، حكم عليه بالاعدام · (انه أشبه بقانون من أين لك هذا ؟) وقد استعار صولون الأثينى هذا القانون من مصر وفرضه على مواطنيه الذين ظلوا يعملون به منذ عهده · انه ، والحق يقال ، عادة رائعة ·

عقد أماسيس معاهدة صداقة وتحالف مع الكورينيين صارت مصر بمقتضاها صديقة وحليفة للولاية الاغريقية كورينى · كما أنه تزوج امرأة من تلك الولاية · وكان قصده من هذا ، اما أن يكون ذلك الزواج عنوان الشعور بالصداقة ، أو أن أماسيس كان يتوق الى الزواج بسيدة اغريقية ·

---

(١) ان كان القوم يبجلون الفيران في ممفيس فربما نشأ هذا التبجيل لسبب آخر . كانت الفيران شعارا لعناصر التكاثر ، وربما لعناصر الانتاج أيضا · وكان البعض يعتقد أنها ذات قدرة على التنبؤ (وهذه صفة لا تزال تنسب الى الفران حتى الآن ، بدرجة ما في مناسبات معينة) . ويبدو أن أهل نرواس يبجلون الفيران « لانهـا قرضت أوتار الأعداء » ، وكان المصريون ينقشون صورة أبولو ، الذى كان يسمى سمينثيوس (من ٥ X بمعنى فأر) ، على نقود الاسكندرية ممسكا فأرا في يده .

(٢) لا ينطبق هذا الا على الشئون الداخلية للبلاد . ويدل ما كتبه هيرودوت بعد ذلك على أن هذا هو ما يقصده .

(٣) كان يحكم كل منطقة أو مديرية حاكم خاص ·

وعلى أية حال ، مهما كان قصده ، فمن المؤكد أنه تزوج بامرأة من كورينى تدعى لاديكى Ladice وعندما حان موعد اتمام المعاهدة أصيب أماسيس بالضعف • واذ أدهشه هذا - لانه لم يتعود ذلك من قبل - قال لزوجته « أيتها المرأة ، لقد سحرتنى حقا - فتأكدى اذن أنك ستموتين ميتة أشد بؤسا من ميتة أى أمرأة قبلك » • فاحتجت لاديكى وأصرت على براءتها مما نسبه اليها • بيد أن هذا لم يجدها نفعا ، فلم تلن قناة أماسيس• وعندئذ نذرت لاديكى فى نفسها ، ان عاد أماسيس الى صوابه فى خلال ذلك اليوم (اذ لم يسمح لها بوقت أكثر من يوم) ، أن تقدم تمثالا لمعبد فينوس فى كورينى • وعند ذلك نالت بغيتها فى الحال ، فزال عن الملك ضعفه • ومنذ هذا الحدث أحبها أماسيس حبا جما ، وأوفت لاديكى بنذرها أما التمثال الذى أمرت بصنعه وارساله الى كورينى فلا يزال هناك الى عصرى• وعندما غزا قمبيز مصر ، لم يصب لاديكى أى أذى • اذ لما علم منها حقيقة جنسيتها بعثها الى وطنها ولم يمسها بسوء •

الفصل التاسع عشر

****

قمبيز

قام قمبيز بن كوروس بحملته على مصر أيام حكم ملكها أماسيس ٠ فسار اليه بجيش يضم الامم العديدة الذين أخضعهم لحكمه ، ومن بينهم الأغارقة الايونيون والايوليون وكان السبب فى هذا الغزو هو : حنق أحد المصريين على أماسيس لانه أبعده عن زوجته وأولاده وأرسله الى فارس ٠ فأوعز هذا الرجل الغاضب الى قمبيز بأن يتزوج ابنة أماسيس ٠ فأرسل قمبيز رسولا الى أماسيس يطلب يد ابنته ٠ كان هذا الرجل ، الذى أوعز بهذا الى قمبيز، طبيبا بعث به أماسيس الى الفرس٠ فعندما طلب كوروس من أماسيس أن يرسل اليه أبرع طبيب عيون بين جميع الاطباء المصريين، اختار أماسيس هذا الطبيب ٠ ولذا حقد على أماسيس ٠ وكان يقصد من حثه قمبيز على الزواج من ابنة الملك ، أنه اذا وافق أماسيس ، فقد تغدو هذه الموافقة سببا فى نكده ٠ وان رفض فقد يصبح الرفض مدعاة لعداوة قمبيز له ٠ فلما جاءت رسالة قمبيز الى أماسيس الذى كان يرهب قوة الفرس أبلغ رهبة ، حار فى أمره ولم يدر ماذا يفعل ٠ هل يزوج قمبيز ابنته ، أو يرفض طلبه ؛ لان قمبيز لم يكن راغبا حقا فى أن يتخذها زوجته بل مجرد محظية له ٠ وكان أماسيس على يقين من هذا ٠ وعلى ذلك أخذ يقلب الامر فى ذهنه ، حتى استقر أخيرا على رأى ٠ كانت هناك فتاة تدعى نيتيتيس ابنة الملك السابق ابريس ، وكانت فارعة الطول على قدر وافر من الفتنة والجمال ، كما كانت آخر من بقى على قيد الحياة من تلك الاسرة الملكية ٠ فأخذ أماسيس هذه الفتاة وحملها بالذهب والثياب الفاخرة ، وأرسلها الى فارس كما لو كانت ابنته حقا٠٠٠ بعد ذلك بوقت ما ، تصادف بينما كان قمبيز يقبل هذه الغادة الحسناء ، أن ناداها باسم أبيها ٠ فما كان منها الا أن قالت له : « أرى أيها الملك ، أنك لا تعترف أن أماسيس قد خدعك ٠ اذ أخذنى ، واحتال على وأغرانى بالآمال الخلابة ، وأرسلنى

اليك على أننى ابنته • ولكننى ، فى الحقيقة ، ابنة أبريس الذى كان ملكه وسيده • فتمرد عليه أماسيس هو وبقية المصريين ، وقتله • » فلما سمع قمبيز بن كوروس منها هذا الكلام ، ثارت ثائرته • فسار على رأس قواته لغزو مصر هذه هى الرواية الفارسية •

هناك مسألة بالغة الأهمية سهلت القيام بالحملة ، كان بجيش أماسيس جندى مرتزق يدعى فانيس ، هاليكارناسى الاصل • وكان رجلا صائب الرأى ومحاربا مجيدا • ولما حقد على سيده لسبب ما ، هجر خدمته وركب سفينة وهرب بها الى قمبيز رغبة فى التحدث اليه • واذ كان رجلا عالى المنزلة فى جيش المرتزقة ، ويستطيع افشاء معلومات صحيحة عن مصر ، أصر أماسيس على استعادته • فأمر بمطاردته ، وعهد بهذه المهمة الى أحد رؤساء الجيش الذين يثق بهم كل الثقة • فركب هذا سفينة حربية وجد فى السير مطاردا ذلك الهاليكارناسى فأمسك به فى لوكيا بيد أنه لم يستطع احضاره الى مصر ، اذ كان فانيس أشد منه دهاء وحيلة ، لانه أسكر حراسه ثم هرب الى فارس • وحدث أن كان قمبيز يفكر وقتئذ فى الهجوم على مصر ، ولكنه كان مترددا لعدم معرفته كيف يجتاز الصحراء فلما وصل اليه فانيس ، لم يخبره بأسرار أماسيس فحسب ، بل وأمده بمعلومات عن كيفية عبور الصحراء • وأشار عليه بأن يوفد سفيرا من قبله الى ملك العرب ويطلب منه أن يسلك حياله مسلكا وديا وهو يعبر تلك المنطقة •

كان على قمبيز أن يعبر الطريق الممتد بين جينيكوس من جهة ، وبحيرة سيربونيس وجبل كاسيوس من جهة أخرى وهذه مسافة لايستهان بها اذ تبلغ مسيرة ثلاثة أيام ، والطريق عبارة عن صحراء قاحلة لا ترى بها قطرة ماء •

سأذكر الآن أمرا لا يعرفه ممن يبحرون الى مصر غير قليلين • ترسل الخمر الى مصر مرتين فى كل عام من بلاد الاغريق ومن فينيقيا ، فى قدور من الفخار • ومع ذلك فلا يمكنك أن ترى قدرا واحدة من هذه القدور فى أى مكان بتلك المملكة كلها • ولا بد أن يسأل كل انسان ، الى أين تذهب كل هذه الجرار ؟ سأوضح لك هذا أيضا • يتحتم على حاكم كل منطقة أن ينقل تلك الجرار الى ممفيس حيث يملؤها المفيسيون بالماء ويحملونها الى هذا الطريق السورى • وعلى هذا فان جميع القدور التى تدخل مصر فى كل عام وتباع فيها ، تجد طريقها الى سوريا ، حيث تذهب الجرار السابقة لها •

بدأ الفرس يحافظون على جعـــل الطريق الموصل الى مصر صالحا للمرور بتخزين الماء فيه ، بمجرد أن صاروا سادة هذه البلاد · غير أن الطريق اليها لم يكن به ماء فى الوقت الذى نحن بصدده · فعمل قمبيز بمشورة ذلك الضيف الهاليكارناسى ، فبعث رسلا الى الملك العربى يرجوه ألا يتعرض له بسوء وهو يمر بتلك المنطقة · فأجاب الملك العربى رجاءه ، ووثق كل منهما بالآخر ·

يفى العرب بمثل هذه العهود أكثر مما يفى بها أى شعب آخر · فعندما يحلف رجلان يمين الصداقة ، يقف كل منهمـــا الى جانب رجل ثالث · فيمسك هذا الاخير بحجر حاد الطرف ، ويحدث به جرحا فى يد كل منهما قرب أصبعه الوسطى ثم يأخذ قطعة من ثيابهما ويغمسها فى دم كل منهما ، ويبلل بالدم سبعة أحجار موضوعة على الارض بينهما · وفى أثناء ذلك ينادى : ياخوص ويورانيا وبهذا يبدأ عهد الصداقة بينهما · واذا قدم الرجل الذى قام بهذا العهد ، رجلا أجنبيا (أو مواطنا ، ان كان مواطنا) الى جميع أصدقائه ، اعتبروا أنفسهم ملزمين بالوفاء له ·

ولهذا السبب ، عندما وعد الملك العربى رسل قمبيز ، قام من فوره بعمل ما يأتى : صنع عددا من القرب من جلود بعض ابله ، وملأها بالماء · ثم حمل هذه القرب على ظهور الابل الحية الباقية مما يملكه ، وقادها الى الصحراء حيث بقى هنـــاك ينتظر مجىء جيش قمبيز · وهذا هو عين ما ينتظر أن يحدث تبعا للروايتين اللتين روينا · أما الرواية الثانية فغير محتملة التصديق · ولكنها مادامت قيلت ، فمن الواجب أن أذكرها · يوجد نهر كبير فى بلاد العرب يســـمى نهر كوروس يصب فى الخليج الفارسى · يقولون ان ملك العرب صنع أنابيب من جلود الثيران والحيوانات الاخرى ، ومدها على طول الطريق من هذا النهر الى الصحراء · وبذا جلب الماء الى خزانات حفرها فى الصحراء حيث تحفظ · وتبلغ المسافة من النهر الى طريق الصحراء مسيرة اثنى عشر يوما · ويقولون ان الماء كان يجرى داخل ثلاث أنابيب الى ثلاثة أماكن مختلفة ·

عسكر بسامينيتوس بن أماسيس عند مصب نهر النيل المســمى بيلوسياك فى انتظار قمبيز · اذ عنـــدما ذهب قمبيز الى مصر لم يجد أماسيس على قيد الحياة · لقد مات بعد أن حكم مصر مدة أربع وأربعين سنة ، لم يصب خلالها بأى مكروه بليغ · وعندما مات حنطت جثته ودفنت فى القبر الذى أمر هو ببنائه فى المعبد · وبعد أن جلس ابنه بسامينيتوس على العرش ، حدثت ظـــاهرة غريبة فى مصر : ــ سقط المطر فى طيبة المصرية ، وهذا أمر لم يسبق أن حدث من قبل ، ولم يتكرر حدوثه مرة

ثانية حتى اليوم ، كما يشهد بذلك أهل طيبة أنفسهم • والعادة ألا يسقط المطر فى مصر العليا اطلاقا ، ولكنه نزل بطيبة فى تلك المناسبة قطرات صغيرة •

اجتاز الفرس الصحراء وأقاموا معسكرهم بقرب المعسكر المصرى ، واستعدوا للمعركة وكان الجنود المرتزقة الذين فى خدمة بسامينيتوس ، وهم من الاغارقة والكاريانيين ناقمين على فانيس بسبب احضاره جيشا أجنبيا لغزو مصر • وفكروا فى طريقة ينتقمون بها منه • كان فانيس قد ترك أبناءه فى مصر ، فأخذهم الجنود المرتزقون وذهبوا بهم الى المعسكر وعرضوهم أمام عينى أبيهم • بعـــد ذلك أحضروا طستا ووضعوه وسط الشقة الكائنة بين الجيشين • وقادوا أولاد فانيس الى الطست واحدا وراء آخر ، وذبحوهم فوقه • وبعد أن ذبحوا آخر ولد صبوا ماء وخمرا فى الطست ثم شرب كل جندى من دم أولئك الابناء ، وذهبوا الى المعركة • كان القتال الذى تلا ذلك عنيفا ، ولم يتراجع المصريون ويفروا الا بعد أن قتلت جموع كبيرة من كلا الفريقين •

رأيت ظاهرة فى غاية الغرابة فى الميـــدان الذى دارت فيه رحى المعركة ، لفت نظرى اليها الأهلون • توجد عظام القتلى مبعثرة فى الميدان فى موضعين : عظام جنود الفرس فى مكان ، وعظام المصريين فى مكان آخر بعيد عن الاول • فاذا ضربت جمجمة فارسية ولو بحصاة ، أحدثت بها ثقبا ، لان جماجمهم ضعيفة فى حين أن جماجم المصريين قوية بحيث تستطيع أن تضربها بحجر فلا تكاد تنكسر • وقد ذكر الأهلون لى سبب هذا الاختلاف ، وهو سبب يبدو معقولا جدا : قالوا ان المصريين يحلقون رءوسهم منذ طفولتهم ، وعلى هذا تتعرض جماجمهم لفعل الشمس فتصبح سميكة صلبة ولنفس السبب لا يوجد الصلع فى مصر حيث عدد الصلع أقل من عددهم فى أية دولة أخرى • وهذا هو السبب فى أن جمـــاجم المصريين قـــوية الى تلك الدرجة • أما الفرس فجمـــاجمهم ضعيفة لانهم يحجبونها عن ضوء الشمس منذ الصغر بلبس العمائم حول رءوسهم • ولقد رأيت بعينى رأسى ما أذكره هنا • وشاهدت مثله أيضا فى بابريميس فى حالة الفرس الذين قتلوا مع أخايمينيس بن داريوس ، على يد ايناروس الليبى •

ما ان أدار المصريون ، الذين قاتلوا فى تلك المعركة ، ظهورهم للعدو حتى انطلقوا هاربين فى غير ما نظام الى ممفيس حيث احتموا وراء الأسوار وأقفلوا الأبواب خلفهم • عندئذ أوفد قمبيز رسولا فارسيا على ظهر سفينة ميتيلينية ليصل الى ممفيس عن طريق النيل ويطلب من المصريين التسليم •

فلما أبصر المصريون السفينة تدخل المدينة ، انقضوا عليها من الحصن فى جموع غفيرة وحطموها ومزقوا بحارتها اربا • وهكذا نقلوهم الى الحصن • بعد ذلك حوصرت ممفيس واستسلمت فى الوقت المناسب • وعندئذ خاف الليبيون الذين على حدود مصر ، أن يصيبهم نفس المصير ، فسلموا أنفسهم الى قمبيز بغير قتال ، وعقدوا معه اتفاقا أن يدفعوا له الجزية • ومنذ ذلك الحين وهم يرسلون اليه الاموال • كذلك دب الخوف فى نفوس الكورينيين والباركيين كما حدث لليبيين ، ففعلوا مثل ما فعل هؤلاء • فتقبل قمبيز أموال الليبيين بالشكر ، ولكنه لم يتسلم أموال الكورينيين بنفس الروح • لم يرسل له هؤلاء أكثر من خمســـمائة ميناى (١) من الفضة • فاعتقد قمبيز ، على ما أظن ، أنه مبلغ ضئيل جدا • فخطف النقود من أيديهم وبعثرها بيديه وسط الجنود •

بعد ســـقوط الحصن بعشرة أيام ، عزم قمبيز على أن يختبر روح بسامينيتوس ، الملك المصرى الذى لم يستغرق حكمه سوى ستة شهور • فأمر بوضعه فى احدى الضواحى ومعه عدد كبير من المصريين الآخرين . حيث عرضه للاهانة • فأولا ، أرسل ابنة بسامينيتوس الى خارج المدينة فى ثياب أمة تحمل جرة لتحضر الماء ، وقد رافقتها كثيرات من العذارى بنات أعظم النبلاء ، مرتديات مثل ملابسها • فلما وصلت الفتيات الى موضع قبالة المكان الذى كان يجلس فيه آباؤهن ، وكن يذرفن الدموع ويرسلن صيحات الحزن والأسى ، بكى جميع الآباء ماخلابسامينيتوس ، اذ رأوا بناتهم على تلك الحال من البؤس • أما بسامينيتوس فنظر اليهن وطأطأ رأسه الى الارض • مرت حاملات الماء على تلك الحال • ثم جاء خلفهن ابن بسامينيتوس ومعه ألفان من الشبان المصريين من مثل عمره — وقد ربطت الحبال حول أعناقهم جميعا ووضعت اللجم فى أفواههم — ومر هؤلاء أيضا ليقتلوا نظير مقتل الميتيلينيين الذين هلكوا مع سفينتهم فى ممفيس اذ هذا هو الحكم الذى أصدره القضاة الملكيون ، وهو : « يجب أن يموت عشرة من أنبل المصريين فى مقـــابل كل رجل ميتيلينى » • أبصر الملك بسامينيتوس هذا الجمع يمر أمامه وعرف أن ابنه يساق الى الموت • فى حين كان المصريون الآخرون حوله يبكون ويضطربون ، لم تظهر عليه أية علامة تنم عن الحزن ، زيادة عما بدا منه عندما رأى ابنته • وبعد أن مر هؤلاء أيضا ؛ جاء أحد أصدقائه السابقين ، وكان رجلا تقدمت به السنون ، وقد

---

(١) اذا كان المقصود هو الميناى الأتيكى ، كما هو المحتمل ، فان قيمة الجزية كلها تبلغ ٢٠٠٠ جنيه من نقودنا •

نزعت عنه جميع أملاكه وصار متسولا • وعندما جاء الى حيث يجلس بسامينيتوس بن أماسيس وبقية المصريين الآخرين ، وكان ذلك الرجل يستجدى ويمد يده الى الجنود يطلب صدقة • عندئذ لم يطق الملك المصرى رؤية هذا المنظر حتى انه انفجر يبكى بصوت مرتفع ، ونادى صديقه باسمه ، ولطم نفسه على رأسه •

كان هناك أشخاص مهمتهم أن يراقبوا انفعالات بسامينيتوس ، ويلاحظوا ما سيفعله عند مرور كل جماعة وعلى هذا ، انطلق أولئك الاشخاص ليخبروا قمبيز بما فعله بسامينيتوس • فدهش قمبيز لماحدث وبعث رسولا الى بسامينيتوس يسأله : « يابسامينيتوس ! ان سيدك قمبيز يسألك ، لماذا لم تصرخ ولم تبك عندما رأيت ابنتك فى الرق والذل وعندما شاهدت ابنك يساق الى الموت ؟ ولكنك أبديت تلك الانفعالات عندما رأيت متسولا ، بلغ الملك ، أنه غريب عن جنسك ؟ » فأجاب بسامينيتوس عن هذا السؤال بقوله : « يا ابن كوروس ! كانت مصائبى أكثر من أن تخففها الدموع ، أما مصيبة صديقى ذاك فكانت تستحق البكاء • فعندما يقلب الدهر لامرىء ظهر المجن فيسقط من العظمة والرفاهية الى التسول وهو على عتبة الشيخوخة ، يحق للمرء ، أن يبكى من أجله • » فلما عاد الرسول الى قمبيز بهذا الرد قال قمبيز انه على حق ، وكذلك قال كرويسوس ويقرر المصريون أنه بكى ــ فقد جاء هو أيضا الى مصر مع قمبيز ــ وكذلك بكى جميع الفارسيين الحاضرين • وحتى قمبيز نفسه تألم غاية الالم وأصدر أمره باستثناء ابن بسامينيتوس من بين الذين سيقوا الى الاعدام ، كما أمر باحضار بسامينيتوس نفسه الى حضرته من الضاحية التى اعتقل فيها •

بيد أنه سبق السيف العزل • فعندما وصل رسل قمبيز لانقاذ ابن بسامينيتوس من القتل ، وصلوا متأخرين فوجدوا ذلك الشاب قد قتل أول الجميع وقطعت جثته اربا • أما بسامينيتوس نفسه فجاءوا به الى حضرة مليكهم ، الذى سمح له بأن يعيش معه ، ولم يعامله بخشونة قط بعد ذلك ، كما لم يحرمه التدخل فى شئون البلاد • وكان بوسعه أن يسترد مصر ويحكمها بصفته واليا • فقد جرت عادة الفرس أن يعاملوا أبناء الملوك بالتبجيل ، لدرجة أنهم قد يهبون مملكة الأب لابنه فى حالات التمرد الشبيهة بهذه الحالة •

الفصل العشرون

****

أعمال قمبيز

ترك قمبيز ممفيس بعد ذلك واتجه الى سايس وهو ينوى فى نفسه أمرا : ما ان دخل قصر أماسيس حتى أمر فى الحال باخراج جثة الملك من قبره . فلما أخرجها الخدم أمرهم بأن يضربوا الجثة بالسياط وأن يوخزوها بالمناخس وينزعوا الشعر منها ، وأن يلحقوا بها جميع صنوف الاهانات . ولما كانت الجثة محنطة ، فقد قاومت كل ذلك التعذيب ولم تتفكك مهما فعلوا بها . غير أن الخدم تعبوا مما قاموا به ، فأمرهم قمبيز بأن يأخذوا الجثة ويحرقوها . كان هذا أمرا يتنـــافى مع أصول الدين حقا . اذ يعتبر أهل فارس النار الها ، ولا يحرقون موتاهم بحـال ما . والحقيقة أن هذا الامر لم يكن مشروعا ، سواء للفرس أو للمصريين — لنفس السبب الذى ذكرناه لانه من الاثم لدى الفرس أن يقدموا جثة الميت لأى اله . أما المصريون فيعتبرون النار حيوانا حيا يأكل كل مايصادفه ثم يتخم من كثرة الطعام فيموت بالمادة التى يتغذى بها . ومما يتنافى مع تقاليدهم ، تقديم جثة شخص لحيوان كى يلتهمها والحقيقة أن هذا هو السـبب فى أنهم يحنطون جثث موتاهم ، أى ليمنعوا الديدان من أن تأكلها فى القبر . وبالرغم من هذا ، فقد أصدر قمبيز أمرا غير مشروع لكل من الفرس والمصريين . وتبعا للرواية المصرية ، لم يكن أماسيس هو الذى عوملت جثته بتلك المعاملة المهينة ، بل كان شخصا آخر من شعبهم فى حوالى طول أماسيس . وأما الفرس فاعتقدوا أن جثة ذلك الرجل هى جثة الملك فأهانوها بالطريقة التى أوضحناها . ويقولون ان وحيا كان قد حذر أماسيس مما سيحدث له بعد وفاته . فلكى يتحاشى المصير الذى قدر له ، دفن الجثة ، التى لاقت الضربات بعد ذلك ، فى نفس قبره بجوار المدخل ، وأمر ابنه بأن يدفنه فى أقصى موضع بالضريح نفسه . أما أنا

شخصيا ، فلا أعتقد أن يكون أماسيس قد أصدر هذه الاوامر اطلاقا ويبدو لى أن المصريين يؤكدون هذا انقاذا لكرامتهم •

بعد ذلك اجتمع قمبيز بمستشاريه وعزم على القيام بثلاث حملات • واحدة على القرطاجنيين ، وأخرى على الامونيين والثـالثة على الاثيوبيين الطويلى الاعمار ، المقيمين فى جزء ليبيا المتاخم للبحر الجنوبى ••• رأى قمبيز أن خير طريقة هى أن يهاجم قرطاجنة بالاسطول ، ويرسل قسما من جيشه البرى لمهاجمة الامونيين ، فى حين يذهب جواسيسه الى اثيوبيا بحجة حمل الهدايا الى الملك ، ولكن حقيقة مهمتهم هى أن يلاحظوا كل ماتقع عليه عيونهم ، وخصوصا ليروا ما اذا كان صحيحا مايقال من أن بأثيوبيـا مايسمونه «مائدة الشمس» •

أما وصف مائدة الشمس ، تبعا للروايات التى يحكونها ، فهو : أنها مرعى فى ضواحى مدينتهم مملوء باللحوم المطهوة لجميع صنوف الحيوان • ويهتم الحكام بملء ذلك المرعى باللحوم فى كل ليلة • وأى فرد يرغب فى أن يأكل منها يستطيع ذلك بالنهار • أما أهل تلك البـلاد فيقولون ان الارض نفسها هى التى تنتج الطعام • هذا هو الوصف الذى يقولونه عن تلك المائدة •

عندما قرر قمبيز ارسال الجواسيس ، بعث الى مدينة فيلة يستـدعى تراجمة معينين يعرفون اللغة الاثيوبية • وبينما ذهب البعض لاستدعائهم، أصدر أوامره الى الاسطول بالابحار لمهاجمة قرطاجنة • بيد أن الفينيقيين أبوا الذهاب وقالوا انهم مرتبطون بمعـاهدة صداقة مع قرطاجنة ، وقد عززوا تلك المعاهدة بالايمان المغلظة وانه ليصير شرورا منهم أن يهاجموا أولادهم • واذ رفض الفينيقيون الابحار ، أصبح باقى الاسطول غير ملائم لهذا العمل • وعلى هـذا نجـا القرطاجنيون من أن يستعبدهم الفرس • عندئذ رأى قمبيز أنه ليس من الحكمة أن يجبر الفينيقيين على القتال ، لانهم خضعوا لحكم الفرس بمحض اختيارهم ، ولان جميع العمليات البحرية تتوقف على أولئك الفينيقيين كذلك انضم أهل قبرص الى الفرس من تلقاء أنفسهم ، واشتركوا معهم فى الحملة على مصر •

بمجرد أن وصل التراجمة من فيلة أخبرهم قمبيز بما ينبغى عليهم أن يقولوه ثم أوفدهم الى اثيوبيا بالهدايا الآتية : ثوب من الارجوان ، وعقد وأساور من الذهب ، وعلبة للعطر مصنوعة من المرمر ، وجرة من خمر البلح • ويقال ان الاثيوبيين الذين ذهب اليهم أولئك السفراء ، أطول الناس فى العالم كله ، وأكثرهم أناقة كما أنهم يختلفون عن سائر البشر

فى عاداتهم ، وخصوصا فى الطريقة التى يختارون بهـــا ملوكهم · فهم يبحثون عن أطول رجل بين جميع المواطنين على شرط أن تتناسب قوته مع طوله ، ثم يعينونه ملكا يحكم عليهم ·

لما وصل التراجمة الى أولئك القوم ، سلموا الهدايا لملك البلاد ، وحدثوه قائلين : « يرغب قمبيز ملك فارس فى أن يكون حنيفك وصديقك ولذا أوفدنا اليك لنخبرك بهذا ونحمل اليك الهدايا التى تراها ، والتى يعجب بها هو نفسه أيما اعجاب » · فقال لهم الملك الاثيوبى ، الذى كان يعرف أنهم انما أتوا كجواسيس : « لم يرسلكم ملككم الفـــارسى بهذه الهدايا رغبة فى أن يكون صديقى — وليس صحيحا ماتقولونه عن أنفسكم، لأنكم جئتم لتعرفوا أسرار مملكتى — كما أن ملككم ليس رجلا عادلا — فلو كان عادلا لما طمع فى أرض ليست له ، ولما استعبد قوما لم يمسوه قط بأذى · احملوا اليه هذا القوس ، وقولوا له : « ينصح ملك الاثيوبيين ملك الفرس بأنه — عنـــدما يستطيع الفرس أن يجذبوا وتر قوس قوية كهذه بنفس هذه السهولة ، اذن فليأت بجيش يفوقنا قوة ، ويهـــاجم الشعب الاثيوبى الطويل الاعمـــار — وحتى الآن ، فليشكر الآلهة الذين لم يضعوا فى قلوب أبناء اثيوبيا أن يطمعوا فى بلاد ليست ملكا لهم · »

ما ان قال هذا حتى نزع وتر القوس ووضعها فى أيدى الرسل · ثم أمسك بالثوب الارجوانى وسألهم عن ماهيته وكيفية صنعه · فأجابوه بالصدق وأخبروه عن الارجوان وعن فن الصباغة ، عند ذلك أبدى ملاحظته قائلا : « ان القوم مخادعون وكذلك ثيابهم · » ثم التقط العقد والاساور وسألهم عنها · فشرح له أولئك التراجمة فائدتها كأدوات للزينة · عندئذ ضحك الملك اذ ظنهـــا أغلالا ، وقال : « لدى الاثيوبيين أغلال أقوى من هذه · » ثم سألهم عن العطر · فلما أخبروه عن كيفية صنعه ، وكيف تدعك به الاعضاء ، قال ماسبق أن قاله عن الثوب · وأخيرا جاء دور الخمر فلما عرف طريقة صنعها ، شرب منها رشفة فأعجبته كثيرا · حينئذ سألهم عما تعود الملك الفارسى أن يأكله ، وعن العمر الذى بلغه أعظم معمر فى فارس · فأخبروه بأن الملك يأكل الخبز ، ووصفوا له القمح — وقالوا ان أطول عمر عاشه رجل فى فارس هو ثمانون سنة · فقال : « لن يدهشنى أن تموتوا بهذه السرعة طالما تتغذون بالقـــاذورات والحقيقة أننى لست متأكدا من أنكم تبلغوا عمرا طويلا كثمانين سنة ، الا بوساطة انعاش ذلك الشراب (يقصـــد الخمر) الذى أعترف بأن الفرس يتفوقون به على الاثيوبيين » ·

عندما استعد التراجمة للعودة الى مصر ، سألوا ملك اثيوبيا عن المدة التى يعيشها الفرد فى بلاده ، وعما يأكلون • فأخبرهم بأن معظم شعبه يعيشون مائة وعشرين سنة ، وبعضهم يعمر الى أكثر من هذا — ويأكلون اللحم المطبوخ ، ولا يشربون غير اللبن • وعندما أبدى الرسل دهشتهم لعدد السنوات التى يعيشها الفرد هنـــاك ، أخذهم الى ينبوع ماء حيث اغتسلوا ، فوجدوا أن أجسامهم كلها قد غدت لامعة وناعمة ، كما لو كانوا قد استحموا فى الزيت • وانبعثت من الينبوع رائحة زكية تشبه رائحة البنفسج • وقد قال هؤلاء ان الماء كان خفيفا بحيث لا يمكن لأى شىء أن يطفـــو على سطحه • لا الخشب ولا أية مادة أخف من الخشب ، وانما تغوص كلها الى القاع • واذا كانت رواية الينبوع هذه صحيحة ، فان استعمالهم لهذا الماء باستمرار هو السبب فى أنهم يعيشون طويلا • وبعد أن ترك الرسل الينبوع ، قادهم الملك الى سجن فأبصروا المسجونين مقيدين جميعـــا بأصفاد من الذهب • وأن النحـاس أندر المعادن وأغلاها عند الاثيوبيين • وبعد أن انتهوا من رؤية السجن ، شاهدوا ما يطلق عليه « مائدة الشمس » •

وأخيرا سمح لهم الملك بمشاهدة نعوش الأثيوبيين ، التى صنعت (تبعا للتقرير) من البلور ، بالصورة الآتية : عندما يموت شخص ، يطلون جثته بالجبس ، اما بالطريقة المصرية أو بطريقة ما ، ويزينونها بالدهان حتى تشبه الجسم الحى قدر المستطاع ، ثم يضعونها داخل عمود من البلور مجوف الباطن بحيث يتسع للجثة • ويوجد البلور بكثرة بباطن الارض فى بلادهم ، ومن نوع ســهل الصنع • فيمكنك أن تبصر الجثة من خلال العمود الموضـــوعة فيه • ولا تنبعث من الجثة رائحة كريهة ، ولا يتغير شكلها بحال ما ومع ذلك ، فلا يوجد جزء من الجثة لايرى بوضوح ، كما لو كانت الجثة عارية ويحتفظ أقرب أقرباء الميت بالعمود البلورى فى منزلهم لمدة ســـنة منـــذ يوم الوفاة • ويقدمون لذلك النعش باكورة الفاكهة باستمرار ، ويبجلونه بالتقدمات والذبائح • وبعـد أن تنقضى السنة ، ينقلون العمود ويضعونه بجوار المدينة •

عاد الجواسيس الى مصر بعد أن رأوا كل شىء ، ثم قدموا تقريرهم الى قمبيز الذى أرغى وأزبد وهاج لدرجة الغضب بسبب ماسمعه منهم • وعلى ذلك بدأ فى الحال سيره لمهاجمة الاثيوبيين دون أن يعد المئونة اللازمة لاطعام جيشه ، ودون أن يفكر فى انه سيشن حربا فى أقصى أجزاء الارض • وكرجل معتوه ، كما كان وقتذاك ، ماكاد يتسلم تقرير التراجمة حتى بدأ سيره آمرا الأغارقة الذين كانوا ضمن جيشه أن يبقوا حيث هم ، وصحب

معه جنوده الفارسيين ليس غير • ولما وصل الى طيبة التى كان عليه أن يمر بها فى طريقه ، فصل من جيشه الأصلى حوالى خمسين ألف جندى ، وأرسلهم لغزو بلاد الأمونيين • وأمرهم بأن يأسروا أفراد الشعب ويحرقوا وحى جوبيتر • وفى الوقت ذاته ، سار هو مع بقية جيشه لمهاجمة الاثيوبيين • غير أنه قبل أن يقطع خمس المسافة نفد جميع ما كان لدى القوة من مئونة وعندئذ شرع الرجال يأكلون حيوانات الحمل التى كانت معهم • بيد أن هذه لم تلبث أن نفدت أيضا • ولو رأى قمبيز ماحدث وقتذاك واعترف بخطئه ورجع بجيشه لفعل أحكم مايمكن أن يعمل بعد الخطأ الذى وقع فيه منـــذ البداية • ولكنه لم يكترث لشيء وواصل سيره بعد هذا • وطالما كان فى الارض مايقتات بهالجيش ، وكان يأكله الجنود ، اذ أكلوا الحشائش والاعشاب غير انهم عندما وصلوا الى المنطقة الرملية القاحلة ، اقترف بعض الرجال أمورا بشعة : كان كلعشرة منهم يختارون منبينهمرجلا بالقرعة ويذبحونه ليكون طعاما للتسعة الباقين • فلما علم قمبيز بهذه الافعال اقشعر بدنه لأكلهم لحوم البشر ، فتنازل عن هجومه على اثيوبيا ورجع أدراجه من الطريق التى جاء منها • فوصل الى طيبة بعد أن هلكت من جنوده أعداد كبيرة • ثم سار من طيبة الى ممفيس حيث صرف الجنود الاغريق وسمح لهم بالعودة الى وطنهم • وهكذا انتهت الحملة على أثيوبيا •

بدأ الرجال الذين ذهبـوا لمهاجمة الأمونيين رحلتهم من طيبـــة • وبالرغم من أنهمصحبوا معهم عددا من الأدلاء ، فلميمكن اقتفاء اثرهم الا الى مدينة الواحة(١) التى يسكنها الساميون ، الذين يقال انهم من قبيـــلة أيسخريونيا Aeschrionia وتبعد هذه المدينة عن طيبة القديمة بمسيرة سبعة أيام خلال الرمال • وتسمى فى لغة بعضهم « جزيرة المباركين » • ولا يعرف شيء اطلاقا عن ذلك الجيش بعد أن وصل الى هذه المدينة • كما لم يسمع عنه أى خبر سوى ما يرويه الامونيون ومن يستقون معلوماتهم منهم ــ والمؤكد أنهم لم يصلوا الى بلاد الأمونيين ولم يعودوا الى مصر • وعلاوة على هذا ، يقول الأمونيون سار الفرس من مدينة الواحة عبر الرمال حتى وصلوا الى منتصف المسافة بين هذه المدينة وبينبلدهم • وحدث بينما كانوا يتناولون طعام الغذاء فى وقت الظهيرة ، ان هبت ريح عاصفة من

---

(١) مدينة الواحة هى مدينة الخارجة الحديثة ، المدينة الرئيسية في الواحة الكبرى • وتبعد هذه من مدينة طيبة القديمة بمسيرة ٤٢ ساعة • من أحد الطـرق ، ومسيرة ٥٢ ساعة من طريق آخر « أى ستة أيام وسبعة أيام ونصف على التوالى ». قد يكون المصريون أطلقوا اسم الواحة على المدينة ، في عصر هيرودوت ، وكذلك على الطريق المحيط بها •

الجنوب . وكانت ريحا عاتية قاتلة ترفع معها أعمدة من الرمال في صورة دوامات هائلة ، فغطت الجيش كله تماما ، ودفنت الرجال جميعا • هذا هو ما حدث لرجال ذلك الجيش تبعا لرواية الأمونيين •

في الوقت الذى عاد فيـــه قمبيز الى ممفيس تقريبا ، ظهر أبيس الى المصريين• وأبيس هذا هو الاله الذى يسميه الاغريق ابافوس، وما أن علم بظهوره المصريون حتى ارتدوا جميعا أفخر ثيابهم ، وأخـذوا يقيمون الولائم والافراح مبتهجين مرحين • فعندما شاهدهم قمبيز على تلك الحال ، أيقن انهم انما يفعلون هذا ابتهاجا بفشله الذريع • فاستدعى اليه الموظفين المهيمنين على مدينة ممفيس وطلب منهم أن يجيبوا عن هذا السؤال : «لماذا لم يفعل المصريون شيئا من هذا القبيل عندما كان في ممفيس قبل ذلك ، بل انتظروا حتى عاد الآن وقد تكبد جيشه خسائر فادحة في الارواح ؟ » فأجاب الموظفون بقولهم : «لقد ظهر لهم الآن أحد آلهتهم ، وهو اله تعود أن يظهر في مصر في فترات طويلة من الزمن ، ومن عادة المصريين ، عند ظهوره أن يولموا ويقيموا الحفلات والافراح » • فلما سمع قمبيز قولهم هذا ، اتهمهم بالكذب ، وحكم عليهم جميعا بالاعدام •

بعد أن تم اعدام هؤلاء الموظفين ، بعث قمبيز يستدعى الكهنة أن يمثلوا بين يديه • فلما جاءوا سألهم نفس السؤال الذى ألقاه الى الموظفين ، فتلقى منهم نفس الاجابة ، وعندئذ أبدى ملاحظته : «سرعان ما سيعلم هؤلاء ما اذا كان حقيقة قد ظهر اله أليف ليقيم في مصر» ــ وفي الحال ، دون أن يسمح لهم بأية كلمة ، أمر باحضار أبيس اليه • فانصاعوا لامره وخرجوا من عنده ليأتوه بذلك الاله • أما أبيس هذا ، أوابافوس ، فهو عجل تلده بقرة ، يقولون ان نارا تنزل عليها من السماء ، فتحبل في العجل أبيس • ويحمل العجل المسمى بهذا الاسم ، هذه العلامات : يكون أسود اللون ، ذو بقعة بيضاء مربعة الشكل في وسط جبهته • وعلى ظهره صورة نسر ، وعلى لسانه خنفساء(١) •

لما عاد الكهنة ، وقد أحضروا معهم العجل أبيس، استل قمبيز خنجره وسدده نحو بطن العجل • غير أنه أخطأ الهدف وأصابه في فخذه ، ثم ضحك وقال للكهنة : «أيها الاغبياء! أتظنون الآلهة تكون على هذه الصورة، من لحم ودم ، وتتأثر بالاسلحة المصنوعة من الصلب ؟ ياله من اله يناسب المصريين ! ولتعلموا أن سخريتكم مني ستكلفكم كثيرا » وما أن انتهى من

(١) يظن أن ابيس هو صورة روح أوزيريس ، وهو الشعار المقدس لذلك الاله• ولكنه يصور أحيانا في صورة رجل ذى رأس ثور •

قوله هذا ، حتى أمر بعض رجاله المختصين(١) ، بأن يجلدوا الكهنة • واذا وجدوا أى مصرى يحتفل بمجىء ذلك الاله ، فليقتلوه • وهكذا أوقفت الولائم فى جميع أرجاء مصر ، وقاسى الكهنة العذاب واذ جرح أبيس فى فخذه ، بقى راقدا فى المعبد فترة من الوقت يتلوى ويئن من الالم ، ثم مات بسبب ذلك الجرح • فدفنه الكهنة سرا دون علم قمبيز •

يقول المصريين ، ان قمبيز الذى لم يكن متزن العقل ، أصيب بعد ذلك بالجنون جزاء جرمه • فكانت أولى نوبات جنونه أنه قتل شقيقه • سميرديس Smerdis الذى أمره قمبيز بالعودة ثانية من مصر الى فارس ، بدافع الحسد ، لانه استطاع أن يجذب وتر القوس التى أحضرها التراجمة من اثيوبيا (والتى لم يستطع أى فرد من الفرس الآخرين ان يثنيها) مسافة قيراطين • فلما رحل سميرديس الى فارس ، رأى قمبيز حلما فى نومه ، خيل اليه أن رسولا جاءه من فارس وأخبره بأن سميرديس تبوأ عرش المملكة وطاول برأسه السماء • فخاف قمبيز على نفسه وتصور انه من الممكن جدا أن يقتله شقيقه ويحكم المملكة بدله ، فأرسل بريكساسبيس الذى كان يثق به أكثر من سائر الفرس ، وأمره بأن يقطع رأس سميرديس • ويقول البعض أنه قتله فى حين كانا يصيدان معا • ويقول آخرون انه صحبه الى الخليج الفارسى وأغرقه هناك •

يقال ان هذه كانت أولى نوبات جنونه • أما النوبة الثانية فجاءته عندما قتل اخته التى صحبته الى مصر ، وعاشت معه كزوجته برغم انها كانت شقيقته (٢) ، ابنة كل من أبيه وأمه • واليك كيف اتخذ قمبيز شقيقته زوجة له : لم يكن من عادة الفرس قبل عصره أن يتزوجوا أخواتهم ، أما

---

(١) يستخدم الفرس ، شأنهم شأن الاتراك وغيرهم من الأمم الشرقية ، أشخاصا مهمتهم الضرب والجلد وتنفيذ غير ذلك من صنوف العقاب . وان معاملة المصريين لأعدائهم لتختلف تمام الاختلاف عن معاملة غيرهم من شعوب الشرق القدماء . لانهم لم يفعلوا أكثر من قطع أيدى القتلى ، ووضعها في «أكوام» أمام الملك (الملوك ١٠ ، ٨ وصموئيل ١٨ ، ٢٧) لمعرفة عدد قتلى العدو . واذا أجبر أسراهم على العمل ، فانما كان هذا من شروط الابقاء على الحياة في العصور الغابرة . ولم نرهم قط يوقعون العذاب المنظم بأعدائهم ، ولا يسومونهم أية قسوة أكثر من معاملة فظة من جانب جندى جاهل . ومثل هذا الامر معروف في حروب أوروبا المسيحية .

(٢) كان مسموحا للمصريين بأن يتزوجوا أخواتهم من نفس الاب والأم ، ويحرم قانون ليفيت Levit الزواج بالأخت سواء أكانت من الاب أو من الام . أما في عصور البطريركية فكان يجوز للرجل أن يتزوج أخته اذا كانت من أبيه فقط (التكوين ٢٠ ، ١٢) . والعادة المصرية احدى العادات التى أشير اليها في ليفيت ١٨ ، ٣

قمبيز ، فاذ وقع فى غرام احدى اخواته وأراد أن يتزوجها ، وكان يعلم أن هذا مخالف للتقاليد الفارسية ، جمع القضاة الملكيين وسألهم : «عما اذا كان هناك قانون يسمح للأخ بأن يتزوج أخته متى أراد ذلك ؟» وكان أولئك القضاة الملكيون نخبة منتقاة من بين الشعب الفارسى ، يشغلون منصب القضاء طيلة حياتهم الا اذا اتهم أحدهم بما يخل بالشرف ، وبوساطتهم يقام العدل فى فارس • كما أنهم هم الذين يفسرون القوانين القديمة ، والى حكمهم تترك جميع المنازعات • فلما ألقى قمبيز عليهم هذا السؤال ، أجابوه اجابة فيها صدق وفيها أمان فقالوا : «انهم لم يجدوا قانونا ما يجيز للأخ أن يتزوج أخته ، ولكنهم وجدوا قانونا يجيز لملك فارس أن يفعل مايشاء » • وعلى هذا لم يخرقوا القانون خوفا من قمبيز ، ولم يضروا أنفسهم بالتمسك الشديد بحرفية القانون ، بل أوجدوا قانونا واضحا تمام الوضوح يفى بطلب الملك ، ويحقق له رغبته (١) وبناء عليه تزوج قمبيز من موضوع غرامه(٢) ، ولم يلبث طويلا الا وتزوج أختا أخرى ، كانت صغرى هاتين الزوجتين ، وهى التى ذهبت معه الى مصر حيث لقيت الموت على يديه •

تحكى روايتان مختلفتان عن موت هذه الزوجة وموت سمرديس • فتقول الرواية الاغريقية ان قمبيز أطلق جروا ليقاتل شبل لبؤة ، وكانت زوجته تراقب ذلك القتال • فتغلب الشبل على الكلب ، فما كان من كلب آخر الا أن قطع سلسلته وجرى لنجدة أخيه ، وعندئذ قاتل الكلبان معـا الشبل وهزماه • فسر قمبيز من تلك الحركة أيما سرور • أما أخته التى كانت جالسة معه ، فأذرفت الدموع • فلما رآها قمبيز على تلك الحال ، سألها عما يبكيها ، فأجابته بأنها عندما رأت الكلب الصغير يهب لنجدة أخيه، تذكرت سمرديس الذى لم يكن له من يساعده •• ويقول الأغارقة انقمبيز قتلها بسبب كلامها هذا •

---

(١) لا حاجة الى التنويه بمشابهة وجهة نظر القانون الفارسي المذكور هنـا والقانون الذى أوجده دان ، الباب السادس ، وهو : « لا تغيير في قانون الميديين والفارسيين » •

(٢) كانت هذه الاخت هى أتوسا والدة كسيركسيس التى كانت زوجـة قمبيز ، وسميرديس الكاذب ، وداريوس هوستاسبيس على التعاقب •

الفصل الحادى والعشرون

جنون قمبيز

هكذا كان جنون قمبيز حيال أقاربه • ولست أدرى أكان هذا الجنون بسبب مافعله مع أبيس أو بسبب آخر من الاسباب الكثيرة التى تنشأ عنها المصائب • ويقولون انه كان مصابا منذ ولادته بمرض مريع يسميه البعض «المرض المقدس»(١) وعلى ذلك لايكون غريبا بأية حال أن تأثر عقله بدرجة ما • وقد عرفنا أن جسمه كان يعمل وهو مصاب بذلك المرض •

كان قمبيز مجنونا أيضا حيال الأغراب ، علاوة على جنونه حيال أقربائه • ومن بين أولئك الأغراب بريكساسبيس ، الرجل الذى كان يقدره قمبيز أكثر من سائر الفرس وهو الذى كان يحمل رسائله ، والذى عين ابنه فى منصب «حامل الكأس» ، وهو منصب غير قليل الشأن فى فارس • ويقال ان قمبيز سأله ذات مرة بقوله : يابريكساسبيس ، أى نوع من الرجال يظننى الفارسيون؟ وماذا يقولون عنى؟ فأجابه بريكساسبيس قائلا: «مولاى ! ان القوم ليثنون عليك أجمل الثناء فى كل شىء الا شيئا واحدا ، يقولون أنك مولع أشد الولع باحتساء الخمر » هكذا أخبره بريكساسبيس بحكم الشعب الفارسى عليه • عندئذ ثارت ثائرة قمبيز وأرغى وأزبد وقال: «ماذا ؟ أيقولون اننى أفرط فى شرب الخمر ، ولذا فقدت احساسى وجننت! اذن فقد كانت خطبهم السابقة عنى كاذبة» • وذات مرة عندما كان الفارسيون جالسين معه ، وكان كرويسوس جالسا قريبا منهم ، سألهم

(١) المرض المعروف بهذا الاسم هو الصرع ، كما يتضح من كتاب أبوقراط بعنوان «عن المرض المقدس» ولا يزال الايطاليون يطلقون عليه اسم Maljenedetto « أى المرض المقدس » • ويعتبر هذا المرض من أصل مقدس بسبب نوباته الفاجئة وطبيعته المفزعة •

قمبيز : « أى نوع من الرجال يظنــونه لو قورن بأبيــه كوروس ؟ ، فأجابوه : « بأنه يفوق أباه لانه صار ملـــكا على كل ما كان يحكمـــه والده ، وزيادة على هذا فقد جعل نفسه ســيدا على مصر وعلى البحر » . وكان كرويسوس بقربه ، وإستاء من تلك المقارنة فقال لقمبيز : لست من هذا الرأى ياأبن كورومى . اذ أرى أنكلاتعادل اباك لانك لم تخلف وراءك ابنا كهذا الذى خلفه أبوك » . فسر قمبيز لسماع هــذا الرد ، وأثنى على حكم كرويسوس .

تذكر قمبيز هذه الاجابات فتحدث الى بريكساسبيس بخشونة قائلا: احكم بنفسك الآن ، يا بريكساسبيس . اما أن الفرس يقولون الصدق ، واما انهم ليسوا هم المجانين حتى يقولوا ماصدر منهم . انظر ، هاهو ابنك واقف الآن فى هذه الردهة ، فاذا سددت الرماية اليه وأصبته فى وسط قلبه كان من الجلى أنه ليس لدى الفرس مايبرر قولهم . وان أخطأته اعترفت بأن الفرس على حق وانني مجنون». وما ان انتهى من قوله حتى أمسك قوسه وجذب وترها الى نهايته واطلق سهما أصاب الغلام فسقط فى الحال قتيلا. بعد ذلك أمر قمبيز بشق صدر الجثة وفحص الجرح فلماوجدأنالسهم قد اخترق القلبسر سرورا بالغا، وقال للوالد وهو يضحك : «والآن هاأنت ترى يابريكساسبيس انني لست أنا المجنون ولكن الفرس هم المجــانين ، اذ فقدوا احساساتهم ، أرجوك أن تخبرنى الآن ، هل رأيت قط أحدا من البشر يطلق سهما بدقة أفضل من هذه ؟ » فلما رأى بريكساسبيسأن الملك ليس متمالكا لقواه العقلية ، خشى على نفسه فأجاب قائلا : «مولاى لاأظنأن الاله نفسه يستطيع أن يرمى سهما بهذه المهارة» . هذه هى الحماقة التى ارتكبها قمبيز فى ذلك الحين . وفى حين آخر ، أخذ اثنى عشر رجلامن أعظم نبلاء الفرس ، ودفنهم حتى أعناقهم دون أن يقترفوا اثما او يتهمهم بشىء .

عندئذ رأى كرويسوس الليدى انه من الحكمة أن يحذر قمبيز عاقبة أفعاله ، فقال له : «أيها الملك ، لاتسمح لنفسك بالتمادى فى نزقالشباب وفى حمية طباعك ، ولكن اكبح جماح نفسك واقبض على زمامها . فمن الخير للمرء أن ينظر الى العواقب ، وفى التروى حكمة حقة . انك تقبض على الرجال من مواطنيك وتعدمهم بغير سبب ولا شكوى ، وتقتل حتىالاطفال، ترو الآن ، وفكر فى نفسك ، هل اذا استرسلت فى مثل هذه الاعمال،ألا يمكن أن يثور الفارسيون ضدك ؟ انني أقدم لك النصح تبعا لرغبة والدك لقد أمرنى وشدد فى الامر بأن أنصحك كلما رأيت هذا فى صالحك » . وبطبيعة الحال لم يقصد كرويسوس من نصحه قمبيز الا مجرد الاشــفاق الودى . غير أن قمبيز رد عليه بقوله : « أتزعم أنك تسدى الى النصح ؟ وفر

على نفسك هذا النصح لتحكم به مملكتك اذا قدر لك أن تكون ملكا • وبهذه النصائح الحكيمة التى أسديتها الى والدى كوروس ، عندما أشرت عليه بعبور نهر أراكسيس ومحاربة الماساجيتيين فى بلادهم فى الوقت الذى أرادوا أن يأتوا فيه الى بلادنا ، جلبت الخراب على والدى كوروس بتلك المشورة السيئة • أما الآن ، فلن تفلت من العقاب لاننى من مدة طويلة أنتظر فرصة لأتمسك عليك بخطأ» • وبينما كان قمبيز يقول ذلك الكلام ، سحب قوسه ليقتل بها كرويسوس • بيد أن كرويسوس جرى بسرعة وهرب • فلما رأى قمبيز أنه لم يستطع قتل كرويسوس بقوسه ، أمر خدمه بأن يقبضوا عليه ويقتلوه • ولكن الخدم الذين كانوا يعرفون طباع سيدهم حق المعرفة ، رأوا من الأوفق أن يخفوا كرويسوس الى أن تهدأ ثورة قمبيز ويسأل عنه ، وعندئذ يمكنهم احضاره والحصول على جائزة نظير انقاذهم لحياته • أما اذا لم تلن قناته ولم يندم على فقده ،استطاعوا أن يقتلوه وقتذاك • والحقيقة أنه لم يمض وقت طويل حتى ندم قمبيز على فقده كرويسوس • فلما رأى الخدم هذا منه ، أخبروه بأن كرويسوس لايزال حيا • فقال لهم : « اننى لمسرور من بقاء كرويسوس على قيد الحياة • أما أنتم يامن أنقذتم حياته ؟ فلن تفلتوا من انتقامى وسأعدمكم جميعا » • وفعلا نفذ وعيده •

اقترف قمبيز فى نوباته الجنونية كثيرا من الحماقات ضد كل من الفارسيين والحلفاء وهو لا يزال مقيما فى ممفيس•ومن بين تلك الحماقات أنه فتح الاضرحة وفحص جثث من دفنوا فيها • كذلك ذهب الى معبد فولكان وأخذ يرمى التمثال القائم هناك بعدد لا يحصى من السهام ، لان تمثال فولكان يشبه الى حد كبير تمثال باتايكى الذى يبجله الفينيقيون اذ يزينون به حيازيم سفنهم الحربية ، واذا تعذر على القراء أن يفهموا ذلك شرحته لهم بطريقة أخرى — انه تمثال يشبه التماثيل الصغيرة •كما ذهب قمبيز الى معبد الكابيرين المحرم دخوله على أى شخص سوى الكهنة • ولم يكتف قمبيز بأن رمى التماثيل هنا بالسهام ، بل وأحرقها أيضا • وقد صنعت تلك التماثيل على صورة تمثال فولكان الذى يقال انه أبوها جميعا •

اذن ، يبدو لى من المؤكد أن قمبيز قد أصابته لوثة من الجنون • يؤيد هذا عدد كبير من الأدلة ، والا لما أقدم على انتهاك حرمة الطقوس المقدسة والتقاليد المتبعة منذ غابر الأزمنة • اذ لو خير المرء الناس بأن يتبعوا من العادات ما يرونه أصلحها ، لدرسوا جميع العادات واستقر رأيهم أخيرا على أن عاداتهم تفوق ماسواها من العادات الاخرى بمراحل •

اذن فلا يقدم المرء على العبث بمثل هذه الامور الا اذا كان مجنونا • وهناك كثير من البراهين على أن الشعوب تشعر بهذه الاحساسات • ومن هذه البراهين : بعد أن تبوأ داريوس عرش المملكة ، استدعى الى حضرته بعض الاغارقة الموجودين ، وسألهم : « أى مبلغ من المال أستطيع أن أدفعه لكم حتى تأكلوا جثث آبائكم بعد موتهم ؟ » فأجابه الاغريق بأنه لا يوجد مبلغ من المال ، مهما عظم ، يستطيع اغراءهم على مثل ذلك الشيء • ثم راسل داريوس يطلب أن يحضر اليه بعض الهنود من الجنس الكالاتياني وهم قوم يأكلون جثث آبائهم ، وسألهم : « كم أدفع لكم لتحرقوا جثث آبائكم بعد موتهم ؟ » فصاح الهنود بصوت مرتفع طالبين منه أن يحسن لغته • هذه هى عادات الانسان • وان بندار Pindar لعلى حق عندما قال : « القانون ملك الجميع » •

الفصل الثانى والعشرون

****

أسطورة بوليقراط

بينما كان قمبيز يحارب فى مصر ، أرسل اللاكيدايمونيون قوات أيضا لمحاربة بوليقراط ابن أياكيس ، الذى ثار على السلطات القائمة بتلك الجزيرة وجعل نفسه ملكا عليها · وفى بدء حكمه قسم المملكة الى ثلاثة أقسام ، واقتسم الحكم فيها مع أخويه بانتاجنوتوس وسولوسون غير أنه بعد ذلك قتل أخاه الأول ونفى الثانى الذى كان الاخ الاصغر ، وسيطر هو على حكم الجزيرة كلها · وعند ذلك عقد محالفة صداقة مع أماسيس ملك مصر · فأرسل اليه الهدايا ، وتلقى منه هدايا أخرى بدلا منها وما هى الا فترة وجيزة حتى اتسع سلطانه أيما اتساع ، حتى بلغت شهرته البلاد الخارجية فوصلت الى أيونيا والى بقية بلاد الاغريق · فأينما أدار ذراعيه يجد النجاح فى انتظاره وكان يملك أسطولا يتكون من مائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجاديف ، كما كان لديه ألف مقاتل بالقسى والسهام· ولذلك كان يهجم على كل بلد ، لا يفرق بين صديق وعدو ، اذ كان يقول ان الصديق ليسره أن ترد اليه ما أخذته منه أكثرمما لو تركته دون غزو· فاستولى على كثير من الجزر وعلى عدة مدن من القارة نفسها · ومن أعماله الاخرى انه هزم الليسبيين فى موقعة بحرية عندما جاءوا بجميع قواتهم لمساعدة ميليتوس ، وأسر كثيرا منهم وقيدهم بالاغلال الثقيلة ثم جعلهم يحفرون الخندق المحيط بقلعة ساموس ·

لم يفت أماسيس ما ناله بوليقراط من حظ بالغ السعادة · وكان أماسيس خطرا عظيما يهدد سلامة بوليقراط · فلما استمر نجاح بوليقراط فى اطراد ، كتب اليه أماسيس الخطاب التالى وأرسله الى ساموس : « يقول أماسيس لبوليقراط : انه لمما يبهج الانسان أن يسمع بازدهار ونجاح صديق وحليف له · بيد أن نجاحك المنقطع النظير لم

يبهجنى ، لأن الآلهة ـ كما أعلم ـ شديدة الحسد وانى لأتمنى لنفسى ، ولمن أحبهم أن يكون النجاح حليفنا حينا ، ونلقى الاخفاق حينا آخر . وبذا نمر فى الحياة بفترات من الخير والشر ، أفضـــل من حسن الحظ المستمر . فلم أسمع قط عن شخص كان ناجحا فى جميع مشاريعه ، ولم تصادفه كارثة فى النهاية يكون فيها خرابه الشامل . وعلى هـذا ، أعر كلامى الآن آذانا صاغية ، وقابل حظك الحسن بهذه الطريقة : « تأمل فى قرارة نفســك ، أى كنوزك أنفس عندك ولا يمكنك احتمال ضياعه ، خذه ، مهما بلغت قيمته ، واقذف به فى موضع تكون واثقا تماما من أنه لن تقع عليه فيه عين انسان مرة أخرى . واذا لم يقترن حظك الحسن بالنحس بعد ذلك فجنب نفسك بالأذى بأن تكرر ثانية ما نصحتك بفعله» .

لما قرأ بوليقراط خطاب أماسيس ، وأدرك حكمة هـذه النصيحة ، شرع يتأمل بامعان فى كنوزه ؛ وعرف أيها يحزنه كثيرا أن يفقده . وبعد تفكير طويل ، استقر رأيه على أن خاتمه الذى اعتاد أن يوقع به امضاءه ، ويلبسه فى أصبعه ؛ هو أنفس كنز لديه . وكان هذا الخاتم عبارة عن فص من الزمرد داخل اطار من الذهب (١) ، صنعه ثيورد بن تيليكيس السامى . وبناء عليه قرر أن يرمى ذلك الخاتم . فركب سفينة ذات خمسين مجدافا ؛ وأمر البحارة بالاقلاع الى عرض البحر . فلما صار على مسافة بعيدة من الجزيرة خلع الخاتم من أصبعه وقذف به الى الاعماق أمام جميع من كانوا على ظهر تلك السفينة . وبعد أن فعل هذا ، عاد الى قصره وأظهر الحزن على ضياع ذلك الخاتم .

حدث بعد خمسة أو ستة أيام أن اصطاد أحد الصيادين سمكة خالها لا تصلح الا أن تكون هدية للملك ولذلك حملها وذهب بها الى باب القصر وطلب مقابلة بوليقراط ؛ فسمح له بالدخول ، فأعطاه الصياد الســمكة وهو يقول : « مولاى الملك ؛ لقد وهبنى الله هذه الجائزة فجال بخاطرى ألا أذهب بها الى السوق رغم أننى رجل فقير أعيش من مهنتى فقلت لنفسى : ان هذه السمكة لا تصلح الا لمولاى بوليقراط وعظمته . ولذا أحضرتها الى هنا لاقدمها لكم » . فسر الملك من كلامه ، وقال له : « ما فعلت الا حسنا ، وانى لمدين لك بدينين ، دين هذه الهدية والآخر من أجل هذا الكلام . تعال ، اذن وتناول طعام العشاء معى الليلة » . فذهب الصياد الى بيته واعتقد أنه

---

(١) أخذ العرب قصة الصياد والخاتم من هذه القصة بعــد أن غيروا فيهـا بعض الشيء .

شرف عظيم أن يتعشى مع الملك • وفى تلك الاثناء ، بينما كان الخـدم ينظفون بطن السمكة اذ وجدوا فيه خاتم سيدهم • فما أن أبصروه حتى أسرعوا الى بوليقراط والبشر باد على وجوههم ، وأعادوا الخاتم اليـه وأخبروه فى أى موضع وجدوه • فرأى الملك فى تلك المسألة تدخلا الهيا فكتب خطابا الى أماسيس يخبره بكل ماحدث ، وأوضح له ما فعله وما آل اليه الامر ـ ثم أرسل الخطاب الى مصر •

عندما قرأ أماسيس الخطاب الذى جاءه من بوليقراط ، أدرك أنه ليس بوسع الانسان أن ينقذ زميله من المصير المقدر له • كما أدرك سوء عاقبة بوليقراط اذ نجح وازدهر فى كل شىء ، حتى فى استعادة ما رماه • وعلى ذلك بعث رسولا الى ساموس وألغى معاهدة الصـداقة التى كانت بينهما • فعل هـذا ، حتى اذا ما حلت الضربة القاضـية ببوليقراط ، استطاع اجتناب الحزن الشديد لمصيبة صديق ارتبط معه بمعـاهدة صداقة •

الفصل الثالث والعشرون

****

وفــاة قمبيز

بينما كان قمبيز فى مصر ابان فترة جنـــونه ، ثار ضـــده أخوان مجوسيان • أحدهما ، كان قمبيز قد وكل اليه الاشراف على شئون قصره فى فارس • وهذا هو الذى بدأ بالتمرد فاذ كان عارفا أن قمبيز قد قتل أخاه سميرديس ، وأن موته أخفى عن الشعب الفارسى ولا يعلم به منهم سوى فئة قليلة ، بينما يعتقد معظمهم أنه لا يزال حيـا ، انتهز هـــذه الفرصة وقام بمحاولة جريئة للوصول الى التاج ••• كان له أخ ــ نفس الأخ الذى سبق أن قلت أنه شريكه فى التمرد ــ وقد شاءت الصدف أن يشبه الى حد كبير سميرديس بن كوروس الذى قتله أخـوه قمبيز • ولم يشبه سميرديس فى صورته فحسب ، بل فى اسمه كذلك • أى انه كان يدعى سميرديس أيضا • فحثه باتيزيثيس ، المجوسى الآخر ، على القيـام بالدور كله • فأخذه وأجلسه على عرش المملكة • وبعد أن فعـــل هذا ، أوفد رسلا الى جميع البلدان • الى مصر والى كل موضع آخر ، يعلنون الجيوش بأن عليهم منذ ذلك الوقت فصاعدا أن يطيعوا أوامر سميرديس ابن كوروس ، وليس قمبيز •

بنـــاء على ذلك قام الرسل بمهمتهم وأعلنوا الجيوش كما أمروا • كذلك فعل الرسول الذى أوفد الى مصر • فلما وصل هذا الرسول الى أجباتانا فى سوريا ، وجد قمبيز مع جيشه هناك • فذهب من فـوره الى وسط الجيش مباشرة ، ووقف أمامهم جميعا وأعلن عليهـــم ما أمره به باتيزيثيس المجوسى • فما أن سمع قمبيز هذا الاعلان حتى اعتقد بصحة ما قاله الرسول ، وظن أن بريكساسبيس قد خدعه (أى حسبه لم يقتل سميرديس عند ما أرسله الى فارس) ، فحول بصره نحو بريكساسبيس وقال له : «أهذه هى الطريقة التى تنفذ بها أوامرى ، يا بريكساسبيس؟»

فأجاب الآخر قائلا : « مولاى ، لا صحة للانباء القائلة بأن أخاك سميرديس قد ثار ضدك • كما أنه لن يتسرب الى نفسك أى خوف من قيام أية حرب مع ذلك الرجل ، سواء أكانت الحرب عبارة عن قتال كبير أو صغير • فقد نفذت أمرك فيه بيدى • وبيدى دفنته • فان جاز للموتى أن يخرجوا من قبورهم ، فتوقع أن يثور ضدك استياجيس الميدى ، ويحاربك • بيد أنه اذا سارت الامور حسب ناموسها الطبيعى الذى ألفناه فى الماضى ، فكن على يقين من أنه لن يصيبك ضر من هذه الناحية وانى لأنصح الآن بأن نرسل فى أعقاب هذا الرسول من يقبض عليه ، ثم نسأله ونشدد عليه فى السؤال لمعرفة من الذى كلفه بأن يأمرنا باطاعة الملك سميرديس » •

ما أن انتهى بريكساسبيس من كلامه حتى استصوب قمبيز مشورته ، وأرسل فى مطاردة ذلك الرسول فقبض عليه وجىء به الى الملك فقال له بريكساسبيس : « أيها السيد ، لقد حملت الينا رسالة وقلت انها من سميرديس بن كوروس • اذن ، فلترد على سؤالى بغاية الصراحة ، ثم تنصرف فى طريقك دون أن يصيبك أى أذى : هل مثلت فى حضرة سميرديس وأصدر اليك هذه الاوامر بنفسه ، أم تلقيتها من أحد موظفيه ؟ » فأجاب الرسول يقول : « الحقيقة أن عينى لم تقعا على سميرديس بن كوروس منذ أن قاد الملك قمبيز الفرس الى مصر • أما الذى أصدر الى هذا الأمر فهو الرجل المجوسى الذى تركه قمبيز مشرفا على ادارة قصره ، اذ قال لنا : ان سميرديس بن كوروس يبعث اليكم بهذه الرسالة» لم ينطق الرسول فى كلامه هذا بغير الحقيقة الحرفية • عند ذلك قال قمبيز لبريكساسبيس: « ها أنذا برىء الآن من كل لوم ، يا بريكساسبيس لانك نفذت أمرى كرجل مخلص • ولكن خبرنى الآن ، من من الفرس يمكن أن يكون قد انتحل اسم سميرديس وتألب ضدى ؟ » فأجابه بقوله: « أعتقد يا مولاى ، اننى فهمت سر المسألة كلها • ان اللذين ثارا ضدك هما المجوسيان ، باتيزيثيس الذى وكلت اليه الاشراف على قصرك، وأخوه الذى يدعى سميرديس •

ما أن سمع قمبيز اسم سميرديس حتى أدرك لتوه صدق كلام بريكساسبيس ، وتحقيق الحلم الذى رآه هو نفسه فى منامه – أقصد الحلم الذى رآه فيما مضى ، من أن شخصا ظهر له فى نومه وأخبره بأن سميرديس جلس على عرش المملكة ، وطاول برأسه السماء فلما رأى أنه قتل أخاه دون ذنب ولا جريرة ، بكى وحزن على فقده اياه • بعد ذلك استشاط غيظا وهو يفكر فى حظه العاثر ، فقفز بسرعة الى ظهر جواده، معتزما السير بجيشه بغاية السرعة الى سوسى ، لمقاتلة ذلك المجوسى •

وبينما هو يقفز سقط رباط غمد سيفه ، فدخلت سن السيف العارية فى فخذه وجرحته فى نفس الموضع الذى جرح فيه الاله المصرى أبيس . فلما أحس قمبيز بأنه أصيب بجرح الموت ، سأل عن اسم البلد الذى هو فيه ، فقالوا له انه « أجباتانا » . وكان وحى بوتو قد أخبره من قبل بأنه سيقضى آخر أيامه فى أجباتانا . فظن أنه سيموت فى مدينة أجباتانا السورية . وعلى ذلك ، عندما سمع قمبيز اسم ذلك المكان ، أرجعته الصدمة المزدوجة الى صوابه : الصدمة التى أصابته عندما علم بثورة المجوسى ، وصدمة جرحه . وبناء على كل هذا ، أدرك الآن قصد الوحى ، فقال : « اذن ، فقد قدر لقمبيز بن كوروس أن يموت هنا » .

فلما رأى الفرس ملكهم يبكى ، مزقوا ثيابهم التى كانوا يرتدونها ، وصاحوا مولولين بعد ذلك ، واذ تعفن العظم وسرت الغنغرينا فى الفخذ ، مات قمبيز بن كوروس . وقد ظل فى الحكم سبع سنوات وخمسة شهور ، ولم يترك وراءه ذرية من البنين ولا من البنات . ولم يثق رجال الفرس الذين سمعوا كلامه ، فى شىء مما قاله فيما يتعلق بأن القابض على زمام الحكم رجل مجوسى . ولكنهم اعتقدوا بأنه انما يقول هذا حقدا على أخيه سميرديس ، وأنه اخترع قصة موته لتثور ضده جميع الأمة الفارسية بقوة السلاح . وهكذا كانوا متأكدين من أن سميرديس بن كوروس هو الذى ثار ضد قمبيز وتبوأ العرش ، لان بريكساسبيس أنكر انكارا باتا انه قتل سميرديس ، اذ من الخطر عليه ، بعد موت قمبيز ، أن يعترف بأن سميرديس بن كوروس قد لقى حتفه على يديه .

مات قمبيز ، وحكم المجوسى آمنا ، متخذا شخصية سميرديس بن كوروس . وهكذا حكم الشهور السبعة التى تكمل السنة الثامنة من حكم قمبيز . وفى مدة حكمه نال رعاياه خيرا كثيرا على يديه ، حتى انه عندما مات حزن عليه جميع سكان آسيا ، حزنا بالغا ، ما عدا الفرس . لانه بمجرد أن جلس على العرش أرسل الى كل أمة خاضعة لحكمه يمنحها الاعفاء من الخدمة العسكرية ومن الضرائب لمدة ثلاث سنوات .

الفصل الرابع والعشرون

****

كيف ارتقى داريوس إلى العرش

فى الشهر الثامن لحكم سميرديس اكتشفت شخصيته بهذه الطريقه : كان بفارس رجل يدعى أوتانيس بن فارناسبيس ، لا يقل عن أى فارس آخر فى الجاه أو فى الثراء • وكان أوتانيس هذا أول من ساورته الشكوك فى أن ذلك المجوسى هو سميرديس بن كوروس حقيقة • فأخذ يستقصى عن حقيقة نسبه فرأى أن الملك لايغادر القلعة اطلاقا ، ولا يستدعى قط الى حضرته أى أحد من نبلاء الفرس • فساقه هذا الى الحدس بالحقيقة • وما أن بلغت شكوكه ذروتها حتى عمد الى الطريقة الآتية : كان له ابنة تدعى فايديما ، كانت زوجة لقمبيز ، ثم تزوجها ذلك المجوسى مع زوجات قمبيز الاخريات • فبعث أوتانيس رسالة الى ابنته هذه يطلب منها أن تخبره : «من يكون ذلك الذى تقاسمه الفراش — هل هو سميرديس بن كوروس ، أو هو رجل آخر ؟ » فردت عليه فايديما بأنها لا تعرف اذ لم يسبق أن رأت سميرديس بن كوروس ، ولذلك لا يمكنها أن تحكم على شخصية الرجل الذى تقاسمه الفراش • فأرسل اليها أوتانيس مرة ثانية، يقول : «اذا لم تكونى تعرفين سميرديس بن كوروس، أنت نفسك ، فاسألى الملكة أتوسا عمن يكون ذلك الرجل الذى تعيشان معه — فلا يمكن أن تجهل شقيقها » فأجابت الابنة بقولها : « لاأستطيع الوصول الى التحدث مع أتوسا ، ولا مع أية امرأة أخرى ممن يعشن فى القصر • فما أن استولى هذا الرجل ، على زمام الملك ، حتى فرق بين كل منا والاخرى، وخصص لكل واحدة حجرة منفصلة عن حجرة زميلتها » •

زاد هذا فى وضوح الموقف أمام أوتانيس • ومع ذلك فقد بعث برسالة ثالثة الى ابنته يقول فيها : « ابنتى ، انك من دم نبيل — ولن تحجمى عن القيام بعمل خطر يأمرك والدك بأن تقومى به • اذا لم يكن

هذا الرجل هو سميرديس بن كوروس ، وأنه هو الرجل الذى أظنـــه اغتصب الملك ، فلا يجب أن تمر جرأته فى اتخاذك زوجة له والحكم على الفرس ، دون أن يعاقب • وعلى هذا ، افعلى ما آمرك به ـ عنـدما يقضى الليلة معك ، انتظرى حتى تتأكدى من أنه قد استغرق فى النـــوم ؛ ثم تحسسى أذنيه • فان كان له أذنان فاعلمى أنه سميرديس بن كوروس • وان كان بغير أذنين ، فكونى على يقين من أنه سميرديس المجوسى• »فردت عليه فايديما تقول : « انه لمن الخطر الجسيم ، ان كان بغير أذنين؛وقبض عليها وهى تبحث عنهما • انها لتعلم علم اليقين أنه سوف يقتلها من أجل هذا ، مافى ذلك ريب ـ وبرغم هذا فستقوم بهذه المغامرة » • وهكذا حصل أوتانيس على وعد من ابنته بأنها ستقوم بما طلبه منها • كان سميرديس المجوسى قد قطعت أذناه فى عهد كوروس بن قمبيز عقـابا له على جريمة دنيئة • وعلى ذلك اعتزمت فايديما ابنة أوتانيس القيـــام بما وعدت به والدها عندما جاء دورها لتبيت فى فراش المجوسى (فى فارس ، تنام زوجات الرجل معه ، كل حسب دورها) • وبينما كانت بين أحضانه ؛ انتظرت حتى راح فى نوم عميق وتحسست أذنيه ؛ فاذا بها تجده بغـير أذنين • وما أن بزغ الفجر حتى أرسلت كلمة بهذا الى والدها •

بعد ذلك استدعى أوتانيس اليـــه اثنين من وجهاء الفرس ؛ هما أسباثينيس ، وجوبرياس • وهما رجلان يمكن الثقة بهما تماما فى مثل هذا الموضوع ، وأفضى اليهما بكل شىء • وكان هـذان من ناحيتهما قد ساورتهما الشكوك من قبل فى هذه المسألة • ولذلك ، عنـــــدما بسط أوتانيس قضيته وحججه اليهما ، انضما الى رأيه فى الحال ، واتفقـــوا ثلاثتهم على أن يختار كل واحد منهم لنفسه رفيقا فارســيا يثق به أعظم ثقة • فاختار أوتانيس انتافرنيس ، واختار جوبرياس ميجابوزوس • أما اسباثينيس فاختار هودارنيس فلما صار عددهم ستة تصادف أن وصل داريوس بن هوستاسبيس الى سوسا قادما من فارس حيث كان والده حاكمها • وعند مجيئه رأى الستة أنه من الخير أن يشركوه معهم فى ذلك الأمر •

واذ صار الرجال سبعة ، اجتمعوا معا ليحلفوا اليمين ويتحـــدثوا معا ، ويبسطوا وجهات النظر ـ فلما جاء دور داريوس فى الكلام ليفضى اليهم بما يجول فى خاطره قال : « كنت أظن أن لا أحد غـيرى يعرف أن سميرديس بن كوروس ليس على قيد الحياة الآن ، وأن سميرديس المجوسى هو الذى يحكمنا • وعلى ذلك أسرعت بالمجىء الى هنا لتدبير مقتل ذلك المجوسى • ولكن ، بما أن الامر ، كما يبدو ، معروف لكم جميعا وليس لى

وحدى ، فمن رأيى أن نعمل فى الحال دون أى تأخر • اذ التأخر يضر بخطتنا » • فقال أوتانيس : « يابن هوستاسبيس ! انك ابن أب شجاع ويليق بك أن تبدى أنك شجاع وجرىء مثله • غير أنه يجب أن تلتزم جانب الحذر فى هذا الامر • لا يجب الاسراع ، بل العمل بحزم• ينبغى أن نزيد عددنا قبل أن نضرب ضربتنا » فأجاب داريوس : « ليس الأمر كما ترى ، اذ يجب أن نعلم ، نحن الحاضرين هنا ؛ أننا ان أخذنا برأى أوتانيس فسنموت أشنع ميتة ؛ اذ سوف يفشى شخص ما خطتنا الى المجوسى طمعا فى الحصول على مكافأة مالية • كان يجب أن نحتفظ بالمسألة فيما بيننا ، ونقوم بالمغامرة وحدنا • ولكن بما أنك قررت أن تشرك معك آخرين وتطلعهم على هذا السر ، كما أطلعتنا عليه ؛ فانى أنصح بالقيام بالعمل اليوم ، واذا مر يوم واحد ولم تعملوا فتأكدوا من أننى لن أسمح لأحد بأن يشى بى لدى المجوسى ، بل سأذهب اليه بنفسى ؛ وأتهمكم جميعا علنا » •

لما رأى أوتانيس أن داريوس متحمس الى تلك الدرجة ، قال : « ولكن بما أنك تجبرنا على العمل اليوم دون أن تمهلنا يوما واحدا ، فأخبرنا بربك ، كيف ندخل الى القصر لنهجم عليه • ان الحراس ، كما تعلم ، فى كل مكان ـ فاذا لم تكن قد رأيتهم بعينى رأسك ، فلا بد أنك سمعت عنهم ـ فكيف يتسنى لنا أن ندخل وسط أولئك الحراس ؟ فأجاب داريوس : « يا أوتانيس ، هناك أشياء كثيرة سهلة عند التنفيذ بينما يصعب شرحها بالالفاظ • كما أن هناك أشياء سهلة عند الكلام ولا يتم بخصوصها أى عمل نبيل بعد الكلام • أما عن أولئك الحراس ، فانك تعلم اننا لن نجد صعوبة فى المرور من بينهم • ان رتبنا وحدها كفيلة بأن تجعلهم يسمحون لنا بالدخول ، أما الخوف والتردد فيحثانهم على رفض طلبنا • وعلاوة على هذا ، فان لى أقوى حجة فى الدخول ؛ اذ يمكننى أن أقول اننى رجعت الآن فقط من فارس ومعى رسالة من أبى يجب أن أفضى بها الى الملك • يجب على المرء أن يكذب عندما تقتضى الضرورة هذا • فلا يقول الناس لانهم يرون الكسب فى خداع الآخرين • ويقولون الصدق لانهم يأملون فى الحصول على شيء من قولهم الصدق ، كما أنهم يأملون فى أن يصدقهم الناس بعد ذلك فى أمور أكثر أهمية • وهكذا رغم تناقض سلوكهم فان الغاية واحدة فاذا لم تكن هناك مكاسب يسعى المرء وراءها فان الصادقين يكذبون بقدر ما يكذب الكذابون • ويصدق الكذابون بقدر ما يصدق الصادقون • فالحارس الذى يسمح لنا بالدخول بسهولة سيناله مكافأته يوما ما ، والويل لمن يقاومنا ، اذ يجب

أن نعتبره عدوا . فندخل أمامه بالقوة ، ونتخذ طريقنا ونذهب مباشرة لتنفيذ عملنا » .

بعد أن انتهى داريوس من كلامه هذا ، قام جوبرياس ، وقال : « أصدقائي الأعزاء ، متى تسنح لنا فرصة أنسب من هذه لاستعادة المملكة؟ وإذا لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية ، فلا أقل من أن نموت ونحن نحاول استعادتها . تصوروا أننا ، نحن معشر الفرس ، نخضع لحكم رجل ميدى مجوسى . وأى نوع من الرجال هو ؟ انه رجل قطعت أذناه ! كان بعضكم حاضرا وقمبيز راقد على فراش الموت ، تذكروا اللعنات الكثيرة التى صبها على الفرس ان لم يقوموا بمجهود لاستعادة المملكة . والحقيقة أننا لم نهتم كثيرا بما قاله ، لاننا خلناه يتكلم بدافع العداوة ليحثنا على الثورة ضد أخيه والآن ها أنذا أعطى صوتى للعمل بحسب نصيحة داريوس ، هيا ، سيروا كتلة واحدة الى القصر ، من القصر الذى نحن فيه الآن ، ومن ثم ننقض على ذلك المجوسى» . هكذا قال جوبرياس ، فاستحسن الآخرون رأيه .

بينما كان هؤلاء السبعة يتشاورون معا ، تصادف أن وقعت هذه الاحداث : كان المجوسيان يفكران فى خير ما يفعلانه . فاستقر رأيهما ، لعدة أسباب ، على أن يصادقا بريكساسبيس . كانا يعلمان كم أثاره قمبيز فى قسوة ، وقتل ابنه بسهم . كما كانا يعلمان انه هو الذى قتل سميرديس بن كوروس ، وانه الشخص الوحيد الذى يعلم سر مقتل ذلك الأمير . كذلك وجدا ان جميع الفارسيين ينظرون اليه نظرة احترام وتوقير ولذلك استدعياه الى حضرتهما واتخذاه صديقا لهما ، وجعلاه يرتبط بوعد ويقسم بالايمان المغلظة ألا يفشى التدليس الذى قاما به على الشعب الفارسى ، وألا يكشفه لأحد قط . وتعهدا هما أنفسهما بأن يعطياه فى تلك الحال آلاف الهدايا من كل نوع وصنف . وعلى هذا وافق بريكساسبيس . فلما رأى المجوسيان أنهما أفلحا فى اغرائه الى هذه الدرجة ، انتقلا الى اقتراح آخر ، وقالا انهما سيجمعان الفرس عند سور القصر ؛ وأن يصعد بريكساسبيس الى أحد الابراج ويخطب فى الشعب من ذلك المكان ، ويقول لهم ان الذى يحكمهم هو سميرديس بن كوروس ، ولا أحد سواه ، أمراه بأن يفعل هذا لان بريكساسبيس كان رجلا عظيم الشأن بين مواطنيه ، وكثيرا ما أعلن على الملأ أن سميرديس بن كوروس لا يزال حيا ، وأنكر أنه قتله .

أبدى بريكساسبيس استعداده لتنفيذ مشيئتهما فيما يختص بهذا الموضوع وعلى ذلك جمع المجوسيان الشعب وجعلا بريكساسبيس يصعد

الى قمة البرج ، وطلبا منه أن يلقى خطابه · غير أن بريكساسبيس نسى كل ما أوصاه به المجوسيان ، وبدأ خطبته بأخايمينيس ، وتسلل منه الى أن بلغ حكم كوروس · وعند ما وصل بعد ذلك بالتالى الى حكم هذا الملك عدد جميع الخدمات التى قدمها للفرس · ومن ثم أخذ يقرر الحقيقة التى أخفاها خوفا على حياته ، اذ كان فى اذاعتها خطر أى خطر بيد أن الضرورة اضطرته الآن الى أن يفشى كل شيء · فأوضح كيف أجبره قمبيز على قتل سميرديس بن كوروس ، وأن فارس يحكمها الآن رجلان مجوسيان · وأخيرا طفق يصب اللعنات الجمة على الفرس ان لم يعملوا على استعادة مملكتهم والانتقام من المجوسيين وبعد أن أفضى بكل هذا ، ألقى بنفسه رأسا من ذلك البرج الى الهوة أسفله · وهكذا كانت نهاية بريكساسبيس الذى كان رجلا ذائع الصيت بين الفرس طول حياته ·

الآن وقد اعتزم الفارسيون السبعة مهاجمة المجوسيين دون ابطاء، قدموا الصلاة أولا للآلهة ، ثم انطلقوا صوب القصر ، ولم يكونوا يعلمون بعد بما فعله بريكساسبيس وبينما هم فى الطريق الى القصر ، بلغتهم تلك الأنباء بعد أن قطعوا حوالى نصف المسافة الى القصر · وعلى ذلك انتحوا جانبا ، بعيدا عن الطريق وتشاوروا فيما بينهم ، فقال أوتانيس وحزبه أنه يجب عليهم أن يرجئوا هذا الامر الآن ، وألا يقوموا بالهجوم · والاحوال فى مثل ذلك الغليان ، وأما داريوس وأتباعه فكان رأيهم ضد أى تغيير فى الخطة، ورغبوا فى التوجه مباشرة، وعدم اضاعة أية لحظة . وبينما هم فى مناقشات وتشاحن اذ رأوا فجأة زوجين من النسور تطاردهما سبعة أزواج من الصقور · فمزقت الصقور النسور بمخالبها ومناقيرها · فلما أبصر السبعة هذا المنظر وافقوا بصوت واحد على رأى داريوس · واذ شجعهم هذا الفأل ، أسرعوا بالانطلاق الى القصر ·

قوبل هؤلاء الرجال عند الباب كما كان داريوس يتوقع · فقد سمح لهم الحراس الذين لم يشكوا فى أن وجهاء الفرس قد جاءوا لارتكاب جريمة ، بالدخول دون أية صعوبة — يبدو أنهم كانوا فى حراسة خاصة من الآلهة — ولم يتقدم حارس واحد حتى ليسألهم أى سؤال · فلما وصلوا الى القاعة الرئيسية ، التقوا ببعض الخصيان الذين كانت مهمتهم حمل الرسائل من الملك واليه · فأوقفوهم وسألوهم عما يريدون ، بينما هددوا حراس الابواب فى الوقت ذاته ، للسماح لهم بالدخول · حاول السبعة الاستمرار فى طريقهم غير أن الخصيان منعوهم · فما كان من هؤلاء الرجال ، وقد شجع كل منهم الآخر بالعبارات الحماسية ، الا أن

استلوا خناجرهم وطعنوا بها كل من حاول الوقوف فى طـــريقهم ، ثم اندفعوا الى بيت الذكور ٠

فى ذلك الوقت كان المجوسيان كلاهما فى الداخل يتشاوران فى موضوع بريكساسبيس فلما سمعا الضجة مع الخصيان وصياحهم المرتفع ، أسرعا بالخروج هما أنفسهما لينظرا ما الخطب ٠ فلما أبصرا الخطـــر المحدق بهما ، جريا الى الاسلحة ٠ فاستطاع أحدهما أن يصل الى قوس ، وأمسك الآخر برمح ٠ وعندئذ بدأ القتال فى الحال ٠ فوجد الذى تسلح بالقوس أنها لا تجديه نفعا لان العدو كان على مسافة قريبة جدا لا تسمح باستخدام القوس ٠ أما المجوسى الآخر فقاتل برمحه قتالا عنيفا فجـــرح اثنين من السبعة ٠ أصاب أباثينيس فى ساقه ، وانتافيرنيس فى عينه ٠ بيد أن جرح انتافيرنيس لم يكن قاتلا ٠ ومع ذلك فقد كلفه فقد بصر تلك العين ٠ فلما رأى المجوسى الآخر أن قوسه عديمة الجدوى ، جرى هاربا الى حجرة توصل الى دار الذكور ، وأراد أن يقفل الباب خلفه ٠ غير أن اثنين من السبعة دخلا معه ، وهما داريوس وجوبرياس ٠ فأمسك هـــذا الاخير بالمجوسى وتصارع الاثنان على الارض بينما وقف فوقهما داريوس حائرا لا يدرى ماذا يفعل اذ كان الظلام حالكا فسأله جوبرياس : « فيم كسل يدك يا هذا » قال : « أخشى ان طعنت أن أصيبك بأذى » ٠ فقـــال جوبرياس : « اضرب ولا تخش شيئا حتى لو أصابت الضربة كلينا » ٠ فهوى داريوس بخنجره ، ولحسن الحظ قتل المجوسى ٠

هكذا قتل المجوسيان ٠ فقطع السبعة رأسيهما وتركوا جريحيهما فى القصر ، لانهما عجزا عن السير ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لكى يحرسا القلعة ٠ وخرجوا من الابواب يحملون الرأسين فى أيديهم ، وهم يصيحون محدثين جلبة وصخبا ٠ فصاحوا يخبرون الفرس باجتماعهم وما أسفر عنه ذلك الاجتماع ، وأبرزوا لهم رأسى المجوسين ٠ وفى نفس الوقت ، أخذوا يقتلون كل مجوسى يقع فى طريقهم ٠ فلما علم الفرس بما فعله السبعة ، وعرفوا خداع المجوسيين ، وجدوا من الصواب أن يقتدوا بالمثل الذى قدم لهم ٠ فاستلوا خناجرهم وأعملوا التقتيل فى المجوس أينما وجدوهم ٠ هكذا كان هياجهم ٠ ولو لم يخيم الليل بظلامه على الكون لما بقى هناك مجوسى واحد على قيد الحياة ٠ هذا ، ولا يزال الفرس جميعا يحافظون على ذكرى هذا اليوم ، ويحتفلون به أكثر من أى يوم آخر فى السنة كلها ٠ أصبحت هذه الذكرى عيدا عظيما يسمونه « عيـــد قتل المجوس » ، ولا يجرؤ أى مجوسى على الخروج من بيته طيلة هذا العيـــد ، بل يبقى بمنزله اليوم كله ٠

بعد مضى خمسة أيام على هذا الحادث ، وقد سكن الهياج ، اجتمع المتآمرون معا ليتشاوروا فى مصير الاحوال اذ ذاك • فألقيت الخطب فى ذلك الاجتماع • ولم يؤمن الاغارقة بصحة ما ورد فى كثير من تلك الخطب ، ولكنها برغم هذا قد ألقيت • فأشار أوتانيس باسناد ادارة الشئون العامة الى الشعب بأجمعه • فقال : « أما عن نفسى ، فيبدو لى أن من الصواب ألا نسلم مقاليد حكمنا الى شخص واحد ـ فليس حكم الفرد صالحا ولا سارا • انكم لا تنسون الى أى حد ذهب قمبيز فى كبريائه وطغيانه ، كما لا تنسون غطرسة هذين المجوسيين التى لمستموها أنتم بأنفسكم • أما حكم الكثرة فيمتاز أولا بأجمل الاسماء وهو : « حكومة السلطات المتكافئة » وفضلا عن هذا ، فهو بعيد عن كل الحماقات التى يرتكبها الملك المطلق السلطة • وتملأ كراسى الحكم فى هذه الحكومة بالاقتراع • فالحاكم مسئول عما يفعله، والتنفيذ موكول الى عامة الشعب• وعلى هذا ، أعطى صوتى فى جانب الغاء الملكية ورفع الشعب الى مناصب السلطة ، لان الشعب هو الكل فى الكل » •

هكذا كانت احساسات أوتانيس • فقام بعده ميجابوزوس، وخطب موصيا باقامة الاوليجاركيه أو حكم الاقلية ، فقال : « أشار اوتانيس فى كل ما قاله بالغاء الملكية ، وانى لأوافقه فى هذا تمام الموافقة • ولكنى لا أرى بوصيته بأن نعهد بالحكم الى الشعب ، خير مشورة • فما من شيء يخلو من التفاهم • ولا أحد أكثر شرورا من السوقة غير الخاضعين لنظام أو قانون ومن الحماقة غير المحتملة أن يسعى الناس الى الهروب من شرور ملك طاغية ، فيسلموا أنفسهم لشرور الطغام المطبوعين على الفظاظة وعدم الانقياد • فمهما فعل الطاغية فهو على الاقل عالم بما يفعله • أما الرعاع فجهلة لا يعرفون شيئا على الاطلاق• اذ أنى تكون هناك معرفة لدى العوام غير المتعلمين والعديمي الاحساس الطبيعى بما هو صواب ومناسب؟ سرعان ما نجدهم يندفعون للتدخل فى شئون الدولة اندفاع مجرى الماء المفعم بماء الشتاء ، وفى تلك الحال يربكون كل عمل• دعوا الديموقراطية تحكم أعداء فارس • أما نحن فلننتخب من بين مواطنينا عددا من الاكفاء، ونضع الحكم فى أيديهم • عندئذ نكون نحن أنفسنا بين الحكام ؛ وتكون السلطة قد وكلت الى خير الرجال • والأصلح الأوفق ، هو أن تسود أفضل المشورات حكومة الدولة » •

هذا هو ما نصح به ميجابوزوس • ثم قام بعده داريوس ، فقال : « ها قد أجاد ميجابوزوس فى كل ما قاله عن الديمقراطية على ما أظن • ولكنه لم يحسن الكلام عن حكم الاقلية• فلنأخذ الانواع الثلاثة للحكومات،

وهى : الديموقراطية ، والاوليجاركيه أو حكم الاقلية ، والملكية — ولنفرض أن كل حكومة منها فى خير أنظمتها عندئذ لا أرى الا أن تتفوق الملكية على الحكومتين الأخريين • وأية حكومة أفضل من حكومة خير رجل فى المملكة كلها ؟ فنصائح هذا الرجل خيرة مثله ، ولذا فهو يحكم جموع الشعب بما يرضى نفوسهم ، وفى نفس الوقت ، تبقى خططه حيال الاشرار فى طى الكتمان ، أكثر مما يحدث فى نوعى الحكومة الآخرين • ويحدث عكس هذا فى حكومة الاقلية حيث يتنافس الاشخاص فى خدمة الصالح العام • فيؤدى هذا الى خلق العداوات والاحقاد بين رجل وآخر ، واذ يريد كل منهما أن يكون القائد ؛ وأن ينفذ آراءه • ومن هنا تأتى المنازعات العنيفة ، التى تتطور الى تشاحن سافر غالبا ما ينتهى بسفك الدماء• ومن المؤكد أن تتحول الحكومة بعد ذلك الى الملكية • وعند ذاك تبرهن الملكية على أنها أفضل نظم الحكم • وكذلك الحال فى الديمقراطية • فلا بد فيها من سوء الادارة • بيد أن سوء الادارة هذا ، لايسوق الى العداوات ، بل الى الصداقات بين أطرافها ، الذين يجب أن يرتبط بعضهم ببعض ارتباطا وثيقا لتنفيذ دناءاتهم • وهكذا تستمر الاحوال على ذلك المنوال حتى يظهر رجل كصديق لعامة الشعب ، ويضرب على أيدى المفسدين • وسرعان مايعجب الجمهور بذلك الرجل ويعينه ملكا • وهكذا الحال هنا أيضا اذ يتضح أن الملكية هى خير أنظمة الحكومات • وأخيرا ، لكى نلخص الموضوع فى كلمة ، أسألكم : من أين نلنا الحرية التى نتمتع بها ؟ هل منحتنا اياها الديمقراطية أو الاوليجاركيه أو الملكية ؟ ولما كان رجل واحد هو الذى أعاد الينا حريتنا ، فان حكمى اذن ، هو أن نحافظ على حكم الفرد • وبصرف النظر عن هذا ، يجب ألا نغير فى قوانين آبائنا عندما نراها عادلة ، اذ لا يصح أن نحدث فيها تغييرا ما على الاطلاق • »

وهكذا كانت الآراء التى عرضت فى ذلك الاجتماع • أما الاربعة الفارسيون الآخرون فأعطوا أصواتهم فى صالح الرأى الاخير • فلما رأى أوتانيس ، الذى أراد أن يمنح مواطنيه حكومة ديمقراطية ، أن الاغلبية ضده ، نهض ثانية وقال هكذا أمام المجتمعين : «اخوانى المتآمرين ! من الجلى أن الملك الذى سينتخب ، سيكون أحدنا ، سواء اختير بالاقتراع أو انتخب عامة الشعب منا من يريدون أن يحكمهم ، أو بأية طريقة أخرى ، وبما أننى لاأعتزم أن أحكم أو أحكم ، فلن أرشح نفسى لهذا المنصب • سأنسحب على شرط واحد — وهو ألا يفرض أحدكم سلطانه على أو على أحد من ذريتى الى الأبد » • فوافق الستة الآخرون على هذا الشرط • وانسحب أوتانيس ، ولم يدخل فى المسابقة • ولا تزال أسرة أوتانيس ،

الى اليوم ، هى الاسرة الحرة الوحيدة فى فارس ، التى لايخضع افرادها لحكم الملك الا بحسب اختيارهم • ومع ذلك فمفروض عليهم أن يعملوا بقوانين البلاد شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الفرس •

تشاور الستة معا فى أنسب طريقة لاختيار الملك ، وفيما يختص بأوتانيس • فاذا نال أحد المملكة ، أعطى أوتانيس ونسله من بعده ، فى كل عام كعلامة شرف خاصة ، ثوبا ميديا وغيره من الهدايا المعتبرة أفخم هدايا شرفية فى فارس • قرروا منحه هذه الهدايا لانه أول من فكر فى المؤامرة ، وهو الذى جمع المتآمرين السبعة معا • ولذلك منحت هذه الامتيازات لاوتانيس بصفة خاصة • أما الامتيازات الآتية فهى عامة لجميعهم ، وهى : يمنح كل فرد منهم حرية الدخول الى القصر بغير اذن ، الا اذا كان الملك مع احدى زوجاته • وألا يسمح للملك بالزواج من أية أسرة خلاف أسرات المتآمرين • أما تعيين الملك فيكون بهذه الطريقة : يركب المرشحون الستة جيادهم فى صبيحة اليوم التالى ، ويخرجون الى ضواحى المدينة ، والذى يصهل جواده أولا بعد أن تشرق الشمس ، يعين ملكا •

كان لداريوس سايس عبد حاد الذكاء اسمه أيباريس • فبعد أن انفض الاجتماع ، أرسل داريوس فى طلبه ، وقال له : « اسمع يا أيباريس سينتخب الملك بهذه الطريقة : سنركب جيادنا ، ومن منا يصهل جواده أولا بعد أن تشرق الشمس ، فهو الذى سيحظى بالمملكة فان كنت ماهرا حقا ، فدبر حيلة يمكن أن تصير بها الجائزة من نصيبنا ، وليس من نصيب الآخرين » • فأجاب أيباريس : « حقا ، يا سيدى • ان كان على هذا يتوقف أن تكون ملكا ، فليطمئن قلبك ولا تخف شيئا : أعرف تعويذة أكيدة المفعول ولا تخفق اطلاقا» • فقال داريوس : « ان كنت ، حقا ، تعرف شيئا من هذا القبيل ، فأسرع باستخدامه ، لان المسألة لا تتحمل التأخير فستكون التجربة غدا • فلما سمع أيباريس هذا ، فعل هكذا : عندما أقبل الليل ، أخذ احدى الأفراس ، وكانت أحب فرس الى الجواد الذى سيركبه داريوس ، فربطها فى ضاحية المدينة ثم ساق جواد سيده الى ذلك المكان• وأخذ يدور به حول الفرس عدة مرات ، مقتربا بالجواد من الفرس فى كل مرة ، حتى التقى الحصان بالفرس أخيرا •

عندما أصبح الصباح ، تقابل الستة معا ، حسب اتفاقهم على ظهور جيادهم ، وركبوا الى الضاحية • فلما اقتربوا من الموضع الذى ربطت فيه الفرس فى الليلة السابقة ، قفز جواد داريوس الى الامام وصهل • وفى نفس تلك اللحظة لمع البرق فى السماء ، اذ كانت السماء

صافية الاديم !! وتبعه قعقعة الرعد ... يبدو أن السماء كانت تتآمر مع داريوس ، وبهذا عينته ملكا . عندئذ قفز النبلاء الخمسة من فوق ظهور جيادهم فى وقت واحد ، وانحنوا أمام داريوس ، واعترفوا به ملكا .

عقد داريوس بعد ذلك زيجات من أرقى الطبقات ، تبعا لآراءالفرس. فتزوج باثنتين من بنات كوروس ، أتوسا وأرتوستونى . وقد سبق لاتوسا أن تزوجت مرتين ، اذ كانت فى الاصل زوجة شقيقها قمبيز، ثم زوجة للمجوسى . أما أرتوستونى فكانت عذراء . كما تزوج بارموس ابنة سمرديس بن كوروس وكذلك بابنة أوتانيس التى اكتشفت سر ذلك المجوسى . ولما توطد سلطان داريوس فى جميع أرجاء المملكة ، كان أول عمل قام به هو أن أقام تمثالا من الحجر يمثل رجلا على ظهر جواد ، نقشت تحته هذه العبارة : « داريوس بن هوستاسبيس ، بمساعدة جواده (وبعد هذه ، اسم الحصان) ، وسايسه الطبيب أيباريس هو الذى مكنه من أن ينال مملكة الفرس » .

أقام داريوس هذا التمثال فى فارس ، وبعد ذلك شرع فى تكوين عشرين حكومة من النوع الذى يسميه الفرس Satrapies وعين لكل واحدة منها حاكما وحدد الجزية التى يدفعها مختلف الأمم له .

لما كان الهنود أكثر عددا من أية أمة نعرفها ، فقد كانوا يدفعون جزية تفوق ماكان يدفعه أى شعب آخر ، وهى ثلثمائة وستون تالنتا من تبر الذهب .

ولو حولتالاموال البابلونية الى نفس هذه الموازين الايوبية ، لبلغت تسعة آلاف وخمسمائة وأربعين من هذه التالنتات . ولو كان الذهب قدر الفضة ثلاث عشرة مرة ، لبلغ وزن تراب الذهب أربعة آلاف وستمائة وثمانين تالنتا . وباضافة هذين المبلغين الى بعضهما يصير الدخل الذى يصل الى داريوسسنة بعد أخرى أربعة عشر ألفا وخمسمائة وستين تالنتا من النقود الأيوبية ، مع اهمال كسور التالنت .

هذا هو الدخل الذى كان داريوس يحصل عليه من آسيا وجزء صغير من ليبيا ويحفظ الملك العظيم الجزية التى يحصل عليها ، بالطريقة الآتية : يصهر الذهب ثم يصبه وهو لايزال سائلا فى قدور من الفخار . بعد ذلك ينزع القدور تاركا الذهب كتلة صلبة على صورة سبيكة . وعندما يحتاج الى نقود ، يسك من السبائك التى لديه بحسب الحاجة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس والعشرون

****

بعض قصص غريبة

هاك الطريقة التى يحصل بها الهنود على كميات الذهب الكبيرة ، التى تمكنهم من ارسال تلك الكميات الهائلة من تبر الذهب الى ذلك الملك فى كل عام : يوجد فى شرق الهند طريق مكون كله من الرمال ، اذ تقع الصحراء الرملية فى هذه الجهة من الهند ٠ ويعيش وسط الرمال فى هذه الصحراء نوع من النمل الضخم ، يقل حجمه عن حجم الكلب، ولكنه أكبر من الثعلب ٠ ولدى الملكالفارسى عدد من هذا النمل ، صاده له الصيادون من تلك الارض التى نتكلم عنهـا الآن ٠ ويصنع ذلك النمل بيوته تحت سـطح الارض ٠ وهو كالنمل الاغريقى الذى يشبهه فى الشـكل الى حد كبير يخـرج أكواما من الرمل وهـو يحفر جحوره ٠ وذلك الرمـل الذى يخرجه النمـل مملوء بالذهب (١) ٠ وعنـدما يذهب الهنود الى الصحراء لجمع هذه الرمال ، يأخذون معهم ثلاثة من الابل ويسرجونها معا ، جاعلين ناقة فى الوسط ، وجملا ذكرا على كل من جانبيها ، ويربطونها فى خطام واحد يقودونها به ٠ يجلس الراكب فوق الناقة ويختارون لهـذا الغرض ناقة قد وضعت مولودها حديثا ، لان النياق تستطيع أن تجرى بسرعة الحصان ، بينما تحمل أثقالا أكثر مما يستطيع الحصان أن يحمل ٠

لما كان الاغارقة يعرفون شكل الجمل حق المعرفة ، فلن أتعب نفسى فى وصفه ٠ ولـكننى سأوضح أشياء فاتتهم ملاحظاتها ٠٠٠ للجمل فى أرجله الخلفية أربع عظام فخذ ، واربعة مفاصل من مفاصل الركبة ٠

بعد ان يستعد الهنود هكذا ، يخرجون فى طلب الذهب ٠ ويحسبون

---

(١) لم تكشف الابحاث الحديثة عن معلومات معقولة سواء بخصوص هـذا الحيوان أو بخصوص الطباع التى تنسب اليه وربما كان أقرب حيوان اليه هو آكل النمل الذى يحفر جحوره في السهول الواقعة شمالى الهند ٠

الوقت بالضبط بحيث يجمعون الذهب فى أشد ساعات القيظ حرارة ، تلك التى يختفى فيها النمل هربا من الحر • وتكون حرارة الشمس ، فى تلك البقاع ، على أشدها فى الصباح ، وليس فى وقت الظهيرة كما هو الحال فى أى مكان آخر • وتبلغ الحرارة أقصاها منذ أن تصل الشمس الى ارتفاع معين فى كبد السماء ، حتى الساعة التى تقفل فيها السوق أبوابها • فى تلك الفترة تكون حرارة الشمس أقسى مما هى فى بلاد الاغريق ظهرا ، حتى ليقال ان القوم يبللون أنفسهم بالماء فى ذلك الوقت من النهار • أما فى الظهر ، فحرارة الشمس فى الهند مثل حرارتها فى غيرها من الممالك • وبينما يقترب النهار من الغروب، تكون الحرارة مساوية لحرارة الشمس فى الصباح فى البلاد الاخرى • ثم تزداد برودة الجو كلما اقترب المساء حتى يصير شديد البرودة •

عندما يصل الهنود الى موضع الذهب ، يملئون (الزكائب) بالرمال ثم يركبون الجمال عائدين بأقصى سرعة ومع ذلك ، فان النمل يشم رائحتهم ، كما يقول الفرس ، وينـدفع خارجا من جحوره لمطاردتهم • ويقولون ان النمل يجرى بسرعة لا يباريه فيها أى حيوان آخر فى العالم كله • واذا لم يسرع الهنود ويقطعوا مسافة طويلة قبل أن يصل النمل اليهم ، فما من جامع ذهب يستطيع أن يفلت من أذاه • وفى أثناء الفرار ، تتعب ذكور الابل التى ليست فى سرعة اناثها ، وتبدأ تجر أرجلها جرا • يفعل هذا ، أولا ، أحد الجملين ، ثم يليه الجمل الآخر • أما الانثى فتتذكر صغيرها الذى تركته وراءها ، فلا تبطىء أو تكل • هذه هى الطريقة التى يحصل بها الهنود على معظم كميات الذهب ، تبعا لرواية الفرس • أما الجزء الباقى فيستخرج من باطن الارض حيث يوجد بكميات قليلة •

يبدو أن الطبيعة تحابى الاقطار النائية من الارض فتمنحها أبهى المحاصيل كما حبت بلاد الاغريق فجعلتها تتمتع بجو معتدل أروع مما تتمتع به أية بلاد أخرى • وكما لاحظت أخيرا ، توجد بالهند أقصى بقاع مأهولة الى جهة الشرق • وجميع حيواناتها ذوات الاربع وطيورها أكبر من مثيلاتها فى أى مكان آخر ، ما عدا الخيول فقط ، اذ تتفوق عليها الخيول الميدية المعروفة «بالنياسانية» كما أن الذهب يستخرج هناك بكميات وافرة ، فيستخرج بعض منه من جوف الارض ، وبعض يؤخذ من الرمال التى تقذفها الانهار • كما يؤخذ بعض آخر بالطريقة التى ذكرناها • وزيادة على هذا ، تنمو بالهند أشجار برية تنتج صوفا أجمل من صوف الأغنام • ومن هذا الصوف النباتى يصنع الاهالى ملابسهم (١) •

(١) شجرة الصوف هى الاسم الالمانى للقطن •

أما بلاد العرب فهى آخر بلاد مسكونة الى جهة الجنوب • وهى البلاد الوحيدة التى تنتج اللبان الذكر والمر المكى وخيار الشنبر والقرفةوالافيون ولا يحصل العرب على كل هذه الاشياء ، باستثناء المر المكى ، الا بشق الانفس • فيحصلون على اللبان الذكر بوساطة صمغ الجاوى الذى يأخذه الاغريق من الفينيقيين ، ويحصل هؤلاء بدورهم على (البهارات) بدلا منه • وذلك لان الاشجار التى تنتج اللبان الذكر تحرسها حيات مجنحة صغيرة الحجم مختلفة الألوان• وتتدلى من كل شجرة أعداد كبيرة من هذه الافاعى• وهى من نفس نوع الثعابين التى تغزو مصر • ولا شىء يمكن أن يطرد هذه الحيات المجنحة عن أشجار اللبان الذكر سوى دخان الجاوى •

يقول العرب ، ان الدنيا كلها ستمتلىء بهذه الحيات اذا لم يسيطر على تكاثرها بالطريقة التى يسيطر بها على تكاثر الثعابين العادية • والحقيقة ، أن القدرة الالهية هى احدى القوى التى يمكن للمرء أن يتوقعها من قبل • وانها لذات تدبير حكيم • فان الحيوانات الضعيفة المتصفة بالجبن، والتى تقع فريسة لغيرها، تلد صغارها بوفرة زائدة حتى لاينقرض نوعها بسبب الاعداد الكبيرة التى تأكلها الحيوانات الأخرى منها • فى حين نجد نتاج الحيوانات المفترسة قليلا • فالأرانب مثلا ، التى تصيدها الوحوش والطيور والانسان، كثيرة النسل، بحيث تتفوق فى هذه الناحية على أى حيوان آخر • ففى وقت واحد ، نجد فى بطن الارنب بعض الصغار المكسوة تماما بالفراء، وبعضا آخر عاريا تمام العرى، وبعضا كامل التكوين فى رحمها ، فى حين تكون قد حبلت من جديد بعد أن تكونت هذه الصغار فى بطنها ولم تولد بعد • أما اللبؤة التى هى من أقوى وأجرأ الوحوش ، فلا تلد الا مرة واحدة طول حياتها ، وتلد شبلا واحدا ليس غير، ولاتحبل بعده اطلاقا ، اذ تفقد رحمها فى نفس الوقت الذى تلد فيه صغيرها • والسبب فى هذا،أنه بمجرد أن يبدأ الجنين فى التحرك داخل الرحم يخدش جدار الرحم بمخالبه التى تفوق فى حدتها مخالب أى حيوان آخر• وبمرور الوقت ، يكبر الجنين ويستمر فى تمزيق الرحم أكثر فأكثر ، حتى انه عندما يولد أخيرا لاتكون فى الرحم قطعة واحدة سليمة •

نعود ثانية الى الافاعى والحيات المجنحة فى بلاد العرب • فلو تكاثرت بالسرعة التى تسمح لها الطبيعة بها ، لما استطاع رجل واحد أن يبقى على وجه الارض • بيد أنه عندما يجتمع الذكر بالانثى ، تقبض الانثى على الذكر من رقبته فى نفس لحظة الحمل • وما أن تمسك به حتى لا يستطيع الفكاك من قبضتها ، اذ تعض رقبته ولا تتركها الا بعد أن تقطعها • وهكذا يموت الذكر غير أنه بعد مدة وجيزة تنتقم الصغار للأب من الام ، اذ تشق

لنفسها طريقا داخل الرحم وهى لم تولد بعد ثم تشق لنفسها طريقا آخر خارج بطن أمها • وبذا تخرج صغار الثعابين الى العالم • وهناك حيات على عكس هذا ، وهى الحيات غير السامة ، التى تضع بيضا يفقس عددا كبيرا من الصغار • وتوجد الثعابين فى جميع بقاع العالم ، أما الحيات المجنحة فلا توجد فى أى مكان غير بلاد العرب حيث تجتمع معا ، وبذا تبدو كثيرة العدد •

هذه هى الطريقة التى يحصل بها العرب على اللبان الذكر • أما طريقتهم فى جمع خيار الشنبر فهى : يكسون جميع اجسامهم ووجوههم بجلود الثيران أو بأى نوع آخر من الجلد ، ولا يترك كل منهم الا فتحتين لعينيه ، ثم يخرجون فى طلب خيار الشنبر الذى ينمو فى بحيرة غير بالغة العمق • وتزخر هذه البحيرة وشواطئها بالهوام وذوات الاجنحة التى تشبه الخفافيش الى حد كبير ، والتى تنقض بفظاعة وبجرأة على فريستها لتمزق جسمها بمخالبها • وينبغى على العرب ، اذن ، أن يبعدوا هذه الحيوانات عن عيونهم طول الوقت الذى يجمعون فيه خيار الشنبر •

أما الطريقة التى يحصلون بها على القرفة فأغرب من هذه • فهم لا يعرفون أين تنمو أشجار القرفة، ولا أى الممالك تنتجها — غير أن البعض يجرى وراء الاحتمالات ويروى انها تأتى من البلد الذى تربى فيه باخوس• يقولون ان طيورا ضخمة تحضر تلك العيدان التى نسميها ، نحن الاغارقة ، « القرفة » ، تبعا للاسم الذى يطلقه عليها الفينيقيون • تحملها عاليا فى الجو لتبنى بها عشاشها • فتلصقها ببعضها بنوع من الطين ، الى حافة صخرة عالية لا تستطيع قدم انسان أن تتسلق اليها • وعلى هذا ، فلكى يحصل العرب على القرفة ، يلجئون الى هذه الحيلة : يجمعون كل الثيران والحمير ودواب الحمل الاخرى التى تنفق فى بلادهم ، ويقطعون أجسامها قطعا كبيرة ، يحملونها معهم الى تلك البقاع ، ثم يضعونها قريبا من العشاش ، وينسحبون الى مسافة بعيدة • وعندئذ تنقض الطيور الكبيرة، وتقبض على قطع اللحوم بين مخالبها ، فتطير بها الى عشاشها التى لاتتحمل ثقل اللحم فتتهدم وتقع على الارض • وحينئذ يرجع العرب فيجمعون القرفة التى تصدر بعد ذلك من بلاد العرب الى الدول الاخرى •

الفصل السادس والعشرون

****

داريوس

من بين السبعة الفرس الذين ثاروا ضد المجوسى ، فقد انتافيرنيس حياته بسرعة عقب تلك الثورة بسبب عمل من أعمال الوقاحة . فقد رغب ذات يوم فى أن يدخل القصر لاتمام عمل ما مع الملك . وكان القانون ينص على السماح لكل فرد ممن اشتركوا فى الثورة ضد المجوسى بأن يدخل القصر بغير استئذان ، الا اذا كان الملك فى خلوة مع احدى زوجاته . وعلى ذلك لم يكن انتافيرنيس بحاجة الى أن يطلب الاذن له بالدخول الى القصر، اذ بصفته أحد السبعة ، يحق له أن يدخل بغير استئذان . ولكن بالرغم من هذا ، رفض الحاجب ورئيس الحجاب السماح له بالدخول ، بحجة أن الملك كان مع زوجته . غير أن انتافيرنيس ظنهما يكذبان عليه ، فاستل مديته وقطع بها أنفيهما وآذانهما(١) . وعلقهما فى لجام حصانه ، ووضع اللجام حول رقبته ، ثم تركهما .

دخل هذان الرجلان على الملك بحالتهما تلك ، وذكرا له كيف حدث ذلك لهما . فاضطرب داريوس خشية أن يكون هذا قد حدث باتفاق الزملاء الستة فأرسل فى طلب كل واحد منهم على انفراد ، وسألهم عما اذا كانوا قد وافقوا على سلوك انتافيرنيس . فلما علم من اجاباتهم أنه لم يحدث قط أى اتفاق بينه وبينهم ، قبض على انتافيرنيس وأولاده وجميع أقربائه القريبين ، اذ اشتبه فى أن يكون هو وأصدقاؤه على وشك القيام بفتنة . فلما قبض عليهم جميعا ، وقيدوا بالسلاسل كعابثين بالامن محكوم عليهم بالاعدام ، ظلت زوجة انتافيرنيس تذهب الى باب القصر ، وتقف

---

(١) كانت طريقة العقاب هذه شائعة في الشرق . ويذكر جميع القراء كيف طبقها أفراد سيبوى الثائرون على مواطنينا ومواطناتنا في عام ١٨٥٧ .

هناك باستمرار ، وتبكي مر البكاء • فلما أبصر داريوس أنها لا تكف عن البكاء أمام بابه ، أخذته الشفقة عليها • فبعث اليها رسولا يقول لها : «أيتها السيدة ، ان الملك يمنحك ، هدية منه ، حياة أحد أقاربك فاختارى من تريدينه من المقبوض عليهم » • ففكرت مليا قبل أن تجيب ، ثم قالت: « اذا كان الملك يرغب فى أن يهب لى حياة شخص واحد فقط؛ فانى أختار أخى» • فلما بلغ الملك ردها ، دهش وأرسل اليها ثانية ، يقول : «أيتها السيدة ؛ ان الملك ليطلب منك أن تخبريه ؛ لماذا تركت زوجك وأولادك ، وفضلت عليهم أخاك لتنقذيه من الموت ؟ انه ليس أقرب اليك من أولادك ولا أعز من زوجك » • فأجابت : « أيها الملك ، اذا شاءت الالهة حصلت على زوج آخر وعلى أولاد آخرين بعد موت هؤلاء • ولكن بما أن أبى وأمى ليسا على قيد الحياة ، فمن المستحيل أن أحصل على أخ آخر • كانت هذه فكرتى عندما اخترت انقاذ حياة أخى » • فبدا لداريوس أن هذه السيدة قد فكرت تفكيرا حكيما، فمنحها علاوة على حياة أخيها ، حياة ابنها الاكبر؛ اذ سر منها غاية السرور • ولكنه قتل جميع الباقين • وهكذا مات أحد السبعة بالطريقة التى ذكرناها ، بعد الثورة بمدة وجيزة •

حدث ذات مرة ، عندما قفز الملك داريوس من فوق ظهر جواده ، أن التوت قدمه ؛ فسبب له هذا الالتواء ألما بالغ القسوة ، اذ خرجت عظمة المفصل من موضعها • وكان فى بلاط الملك بعض من الاطباء المصريين الذين يعتبرهم داريوس أمهر أطباء العالم • وعلى هذا لجأ الى مساعدتهم • بيد أنهم لووا قدمه بطريقة فظيعة ، واستخدموا معه منتهى العنف حتى زاد الألم قسوة • فظل الملك سبعة أيام وسبع ليال لايذوق للنوم طعما اذ كان يعانى ألما مبرحا • وفى اليوم الثامن لبلواه كان أحد الفرس قد سمع قبل مبارحته سارديس عن مهارة الطبيب ديموكيديس الكروتونى فأخبر داريوس بأمره ، وعند ذلك طلب داريوس احضاره اليه بغاية السرعة • فلما وجده من ذهبوا لاحضاره ، بين عبيد أورويتيس مهملا ؛ أحضروه الى داريوس بحاله التى كان عليها ، يرسف فى الاغلال ، ويرتدى أسمالا بالية •

ما ان مثل ديموكيديس بين يدى الملك حتى سأله عما اذا كان يعرف الطب ـ فأجاب بقوله : « كلا ، يا مولاى » • اذ خشى ان هو أعلن عن نفسه أن يفقد كل أمل فى رؤيته بلاد الاغريق ثانية • وبرغم هذا ؛ فقد أدرك داريوس أن هذا الرجل يستخدم الدهاء ، وأنه يعرف الطب حقيقة • فأمر

من جاءوا به بأن يحضروا اليه السياط وأسياخ الكى (١) وعند ذلك اعترف ديموكيديس ؛ ولكنه قال فى الوقت ذاته ان معرفته بالطب ليست شاملة. لقد عاش زمنا ما مع أحد الاطباء ، وبذا ألم بعض الشيء بهذا الفن . ومع ذلك فقد عهد داريوس بنفسه الى ذلك الطبيب . فاستخدم ديموكيديس الأدوية الشائعة لدى الاغارقة . واستبدل الطرق العنيفة التى كان يستعملها المصريون بطرق أخف . وبهذا مكن الملك ، أولا من أن ينال قسطا من النوم ؛ ثم بعد وقت قصير جدا شفى داريوس شفاء تاما ، بعد أن كان قد قطع الامل فى أن يستخدم قدمه تلك مرة أخرى . وعلى ذلك قدم الملك لديموكيديس قيدين مصنوعين من الذهب . وعندئذ سأله ديموكيديس عما اذا كان يعنى بهذا مضاعفة آلامه نظير اعادة صحته اليه . فسر داريوس من كلامه ، وأمر خصيانه بأن يصحبوا ديموكيديس ليرى زوجاته . ففعل الخصيان ما أمرهم به الملك ، وأخبروهن جميعا بأن هذا هو الرجل الذى أنقذ حياة الملك . وبعد ذلك أخذت كل زوجة طبقا وصارت تغرف به من صندوق ملىء بالذهب ، فتقدم ما فيه الى ديموكيديس الذى حصل على أموال كثيرة أيما كثرة ، لدرجة أن عبدا يدعى سكيتون كان يسير وراءه ويجمع النقود الرسمية (٢) التى كانت تسقط من الاطباق. فجمع بهذا كومة كبيرة من الذهب .

بعد أن عالج ديموكيديس داريوس فى سوسا ، أقام هناك فى بيت كبير . وكان يتناول طعامه يوميا على مائدة الملك . ولم يفتقر قط الى شيء يشتهيه قلبه غير الحرية فى أن يعود الى وطنه . وقد تشفع لدى داريوس للاطباء المصريين الذى عالجوا الملك قبل مجيئه ، فأبقى على حياتهم بعد أن كانوا على وشك الاعدام وخزا بأسنة الحراب ، لان طبيبا اغريقيا تفوق عليهم . وبعد ذلك ، تمكن من انقاذ حياة عراف ايليانى كان مهملا اهمالا ذريعا بين العبيد بعد أن تنبأ بحظ بوليقراط. وبالاختصار، بلغ ديموكيديس منزلة لدى داريوس لم يبلغها أى شخص سواه .

وزيادة على ماتقدم ، فبعد وقت قصير ، حدث أن أصيبت أتوسا ، ابنة كوروس التى تزوجت داريوس ؛ بدمل فوق ثديها . فأخذ الدمل

---

(١) كان فقأ العين عقابا فارسيا في الازمنة القديمة كما هو كذلك في العصور الحديثة .

(٢) نفهم من كلمة « النقود الرسمية » أنها كانت الدريقات التى يسميها هيرودوت في مواضع أخرى ، «الدريقات الرسمية » وكانت قيمتها تقرب كثيرا من قيمة العملة الرسمية الرئيسية المتداولة في بلاد الاغريق .

يتسع ويكبر بعد أن انفجر • ولما كان الدمل فى بدء ظهوره صغيرا ، أخفته أتوسا بدافع الحياء ، ولم تخبر به أحدا • ولكنها لما رأت حاله قد ساءت ، لم تجد بدا من أن ترسل الى ديموكيديس• فلما جاءها أطلعته على الخراج• فقال لها ان بوسعه أن يعالجها على شرط أن تعده أولا ، بقسم ، بأن تمنحه كل ما يطلبه • وأكد لها أن طلبه لن يكون شيئا تخجل لسماعه •

بهذه الشروط أخذ ديموكيديس يعالج أتوسا وسرعان ما شفى الخراج • ولما أصغت الى طلبه ؛ تحدثت ذات ليلة الى داريوس بالحديث التالى :

« يبدو لى غريبا ، يامولاى ، مع كل بأسك وسلطانك ، انك تقضى الوقت بغير عمل ؛ ولا تقوم بأية غزوات ؛ ولا توسع سلطان الفرس • وأعتقد أن رجلا صغير السن مثلك ، واسع الثراء ، يجب أن يقوم بعمل نبيل ليبرهن للفرس على أن من يحكمهم رجل • كما أن هناك سببا آخر يدعوك الى القيام بعمل ما • ليس فقط لانه مما يليق بك أن تثبت للفرس أن من يحكمهم رجل ، بل وكذلك من أسباب سلامتك أن تنهك قواهم فى الحروب لئلا تدفع البطالة الجنود الى التآمر ضد سلطانك • والآن ، وأنت لا تزال فى شرخ الشباب ، تستطيع القيام ببعض الفتوحات• فبينما تنمو قوة الجسم ، ينضج العقل أيضا• وعندما يشيخ الجسم تأخذ القوى العقلية فى الذبول ، حتى تهبط تماما » •

هكذا تكلمت أتوسا تبعا لما لقنها اياه ديموكيديس • فرد عليها داريوس بقوله : « أيتها السيدة العزيزة • لقد تكلمت بنفس ماكان يجول بخلدى • اننى أزمع اقامة جسر يصل بين القارتين ، وبذا أقوم بمحاربة سكوثيا • ولم تمض الا فترة قصيرة حتى يتم كل شىء كما ترغبين » •

غير أن أتوسا استطردت تقول : « اعلم يا سيدى أنه من الخير ارجاء الحرب مع سكوثيا بعض الوقت لأنه من الممكن هزيمة السكوثيين فى أى وقت ؛ أرجو يا سيدى ؛ أن تقود جيوشك أولا الى بلاد الاغريق • فانى أتوق الى أن تخدمنى بعض الفتيات اللاكيدايمونيات اللائى سمعت عنهن الشىء الكثير • كما أننى أرغب فى نساء أرجوسيات واثينيات وكورنثيات• يوجد فى بلاطك الآن رجل بوسعه أن يخبرك ، وهو خبير من أى فرد آخر فى العالم كله ، بجميع ماتريد معرفته عن بلاد الاغريق كما أن بوسعه أن يكون مرشدا ، وانى لأقصد ذلك الرجل الذى عالج قدمك » •

فأجاب داريوس بقوله : « زوجتى العزيزة ؛ بما أن رغبتك هى أن نجرب أولا قوة الاغارقة ؛ أرى من الاوفق قبل المسير اليهم ؛ أن نرسل

أولا بعض الفرس للتجسس ومعرفة أحوال تلك البلاد • ومن الممكن أن يذهبوا الى هناك بصحبة ذلك الرجل الذى تذكرينه • وبعد أن يروا ويعرفوا كل شىء ، يمكنهم العودة الينا وتقديم تقرير شامل عن كل ما هنالك • وبعد أن ألم بجميع أحوال الاغارقة ، أبدأ بمحاربتهم » •

بعد ذلك حاصر الملك داريوس ساموس واستولى عليها • فكانت أول مدينة غزاها ، من جميع المدن الاغريقية والبابلية • والسبب الذى جعله يغزو ساموس ، هو انه عندما سار قمبيز بن كوروس لغزو مصر ، اجتمعت هناك أعداد غفيرة من الأغارقة : بعضهم لترويج تجارته ؛ وبعض آخر ليخدم فى الجيش ، وآخرون لمجرد مشاهدة تلك البلاد • وكان من بين هؤلاء الأخيرين سولوسون بن أياكيس وشقيق بوليقراط • وكان فى ذلك الوقت منفيا من ساموس • وحدث أن التقى سولوسون هذا ؛ ابان اقامته فى مصر بضربة سعيدة واحدة من ضربات حسن الحظ • تصادف أن كان يرتدى فى أحد الايام عباءة حمراء وهو ذاهب الى ميدان السوق بمدينة ممفيس • فرآه داريوس ؛ الذى كان وقتذاك أحد رجال حرس قمبيز ، ولم يكن ذا شأن يذكر • فتاقت نفس داريوس ، واجتاحته رغبة ملحة فى الحصول على هذه العباءة • فذهب الى سولوسون وعرض عليه أن يشتريها منه • فأدرك هذا الاخير لهفة داريوس الى العباءة ، وأوحى اليه حظه الحسن ، أن يرد عليه بقوله : « لا يوجد شىء فى هذا العالم كله يمكن أن أبيع عباءتى من أجله ، ولكنى سأمنحك اياها بغير مقابل ، طالما أنك راغب فيها الى هذه الدرجة » فشكره داريوس ؛ وقبل العباءة منه •

أحس سولوسون المسكين أنه خدع فى عباءته وتخلى عنها بغاية البساطة • غير أنه بعد ذلك ، عندما توفى قمبيز ؛ وقام السبعة بثورتهم ضد المجوسى ، وكان داريوس هو الرجل الذى وقع عليه الاختيار من بينهم ليحكم المملكة ، علم سولوسون أن الرجل الذى لبس تاج فارس هو ذلك الحارس الذى اشتهى عباءته فى مصر ، وأخذها بغير مقابل • وعلى ذلك سافر الى سوسا • ولما صار أمام باب القصر الملكى ، أخبر الحاجب بأنه رجل له فضل على الملك (١) • فذهب الحاجب الى داريوس وأخبره بالامر فدهش داريوس لما سمع ، وقال فى نفسه : « أى اغريقى يمكن أن يكون صاحب فضل على ؟ أو من منهم يدينني بشىء بعد أن صرت ملكا؟ من النادر أن كان

---

(١) ذوو الفضل على الملك ، جماعة من الاشخاص ، سجلت أسماؤهم رسميا في الارشيف الملكى . ويطالب سولوسون بوضع اسمه في ذلك السجل .

أحد منهم هنا . لم يكن هنا سوى رجل أو اثنين منذ أن ارتقيت الى العرش كما أنني لا أذكر انى مدين بشيء لاى اغريقى . وعلى أية حال ، أحضره الى هنا لاسمع منه ماذا يقصد بهذا الزهو . وعلى ذلك ، أدخل الحاجب سولوسون الى حضرة داريوس ، وسأله المترجمون عن شخصيته ؛ وماذا فعل حتى يقول انه ذو فضل على الملك . فروى سولوسون قصة العباءة كلها ، وقال أنه هو الذى قدم الهدية لداريوس . عندئذ صاح داريوس متعجبا : « مرحبا ، بأكرم الرجال . أحقا أنت هو الذى أعطانى شيئا ، مهما كان صغيرا ؛ وأنا غير ذى سلطان على الاطلاق ؟ حقا ؛ ان معروفك لعظيم كأعظم هدية تقدم الى اليوم . ولهذا سأعطيك فى مقابله ذهبا وفضة بغير حساب ، حتى لا تندم قط على أنك قدمت خدمة لداريوس ابن هوستاسبيس » . فأجاب سولوسون بقوله : « لاتعطنى ذهبا ولا فضة ، أيها الملك ، وانما أريد أن تستعيد لى ساموس ، مسقط رأسى ، واجعلها هديتك لى . انها الآن ملك لأحد عبيدنا الذى صار حاكمها بعد أن قتل أورويتيس أخى بوليقراط . أتوسل اليك أن تهبنى ساموس ، وان تهبنى اياها سليمة دون اراقة دماء ولا أسر» .

فلما سمع داريوس كلامه هذا ، أرسل جيشا بقيادة أوتانيس ؛ أحد السبعة ؛ وأمره بأن يحقق جميع رغبات سولوسون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع والعشرون

****

ثورة بابل

بعد أن أقلع جيش أوتانيس قاصدا ساموس ؛ تمرد البابليون ؛ اذ أعدوا جميع وسائل الدفاع طيلة الوقت الذى كان المجوسى فيه ملكا ، والوقت الذى تآمر فيه السبعة . فانتهزوا فرصة القلاقل واستعدوا لمقاومة الحصار . وتصادف أن تم كل ذلك فى الخفاء دون أن يرى أحد ماذا كانوا يفعلون . وأخيرا ، لما حان وقت اعلان تمردهم ؛ فعلوا هكذا : بعد أن وضعوا أمهاتهم جانبا ، اختار كل رجل امرأة واحدة من كل أسرة . أية امرأة أعجبته . وهؤلاء فقط هن اللائى سمح لهن بالبقاء على قيد الحياة ، فى حين جمعت سائر الباقيات فى مكان واحد وشنقن . أما النساء اللاتى وقع عليهن الاختيار فاحتفظ بهن ليصنعن الخبز للرجال ، فى حين شنقت الأخريات كيلا يستهلكن المئونة المخزونة .

لما بلغ داريوس نبأ ما حدث هناك ، جمع كل قواته وبدأ الحرب بالمسير فورا صوب بابل ، وألقى حولها الحصار . بيد أن البابليين لم يهتموا بهذا الحصار قيد شعرة. فصعدوا الى الأبراج التى تعلو أسوارهم، وأخذوا يسخرون من داريوس ومن جيشه القوى . وبلغت الجرأة بأحدهم أن صاح بأعلى صوته قائلا لهم : « مافائدة جلوسكم هناك هكذا ، أيها الفارسيون ؟ لم لا ترجعون الى دياركم ؟ لن تأخذوا مدينتنا حتى تلد البغلة ، هذا ماقاله رجل بابلى كان يظن أن البغلة لاتلد اطلاقا » .

بعد أن مرت سنة وسبعة شهور ، مل داريوس وجيشه البقاء خارج أسوار بابل اذ وجدوا أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة بأية حال من الاحوال . لقد استخدموا جميع الطرق الاستراتيجية ، وكل الفنون . ولكن الملك لم يستطع الاستيلاء عليها ، ولا حتى عندما حاول استعمال الطريقة التى استولى بها كوروس على تلك المدينة، كان البابليون

فى غاية اليقظة هذه المرة ، ولم يجد داريوس وسيلة قط يمكنه بها أن يهزمهم • وأخيرا ؛ فى الشهر العشرين من بدء الحصار ؛ حدث أمر غريب لزوبوروس بن ميجابوزوس ، الذى كان من بين السبعة الذين قضوا على المجوسى لقد ولدت احدى بغال الحمل التى يملكها ؛ وضعت جحشا • فلما أسرع الخدم بابلاغ زوبوروس بهذا الخبر ، لم يصدقهم فى أول الامر ، وذهب فشاهد الجحش بعينى رأسه • عندئذ أمر خدمه بأن يكتموا الامر ولا يخبروا به أحدا على الاطلاق ، فى حين أخذ يفكر هو نفسه فى ذلك الحدث الغريب • فتذكر كلام الرجل البابلى عندما بدىء بالحصار ، اذ قال : « لن تأخذ المدينة حتى تلد البغلة » •••• تذكر هذه العبارة وهو غارق فى تفكيره ، واعتقد أن من الممكن أن تسقط بابل بعد ذلك • اذ بدا له أن قوة الهية هى التى جعلت ذلك الرجل ينطق بتلك العبارة • والآن ، قد ولدت بغلته •

وما أن أحس زوبوروس ، فى قرارة نفسه ، بأنه قدر لبابل ان تسقط حتى انطلق الى داريوس وسأله عما اذا كان يهمه كثيرا أن يغزو هذه المدينة • فلما رأى أن داريوس يضع أهمية عظمى حقا على هذا الغزو ، أخذ يفكر فى نفسه من جديد ، كيف يتسنى له أن ينسب فضل هذا الغزو لنفسه ، ويكون هو الرجل الذى يستولى على بابل •

يقدس الفرس الاعمال النبيلة ويرفعون فاعلها الى أقصى درجات العظمة وعلى هذا ، طفق زوبوروس يفكر ، ويقلب فى ذهنه جميع الوسائل التى يمكنه بها الاستيلاء على تلك المدينة • فلم يجد وسيلة ما ؛ يمكن أن تنفع ، الا اذا شوه نفسه وذهب الى العدو • فاذا ألفى هذا أمرا سهلا ، شوه نفسه بطريقة لا يجدى فيها علاج قط ؛ لانه جدع أنفه ، وقطع أذنيه؛ ونتف شعره ، وضرب نفسه بالسوط ضربا مبرحا ؛ ثم ذهب الى داريوس وهو على تلك الحال المؤلمة •

ثارت كوامن الغضب فى نفس داريوس عندما أبصر زوبوروس على هذه الصورة ، فقفز من فوق عرشه وصاح بصوت مرتفع سائلا زوبوروس عمن أحدث به تلك الاصابات وماذا فعل حتى عومل هذه المعاملة القاسية • فأجاب زوبوروس بقوله : « لا أحد فى العالم كله سواك ، يا مولاى ، يستطيع أن يحدث بى هذا الذى ترى • لم تقدم يد رجل غريب على فعل هذا بى ، ولكنها يدى أنا نفسى هى التى فعلته • شوهت نفسى لانى لم أطق سخرية أهل بابل من الفرس » • فقال داريوس : « يا لك من رجل تعس !! انك تضفى أجمل الاسماء على أبشع الافعال عندما تقول ان تشويه خلقتك يساعدنا على تقدم الحصار • كيف يمكن لهيئتك المشوهة أن تحث

العدو على الاسراع بالخضوع لنا ؟ لاشك فى أن لوثة قد أصابت عقلك عندما فعلت بنفسك هذا الفعل الشنيع »· فقال الآخر: « لو كنت أخبرتك بما أزمع عمله لما سمحت لى بالاقدام عليه · ولذلك كتمت الامر فى نفسى حتى نفذت خطتى · والآن ، يامولاى ، اذا لم يحدث اخفاق من جانبك ، فاننا ، لا ريب ، آخذون المدينة ؛ سألجأ الى الاعداء بحالتى هذه ، وعندما أدخل مدينتهم سأخبرهم بأنك أنت الذى فعلت بى هذا · وأعتقد أنهم سيصدقون كلامى ويثقون بى ثقة تجعلهم يولوننى أمر كتائبهم ــ أما من جهتك يامولاى فيجب أن تنتظر حتى اليوم العاشر بعد دخولى بابل ؛ ثم تضع بالقرب من أبواب سميراميس فرقة من جيشــك ، لا يهمك كثيرا فقدانها ؛ ويكون عددها ألف جندى · ثم انتظر سبعة أيام أخرى وضع فرقة أخرى تتكون من ألفى مقاتل قوى عند أبواب نينوى · وانتظر بعد ذلك عشرين يوما وضع عند الابواب الخالديانية فرقة قوامها أربعة آلاف رجل· ولا تسلح هؤلاء ؛ ولا السابقين لهم بأية أسلحة غير السيوف التى لا تكترث لضياعها · وبعد انقضاء عشرين يوما ؛ أصدر أوامرك لقواتك كلها بمهاجمة المدينة من كل جانب · وضع فرقة من الفرس عند الأبواب البيليانية ؛ وفرقة أخرى عند الأبواب الكيسيانية ؛ لأننى أتوقع أن يعهد الى البابليون بكل شيء حتى مفاتيح أبوابهم ؛ بعد أن يروا ما أحرزته من نجاح ، وبعد ذلك أقوم أنا والفرقتان الفارسيتان ببقية الخطة » ·

بعد أن ترك زوبوروس هذه التعليمات ، انطلق الى أبواب المدينة وهو يكثر من التلفت خلفه ، ليبدو كجندى هارب · فلما أبصره الرجال الواقفون في الابراج ، والذين وكلت اليهم المراقبة ؛ أسرعوا بالنزول ؛ ففتحوا أحد الابواب قليلا ، وسألوه عن شخصيته وعن المهمــة التى جاء من أجلها ·فأجاب بأنهزوبوروس ، وأنه أتىلاجئا اليهمبعد هروبهمنالفرس فلما مثل أمام المجلس، أخذ يندب حظه العاثر وأخبرهم بأن داريوس أنزل به ذلك العقاب الذى يرونه ، لا لشيء الا لأنه أشار عليه بفك الحصــار اذ يبــدو أن لا أمل فى الاستيلاء على المدينــة · ثم استطرد يقول : « والآن سيبرهن مجيئى اليكم ، أيها البــابليون ، على أنه أعظــم ربح يمكن أن تحصلوا عليه ، فى حين سيكون أفدح خسارة لداريوس وللشعب الفارسى· والحقيقة أن من أصابنى بهــذه التشوهات لن يفلت من العقــاب ، لاننى أعرف جميع خططه » ·

فلما رأى البابليون شخصا من ذوى المراكز العليا على تلك الحال : أنفه مجدوع ، وأذناه مقطوعتان ، وآثار السياط ظاهرة حمراء على جسمه؛

وكدمات الدم بادية تحت جلده ؛ لم يخامرهم أى شك فى أنه انما يقول الحقيقة ، وأنه أتى فعلا ليكون صديقا لهم وعونا على أعدائهم • ولذا كانوا على استعداد لان يمنحوه كل ما يطلب ولما توسل اليهم فى أن يعهدوا اليه بقيادة فرقة من قواتهم ، وكلوا اليه قيادة كتيبة من الجنود ، بدأ بمعاونتها يفعل ما اتفق عليه مع داريوس• ففى اليوم العاشر بعد هروبه قاد كتيبته وحاصر ألف رجل كان داريوس قد ارسلهم تبعا للاتفاق فانقض عليهم زوبوروس وقتلهم جميعا • فلما رأى البابليون أن فعله أصدق من أقواله سروا ايما سرور ، ووثقوا به ثقة لا حدود لها • ولما مضت المدة الثانية المتفق عليها ، خرج بكتيبته من الجنود المختارين ، وقتل الألفى فارسى • وبعد هذا النصر الثانى ؛ لهج كل لسان بالثناء عليه • ومرة ثانية انتظر حتى انقضاء الفترة التالية ، وقاد الكتائب البابلية الى حيث يوجد الاربعة آلاف فارسى ، فقتلهم جميعا • كان هذا النصر الاخير هو اللمسة الاخيرة فى تكوين سلطته وجعله الكل فى الكل لدى البابليين وبناء على هذا ، عهدوا اليه بقيادة جيشهم كله ، وسلموه مفاتيح مدينتهم •

حافظ داريوس على الخطة المتفق عليها، فهاجم الاسوار من كل جانب، وعندئذ لعب زوبوروس الدور الباقى من خطته • فبينما بذل البابليون المحتشدون عند الأسوار قصارى جهدهم لمقاومة الهجوم الفارسى ؛ فتح زوبوروس الابواب الكيسيانية والبليانية أمام العدو ، لهرب البابليين الذين أحسوا بالخدعة ؛ الى معبد جوبيتر بيلوس ، فى حين بقى من لم يدركوها ، فى أماكنهم حتى علموا أخيرا أنهم وقعوا فريسة خدعة عظمى •

هكذا سقطت بابل للمرة الثانية • فلما تمت لداريوس السيادة عليها ، هدم أسوارها وحطم جميع أبوابها ؛ لان كوروس لم يفعل هذا ولا ذاك عندما استولى على هذه المدينة من قبل • بعد ذلك اختار داريوس حوالى ثلاثة آلاف من عظماء المدينة وصلبهم ؛ أما الباقون فسمح لهم بالاقامة فى المدينة وسكناها• ولما أراد بعد ذلك عدم ازدهار الجنس البابلى، زودهم بزوجات بدل اللواتى شنقن (كما ذكرت من قبل ؛ لعدم استهلاك كمية المئونة المخزونة) • جمع أولئك الزوجات من نساء الامم المجاورة لبابل • وقد بلغ مجموعهن مالايقل عن خمسين ألفا • وان البابليين الموجودين فى عصرنا هذا ، لمن نسل أولئك النسوة •

أما زوبوروس فقد حظى بمنزلة عظمى لدى داريوس الذى اعتبر عمله هذا عملا يفوق كل ما قام به أى فارسى آخر ؛ سواء أكان فى العصور السابقة أم فى أيامنا الحاضرة، باستثناء كوروس — وهى منزلة لا يعتقد

أى فارسى غيره ، أنه جدير بها· وتبعا لأقوال الرواة ، كثيرا ماكان داريوس يقول : « كنت أفضل ان لم يشوه زوبوروس نفسه ، على أن أكون سيدا على عشرين بابل أخرى » · وزاد داريوس فى تكريم زوبوروس · فكان ، فى كل عام ، يقدم له الهدايا التى يعتبرها الفرس أعظم ما يصبو اليه المرء · كما منحه حكم بابل طول حياته دون أن يدفع أية ضريبة · وكذلك منحه عدة مزايا أخرى · كان ميجابوزوس « الذى تولى القيادة فى مصر ضد الاثينيين وحلفائهم » ابن زوبوروس هذا ؛ كما كان زوبوروس « الذى هرب من فارس الى أثينا » ابن ميجابوزوس هذا ·

الفصـــل الثامن والعشرون

****

عَادَاتُ السكوثيين

بعد الاستيلاء على بابل ، خرج داريوس فى حملة على سكوثيا • فلما كانت آســيا تزخر بالرجال ، والاموال الطائلــة تتدفق على الخزانة ، اجتاحته رغبة ملحة فى الانتقام من السكوثيين الذين غزوا ميديا ، ذات مرة ، فى عصور سابقة ، كما هزموا من التقوا بهم فى الميدان • وهكذا بدأ العراك • ظل السكوثيون سادة القسم العلوى من آسيا كله ، لمدة ثمان وعشرين سنة ، كما ذكرت من قبل ، وخلوا آسيا فى أثر الكيميريانيين ، وأطاحوا بامبراطورية الميديين ، الذين كانت لهم الســيادة حتى وصــول أولئك القوم • وعند عودتهم الى أوطانهم بعد غيبة طويلة استغرقت مدة ثمان وعشرين سنة ، كان بانتظارهم عمل شاق ، أقل تعبا من نضالهم مع الميديين • اذ وجدوا جيشا غير قليل العدد ، على استعداد ليمنع دخولهم • فلما وجدت النساء السكوثيات أن الزمن يمر دون أن يعود اليهن أزواجهن ، تزوجن بعبيدهن •

يعمى السكوثيون جميع عبيدهم كى يستخدموهم فى اعداد ألبانهم • والطريقة التى يتبعونها هى : يدفعون أنبوبة من العظم — لا تختلف عن الأنابيب الموسيقية — فى الفتحة التناسلية للفرس ، ثم ينفخون فى الأنابيب بأفواههم • فيجلب بعضهم اللبن ، من تأثير نفخ البعض الآخر • ويقولون انهم يفعلون هذا لانه اذا ما امتلأت أوردة الفرس بالهواء ضغطت على الضرع وجعلته يهبط الى أسفل • ويوضع اللبن الذى يحصل عليه بهذه الكيفية فى جفنات من الخشب يقف حولها العبيد ليقبلوا اللبن • وتعتبر طبقة اللبن التى تطفو على السطح خير الاجزاء جميعا ، وما تحتها أقل أهمية • هذا هو السبب الذى من أجله يعمى السكوثيون جميع أسراهم فى الحروب •

وهذا راجع الى أنهم لا يعرفون شيئا عن فلاحة الارض ، وانما يشتغلون بالرعى .

لما أنجب هؤلاء العبيد والنساء السكوثيات أولادا ، وكبر الاولاد حتى صاروا رجالا ، وعرفوا ظروف نشأتهم ، اعتزموا مقاومة الجيش العائد من ميديا فاقتطعوا أولا بقعة من الأرض فصلوها عن بقية سكوثيا ، بأن أقاموا سدا عريضا ـ يبدأ من الجبال التورية وينتهى عند بحيرة مايوتيس الواسعة ـ وأخيرا .. عندما حاول السكوثيون دخول بلادهم بالقوة ، ساروا اليهم وحاربوهم فلم يحرز السكوثيون أى انتصار . وأخيرا قام من بينهم رجل وخاطب الباقين بقوله : « ما هذا الذى نفعله نحن معشر السكوثيين ؟ اننا نحارب عبيدنا ؛ وبذا ننقص عددنا بوساطة من يسقطون صرعى فى القتال ، كما نقلل من عدد عبيدنا عندما نقتلهم بأيدينا . اعملوا بنصيحتى ، دعوا الرمح والقوس جانبا ، وليحضر كل رجل منكم سوطا كالتى تضرب بها الخيول ، وليذهب اليهم فى جرأة وشجاعة . فكلما رأونا نحمل الاسلحة فى أيدينا ، ظنوا أنفسهم أندادا لنا ؛ ومتساوين معنا فى المولد وفى الشجاعة . أما اذا لم يروا غير السياط فى أيدينا ، شعروا بأنهم عبيد لنا . وعندئذ لا يسعهم الا أن يفروا أمامنا » .

عمل السكوثيون بهذه النصيحة . فذهل العبيد ذهولا بالغا لدرجة أنهم نسوا أن يحاربوا ، وركنوا فى الحال الى الفرار . هذه هى الطريقة التى عاد بها السكوثيون الى ديارهم واستقروا فيها بعد أن حكموا آسيا فترة من الزمن ؛ ثم اضطرهم الميديون الى الجلاء عنها . هذا هو الغزو الذى كان داريوس يتوق الى الانتقام منهم بسببه . وهذا هو الغرض الذى من أجله أخذ الآن يجمع جيشا لغزوهم .

هاك عادات السكوثيين وتقاليدهم فيما يختص بالحروب : يشرب الجندى السكوثى دم أول رجل يصرعه فى الحرب . ومهما بلغ عدد الذين يقتلهم ؛فانه يقطع رءوسهم جميعا ويحملها الى الملك . وبذا يكون له الحق فى اقتسام الغنائم فى حين يضيع منه كل حق اذا لم يحضر أى رأس . ولكى يسلخ جلد الرأس ، يقطع حزا حول الرأس فوق الاذنين ، ثم يمسك بفروة الرأس ويقذف بالجمجمة بعيدا ، بعد ذلك : يأخذ ضلع ثور ويكحت به ظهر الفروة حتى ينظفها تماما من اللحم ، ثم يطريها بأن يدعكها بين يديه ، ويستعملها فوطة بعد ذلك . ويفخر الرجل السكوثى بفروات رءوس القتلى هذه ؛ ويعلقها فى عنان حصانه . وكلما كان عدد الفروات التى يعرضها كبيرا ، عظمت منزلته بين مواطنيه . ويصنع كثير منهم لنفسه معطفا من

هذه الفراء ، أشبه بعباءات فلاحينا • وذلك بأن يخيط عددا من الفروات معا • ومنهم من يسلخ جلد الاذرع اليمنى لاعدائهم القتلى ، ويصنع من الجلد ، الذى ينزع بما فيه من الاظفار ، كسوة لجعبة سهامه • وان جلد الانسان لسميك ولامع ويفوق فى بياضه سائر الجلود الاخرى تقريبا • وبعض منهم يسلخ جلد الجسم كله ؛ ويشده فوق اطار يحمله معـه أينما ذهب • هذه هى تقاليد السكوثيين فيما يختص بفراء الرأس وجلود القتلى من أعدائهم •

واليك الطريقة التى يعالجون بها جماجم الأعداء • والحقيقة أنهـا ليست جماجم كل أعدائهم ، وانما جماجم من يحملون لهم أعظم كراهية • بعد أن يخيطوا أسفل الحواجب وينظفوا ما بداخل الجمجمة ، يكسونها من الخارج بالجلد • هذا كل ما يفعله الرجل الفقير • أما الغنى فيبطن داخل الجمجمة بالذهب • وفى كلتا الحالين ، تستعمل الجمجمة كأسا يشربون منها • وكذلك يفعلون الشىء نفسه مع أصدقائهم وأقاربهم ان كان بينهم ثأر وهزموهم فى حضور الملك • وعندما يزورهم الأغراب يطلعونهم على هذه الجماجم ، ويشرح لهم المضيف قرابة أصحابها له ، وكيف حدثت العداوة بينه وبينهم ، وكيف تغلب عليهم • وذلك لأنهم يعتبرون كل هذه المظاهر من أمارات الشجاعة •

اذا مرض الملك السكوثى أرسل فى طلب ثلاثة من أشهر العرافين فى عصره ، فيتكهنون له هـكذا يقولون : عادة أن الملك مريض لان فـلان ؛ ويذكرون اسمه قد أقسم يمينا كاذبة بالوطيس الملكى • وهذا هو القسم العادى الذى يحلف به السكوثيون عندما يقسمون اليمين على أمر هام • وعندئذ يقبض على من اتهمه العرافون بالحلف كذبا ، ويؤتى به أمام الملك • فيخبره العرافون بأنهم علموا بواسطة فنهم أنه أقسم كذبا بالوطيس الملكى ، وبهذا كان سببا فى مرض الملك ؛ فينكر الرجل التهمة ، ويحتج بشدة ، ويؤكد أنه لم يحلف قط يمينا كاذبة ؛ ويعلن شكواه بصوت عال ويتمسك بأنه مظلوم • عند ذلك يرسل الملك فى طلب ستة عرافين جدد يحكمون فى الامر بوساطة العرافة فاذا وجد هؤلاء أن الرجل مذنب فيمـا نسب اليه ، قطع رأسه فى الحال بوساطة من اتهموه أولا ، واقتسموا أمواله وممتلكاته فيما بينهم • أما اذا برأه هؤلاء ؛ جىء بعرافين غيرهم ، ثم غيرهم ، للتكهن فى هذا الامر • فان برأته الغالبية العظمى منهم ، أعدم من أدانوه أولا •

أما طريقة اعدامهم فهى هكذا : تملأ عربة بالحطب ، وتربط فيها

الثيران . وتقيد أرجل العرافين معا ، وتربط أيديهم خلف ظهورهم ، وتكمم أفواههم ، ويلقون وسط الحطب ثم تشعل النار فى الحطب . واذ تذعر الثيران من اللهب تجرى بالعربة . وغالبا ما تحرق النار العرافين والثيران بيد أنه يحدث أحيانا أن يحترق عريش العربة فتفلت الثيران بعد اصابتها ببعض الحروق . كذلك يحرق الكهنة الكاذبون ، كما يسمون ، بهـــذه الطريقة لأسباب أخرى غير ما ذكرنا وعندما يعدم الملك أحدهم ؛ يحذر من بقاء أى ولد له حيا فيعدم جميع الاولاد الذكور مع أبيهم ؛ ولا يسمح بالبقاء على قيد الحياة لغير الاناث .

توجد قبور ملوك سكوثيا فى أرض الجيرهيين المقيمين بأول موضع يصلح فيــه نهر بوروثينيس للملاحة . فعنــدما يموت الملك يحفرون له قبرا مربع الشكل كبير الحجم . وبعد اعداد القبر ، يأخذون جثة الملك بعد شق البطن واخـــراج ما فيه وتنظيفه ، وملئه بمخلوط من أوراق السنديان المفرية ، واللبان الذكر ، وبذور المقدونس ، وبذور الانيسون . ثم يخيطون الفتحة ويغلقون الجثة بالشمع ويضعونها فوق عربة ، ويطوفون بها على مختلف القبائل . وعندما تتسلم كل قبيلة جثة الملك تقلد مافعله السكوثيون الملكيون فى أول الامر . فيقطع كل رجل قطعة من أذنه ، ويقص شعره ، ويحز حزا حول ذراعه ، ويشرط شقا فى جبهته وأنفه ، ويغرس سهما فى يده اليسرى . بعد ذلك يقوم المكلفون بالجثة بنقلها الى قبيلة أخرى من القبائل الخاضعة لحكم السكوثيين ، ويتبعها أفراد القبيلة التى مرت عليهم الجثة أولا . وبعد تمام الطواف على القبائل التابعة لسلطان السكوثيين فى دولة الجيرهيين الواقعة فى أقصى منطقة ، يذهب القوم بها الى مقابر الملوك حيث توضع جثة الملك الميت فى القبر الذى أعد لها ، ممدة فوق خشبة . وتغرس الرماح فى الارض على كل من جانبى الجثة . ثم توضع ألواح من الخشب فوق الرماح لتكون بمثابة سقف يغطى بأعواد الغاب « البوص » . ويدفنون مع الملك احدى محظياته بعد شنقها ، وكذلك حامل كأسه وطاهيه وسايسه وخادمه الخاص وحامل رسائله ، وبعض خيوله وأوائل ممتلكاته الأخـــرى ، وبعض الــكئوس الذهبيــة ، لانهم لا يستعملون الفضة ولا النحاس . بعد ذلك يشرعون فى عمل كومة فوق القبر . ويتبارى كل منهم فى جعلها مرتفعة قدر المستطاع .

بعد مرور عام على موت الملك ، تقام احتفالات أخرى . فيؤخذ خمسون شابا من خيرة خدم الملك المتوفى ، وكلهم من السكوثيين الوطنيين . ولما كان شراء العبيد غير معروف فى هذه البلاد ، فان ملوك سكوثيا يختارون من يريدون من رعاياهم ليقوموا بخدمتهم ؛ يؤخذ خمسون من هؤلاء

ويشنقون • كما يقتل خمسون جوادا من أجمل الخيول • وبعد موت هذه ، تفتح بطونها وتخرج أحشاؤها وينظف التجويف ويملأ بالتبن ، ويخاط الشق ثانية • وبعد الانتهاء من هذا تدفع عدة أعمدة في الارض زوجين زوجين • ويوضع نصف اطار عجلة فوق كل زوج من هذه الأعمدة ؛ حتى يتكون مايشبه القبو • ثم تدفع سيقان قوية فى أجسام الخيول بطولها ؛ من الذيل الى الرقبة ، ثم ترفع الخيول فوق اطارات العجلات بحيث تستند كتفا الحصان على اطار العجلة الامامى • ويسند الاطار الخلفى البطن والفخذين الخلفيين • أما القوائم فتتدلى فى الهواء • ويوضع فى فم كل حصان لجام وعنان، ويبسط الاخير أمام الحصان ويربط فى وتد • ثم يؤتى بالخمسين شابا المشنوقين ؛ ويوضعون فوق الخمسين حصانا ، ولعمل هذا •• تدفع ساق أخرى فى جسم كل شاب بطول السلسلة الفقرية حتى الرقبة •ويبرز طرفها السفلى من الجسم، ويوضع فى حفرة بالساق التى فى جسم الحصان• وهكذا يرص الخمسون راكبا فى دائرة حول القبر ؛ ويتركون على هـذه الصورة •

هذه هى الكيفية التى يدفن بها الملوك •

الفصل التاسع والعشرون

****

داريوس يغزو سكوثيا

بدأت استعدادات داريوس لغزو سكوثيا • فأوفد الرسل الى جميع الجهات يحملون أوامر الملك • فعلى بعضهم أن يمد الجيش بالجنود • وبعض آخر يمده بالسفن • وغير هؤلاء يقيمون جسرا فوق البوسفور • وفى هذه الاثناء توسل أرتابانوس بن هوستاسبيس ؛ شقيق داريوس، توسل الى الملك أن يتنازل عن هذه الحملة مبينا له المشقات البالغة التى تكتنف الهجوم على سكوثيا • وعلى الرغم من حسن نصيحة أرتابانوس ، فانها لم تفلح فى اقناع داريوس بالرجوع عن تلك الحرب • ولذلك كف عن نصح داريوس • وعندما تمت استعدادات الجيش ، قاده داريوس من سوسا •

حدث أن جاء الى داريوس رجل فارسى يدعى أيوبازوس وكان أبا لثلاثة أولاد ؛ كانوا جميعا ذاهبين مع الجيش • فتوسل أيوبازوس الى الملك أن يسمح لاحد أبنائه بأن يبقى معه • فأجاب داريوس بأنه اذا نظر اليه نظرة صديق تقدم بطلب متواضع : « سيسمح لهم جميعا بالبقاء » فسر أيوبازوس سرورا لا مزيد عليه ؛ متوقعا اعفاء أولاده من الخدمة العسكرية• فأمر الملك خدمه بأن يأخذوا أولاد أيوبازوس ، ويقتلوهم • وهكذا بقوا جميعا ؛ ولكن بعد أن جردوا من حياتهم •

عندما بدأ داريوس سيره من سوسا ؛ ووصل الى منطقة خالكيدون على شواطىء البوسفور حيث أقيم الجسر ؛ ركب سفينة وأبحر الى الجزر الكوانيانية التى تبعا لرواية الاغريق ؛ طفت ذات مرة على وجه الماء • فاتخذ مجلسه فى المعبد ، وطفق يشاهد بحر بونت ، الجدير بحق بكل اعتبار • والحقيقة انه لا يوجد فى الدنيا بحر آخر بتلك الروعة • فيمتد طوله الى أحد عشر ألفا ومائة فورلنج وعرضه فى أكثر أجزائه اتساعا ثلاثة آلاف

وثلثمائة فورلنج • وأما مصبه فعرضه أربعة فورلنجات • ويسمى هذا البوغاز الذى أقيم فوقه جسر داريوس ، باسم البوسفور وطوله مائة وعشرون فورلنجا ، ويمتد بين ايوكسينى وبروبونتيس أما البروبونتيس فعرضه خمسمائة فورلنج وطوله ألف وأربعمائة فورلنج • ويصب مياهه فى الهيلسبونت الذى طوله أربعمائة فورلنج ولا يزيد عرضه على سبعة فورلنجات ويوصل الى بحر متسع يسمى بحر ايجة •

بعد أن انتهى داريوس من تأمله فى البحر ، عاد ثانية الى الجسر الذى أقامه له ماندروكليس أحد الرجال الساميين • كما أنه أمعن النظر فى شواطىء البوسفور ، فأقام عليها عمودين من الرخام الابيض نقش عليهما أسماء جميع الامم التى يتكون منها جيشه • نقش الاسماء على أحد العمودين باللغة الاغريقية ، وعلى العمود الآخر باللغة الاشورية • كان جيشه يتألف من جميع الشعوب الخاضعة لحكمه • وفيما عدا رجال البحرية ، كان جيشه يبلغ سبعمائة ألف رجل ، بما فيهم الفرسان • أما الاسطول فكان قوامه ستمائة سفينة • وبعد ذلك بمدة ، نقل البيزنطيون هذين العمودين الى مدينتهم ، واستخدموهما فى اقامة مذبح لديانا الارثوسية وتركوا قطعة منهما بجوار معبد باخوص فى بيزنطة ، وكانت مليئة بالكتابة الاشورية • وبحسب تخمينى ، يقع الموضع الذىأقام فيه داريوس الجسر على البوسفور فى منتصف المسافة بين مدينة بيزنطة والمعبد القائم عند مدخل البوغاز •

سر داريوس أيما سرور بالجسر الذى أقامه ماندروكليس السيامى فوق ذلك البوغاز ؛ لدرجة أنه لم يمنحه الجوائز العادية فحسب ، بل وأعطاه عشرة من كل نوع منها • ولكى يقدم ماندروكليس أولى هذه الجوائز؛ عمل على صنع صورة للجسر كله ، ظهر فيها داريوس وهو يتبوأ مجلس الصدارة ، وجيشه يمر من فوق تلك القنطرة ، ثم قدم هذه الصورة لمعبد جونوفى ساموس •

بعد أن كافأ داريوس •• ماندروكليس ؛ عبر البحر الى أوربا ، وأمر الايونيين بدخول بحر بونتوس والابحار الى مصب نهر ايستر ، حيث أمر باقامة جسر فوق ذلك النهر ، وانتظار مجيئه • كانت البحرية تتكون أساسا من الايونيين والايوليين ، وسكان الهيلسبونت • وعلى ذلك أبحر الاسطول مارا بالجزر الكوابنانية ، واتجه رأسا الى نهر ايستر ، ودخل ذلك النهر حتى المكان الذى يتفرع فيه مجراه وهذا يقع على مسافة ابحار يومين من البحر • وألقى مراسيه هناك • وفى ذلك الوقت اجتاز داريوس البوسفور وسار خلال تراقية • واذ عثر على منابع التيروس أقام معسكره وظل هناك ثلاثة أيام •

يقول جميع من يسكنون بجوار التيروس ، انه صحى أكثر من أى نهر آخر ، ويشفى أمراضا عدة منها الجرب سواء أصيب به الانسان أو الحيوان • وتستمد منابعه •• التى يبلغ عددها ثمانية وثلاثين منبعا •• ماءها من صخرة واحدة • وبعض هذه المنابع بارد ؛ فى حين أن بعضها الآخر ساخن • وتقع جميعا فى منتصف المسافة بين مدينة هيرمايوم القريبة من بيرنيثوس وبين مدينة أبولونيا الواقعة على نهر ايوكسينى ؛ وتبلغ مسيرة يومين من كل من هاتين المدينتين • ونهر تيروس هذا ، هو أحد روافد نهر كونتاديسدوس الذى يصب فى نهر أجريانيس ، وهذا بدوره يصب فى نهر هيبروس ، الذى يصب فى البحر قرب مدينة أينوس •

توقف داريوس عند شواطىء نهر التيروس حيث أقام معسكره • وقد أعجبه هذا النهر لدرجة أنه أمر باقامة عمود على شاطئه فى ذلك الموضع ، ونقش عليه « ان منابع نهر التيروس لتخرج مياها أجود وأجمل من مياه الانهار طرا • لقد زارها أجمل الرجال جميعا ؛ داريوس بن هوستاسبيس ملك الفرس وجميع القارة أثناء مسيره لمحاربة سكوثيا » هذه هى العبارة التى نقشها على النصب الذى أقامه فى ذلك الموضع •

واصل داريوس سيره حتى بلغ نهرا ثانيا يسمى أرتيسكوس ، يجرى خلال بلادالاودريسيين ysians وعند ذلك حدد موضعا ، وأمر بأن يلقى كل جندى من جيشه حجرا أثناء سيره • فلما أطاع الجنود أمره ، واصل سيره تاركا خلفه تلالا عظيمة من الاحجار التى قذفها جنوده •

لما بلغ داريوس نهر الايستر بجيشه البرى ، أمر جنوده بأن يعبروا النهر وبعد أن اجتازوا جميعا ؛ أمر الايونيين بأن يهدموا القنطرة التى مر فوقها ، ثم يتبعوه بكامل القوة البحرية ؛ فى مسيرة على البر • كانوا على وشك تنفيذ أمره لولا أن تقدم كوويس coes بن ايركساندر قائد الميتيلينيانيين mytilenaeens من داريوس، وسأله أولا عما اذا كان الملك يسمح بأن يسمع كلام رجل يرغب فى الافضاء بما يجول فى نفسه، ثم قال : انك ؛ يا مولاى ؛ على وشك مهاجمة بلد ليس فيه أى جزء مزروع، ولا يوجد به أية مدينة مسكونة • وعلى ذلك ينبغى أن تترك هذه القنطرة كما هى، وتترك من أقاموها لحراستها• فاذا التقينا بالسكوثيين وهزمناهم؛ كما أتعشم ، أمكننا العودة من هذا الطريق • أما اذا لم نستطع أن نعثر عليهم ؛ أمكننا أن نضمن تقهقرنا فى أمان ، فاننى لا أخشى أن يهزمنا السكوثيون فى القتال ؛ وانما كل ما أخافه هو أن نخفق فى العثور عليهم، وعندئذ نتكبد خسائر جسيمة ونحن نسير فى بلادهم • ولربما يقول

قائل اننى أبدى نصيحتى هذه أملا فى السماح لى بالبقاء هنا • بيد أن الحقيقة هى أنه لا قصد لى سوى أن أشير بما أرى أنه خير سبيل نسلكه • كما أننى لا أقبل أن أتخلف هنا مع من سيبقون لحراسة الجسر • وانما أعتزم أن أتبعك فى جميع الحالات • فسر داريوس من نصيحة كوويس ؛ ورد عليه بقوله : « أيها المتيلينى العزيز ؛ عندما أعود سالما الى قصرى ؛ لا بد أن تحضر الى لأكافئك بالاعمال الطيبة على نصيحتك الطيبة التى أبديتها لى اليوم •

بعد أن أتم الملك كلامه أخذ سيرا من الجلد ؛ وعقد فيه ستين عقدة • ثم استدعى اليه جميع رؤساء الايونيين ؛ وتحدث اليهم بقوله : « أيا رجال أيونيا ، لقد سحبت أوامرى السابقة بخصوص ذلك الجسر • انظروا ها هو ذا سير من الجلد خذوه ونفذوا كل ما آمركم به بخصوصه •• ابتداء من اليوم الذى أترككم فيه قاصدا سكوثيا ، حلوا كل يوم عقدة • فاذا لم أرجع قبل اليوم الذى تحلون فيه آخر عقدة ؛ فغادروا مكانكم وعودوا فى البحر الى مختلف أوطانكم • وفى تلك الأثناء يجب أن تعرفوا أننى غيرت رأيى بشأن هذه القنطرة التى يجب أن تقوموا بحراستها بكل عناية ! وبالمحافظة على سلامتها وبقائها • بهذا تسروننى أبلغ السرور » •

وما ان قال داريوس هذه الأقوال ، حتى شرع يسير بكل سرعة •

الفصل الثلاثون

****

القبائل السكوثية

تشاور السكوثيون فيما بينهم بشأن تلك الظروف التى استجدت عندهم · فوجدوا أن قوتهم وحدهم ؛ ليست كافية للوقوف أمام جيش داريوس فى القتال وجها لوجه وعلى ذلك أوفدوا رسلا الى الشعوب المجاورة لهم والتى كان ملوكها قد اجتمعوا للتشاور فى موضوع الهجوم الذى سيقوم به عليهم مثل ذلك الجيش العرمرم · لقد اجتمع ملوك الناوريين ؛ والاجاثورسيين ؛ والنيوريين ، والاندروفاجيين ! والميلانخلانيين ، والجيلونيين ، والبودينيين ، والساوروماتيين ·

كانت تقاليد الناوريين تقضى بأن يضحوا للعذراء بجميع الاشخاص الناجين من السفن المحطمة ! وبجميع الاغارقة الذين تضطرهم الاحوال الجوية الى الجنوح الى البر · وهاك طريقتهم فى التضحية بهؤلاء : بعد اتمام الاحتفالات التمهيدية ، يضربون الضحية على رأسه بهراوة ثم يقذفون بجثته من فوق صخرة شاهقة فيسقط الى الهوة السحيقة حيث يوجد المعبد · أما الرأس فيثبتونه الى صليب ·

والأجاثورسيون قوم بالغو الترف مولعون أشد الولع بالتحلى بالذهب· وزوجاتهم مشاعات فيما بينهم جميعا حتى يكونوا كلهم اخوة · كأعضاء فى أسرة واحدة ؛ لا يحسد أحد منهم الآخر ولا يحمل له حقدا ولا ضغينة ·

وعادات النيوريين شبيهة بعادات السكوثيين · وقد حدث قبل هجوم داريوس أن هجر أحد الاجيال دياره أمام هجوم جموع كبيرة من الأفاعى غزت بلادهم ؛ كانت بعض تلك الافاعى مما تربى فى بلادهم ؛ والبعض الآخر وفد اليهم من الصحراء الشمالية واذ أصيبوا بخسائر فادحة من جراء هذه المصيبة ، هجروا وطنهم ولجئوا الى بلاد البودينيين ·

أما الاندروفاجيون فأشد وحشية من أى شعب آخر • فهم لايعرفون العدالة ولا يخضعون لاية قوانين • انهم قوم رحل ، يلبسون الزى السكوثى ويتكلمون لغة غريبة عليهم هم أنفسهم • وعلى خلاف أى شعب آخر فى هذه المناطق ، يأكلون لحوم البشر •

ويلبس الميلانخلانيون جميعا عباءات سـوداء ، ومن هنا جاء اسمهم • وعاداتهم سكوثية •

والبودينيون أمة ضخمة قوية ؛ عيونهم جميعا زرقاء ؛ وشـعورهم حمراء زاهية اللون • ويطلقون على مدينتهم اسم «جيلونوس» وتحيط بها أسوار عالية ؛ ويبلغ طولها ثلاثين فورلنجا من كل ناحية • وهى مصنوعة كلها من الخشب • ويتكلم أولئك القوم لغة نصفها اغريقى ونصفها الآخر سكوثى •

ولا يتكلم البودينيون نفس اللغة التى يتكلمها الجيلونيون ؛ كما أنهم يختلفون عنهم فى طريقة معيشتهم • انهم الوطنيون الأصليون لهذه المنطقة، وهم شعب رحل • وعلى خلاف كل جيرانهم يأكلون القمل • أما الجيلونيون فعلى عكس ذلك يفلحون الارض ويأكلون الخبز ، ولديهم حدائق • ويختلفون عن البودينيين فى كل من الهيئة ولون البشرة •

يروى عن الساوروماتيين أنهم عندما اشتبك الاغارقة فى حرب مع شعب الامازون أبحر الاغارقة بعد انتصارهم فى المعركة ؛ وأخذوا معهم ثلاثا من سفنهم مليئة كلها بالنساء الأمازونيات اللوانى وقعن فى الأسر • وما ان ابتعدت السفن عن اليابسة وصارت فى وسط البحر حتى تارت الامازونيات على البحارة وقتلنهم جميعا لآخر رجل ولما كن لا يعرفن شيئا عن الملاحة ولا عن السفن ؛ ولا يعرفن كيف يستخدمن الدفة ولا المجداف ولا الشراع ، ذهبن بعد موت الرجال الى حيث ساقتهن الريح والامواج وأخيرا وصلن الى شواطىء بالوس مايوتيس ، الى الموضع المسمى كريمنى ، أى « الصخور » •• الواقع فى أرض السكوثيين الأحرار فنزلن الى البر وسرن صوب المناطق المسكونة • وعندما التقين بأول سرب من الخيول استولين عليه وامتطين ظهوره ؛ وشرعن فى نهب تلك المنطقة السكوثية •

لم يدر السكوثيون ماذا يعملون ازاء ذلك الهجوم ! • فهم لا يعرفون نوع تلك الثياب التى يرتديها من هاجموهم ولا لغتهم ولا الشعب الذى ينتمون اليه • كانوا يحسبونهم رجالا •• غير أنه عندما وقع فى أيديهم بعض القتلى ، أدركوا الحقيقة • عند ذلك تشاوروا فيما بينهم ؛ فقرروا ألا يقتلوا منهن واحدة بعد ذلك ، وأن يرسلوا اليهن فرقة من أصغر الرجال

سنا ، يقرب عدد أفرادها من عدد النساء حسب تقديرهم • وأن يؤمروا باقامة معسكرهم فى المنطقة القريبة من معسكر أولئك النساء ، وأن يحاكوهن فى كل ما يعملنه واذا تقدمت منهم الامازونيات فعليهم أن ينسحبوا ولا يشتبكوا معهن فى قتال — واذا توقفن ، اقترب منهن الشبان وضربوا فساطيطهم بقرب معسكر أولئك الاعداء ••• فعلوا كل هذا رغبة فى الحصول على ذرية من هذا الشعب الشهير •

بناء على هذا •• رحل الشبان ، ونفذوا الاوامر التى تلقوها حرفيا • وسرعان ماأدركت الامازونيات أن هؤلاء لم يأتوا ليصيبوهن بأذى وعلى ذلك ، لم يقمن من ناحيتهن بمعاكسة السكوثيين بعد ذلك • ثم أخذ المعسكران يقتربان من بعضهما يوما بعد يوم • وكان كل من الفريقين يحيا الحياة نفسها التى يحياها الفريق الآخر • ولم يملك أى منهم شيئا سوى السلاح والخيول • وهكذا اضطروا الى الحصول على قوتهم من الصيد والنهب •

وأخيرا ، تصادف أن التقى اثنان منهم • واستطاع الرجل أن يكسب بسهولة مودة المرأة التى أخبرته بالاشارات (لأن كلا منهما لم يكن يعرف لغة الآخر) أن يحضر معه أحد أصدقائه فى اليوم التالى ، الى الموضع نفسه الذى التقيا فيه • ووعدته بدورها بأن تحضر معها سيدة أخرى • ففعل الشاب ما طلبته منه تلك المرأة وبرت هى بوعدها • فلما سمع بقية الشبان بما حدث ، سعى كل منهم الى اكتساب ود امرأة أمازونية •

ما هى الا فترة وجيزة حتى اندمج المعسكران فى معسكر واحد • وعاشر السكوثيون الامازونيات معاشرة الأزواج • ولم يكن بوسع الرجال أن يتعلموا لغة النساء ، فى حين ان النساء سرعان ماتعلمن لغة الرجال • فلما استطاع كل منهم أن يتفاهم مع الآخر ، قال الرجال للامازونيات : «ان لنا آباء وأمهات ، ولنا ممتلكات ، وبناء على هذا : هيا بنا نترك طريقة الحياة هذه ونرجع الى أمتنا حيث نعيش معهم ستكن زوجاتنا ، ونعدكن بأننا لن نتزوج غيركن » • بيد أن الامازونيات أجبنهم قائلات : « اننا لا نستطيع الحياة مع نسائكم ، لان عاداتنا تختلف عن عاداتهن تمام الاختلاف ، فديدننا جذب القوس وقذف الرمح وركوب الخيل ، أما شئون السيدات فلا ندرى منها شيئا ، وأما نساؤكم فعلى نقيض ذلك لا يفعلن شيئا من هذا ، بل يقضين حياتهن داخل العربات حيث يقمن بالاعمال النسوية ، ولا يخرجن قط للصيد أو لعمل أى شىء • لا يمكن أن نتفق واياهن اطلاقا • ولكن ، ان كانت لكم رغبة حقيقية فى الاحتفاظ بنا

كزوجات لكم ، ومعاملتنا بعدل واخلاص ، فاذهبوا الى والديكم فى بلدكم ، واطلبوا أن يعطوكم ميراثكم ، ثم عودوا الينا لنعيش وحدنا معا » ٠

استصوب الشبان مشورة السيدات وعملوا بها ٠ فذهبوا وأخذوا نصيبهم من الممتلكات ثم عادوا الى زوجاتهم اللائى خاطبنهم عند اذ بقولهن: « اننا لنخجل ونخاف من أن نعيش فى هذه البلاد التى نحن فيها الآن ٠ فلم نسرقكم من آبائكم فحسب ، بل وأصبنا سكوثيا بأضرار جسيمة ؛ بوساطة غاراتنا للسلب والسرقة ٠ وبما أنكم تحبوننا كزوجات ، نرجو أن توافقوا على الطلب الذى سنطلبه منكم ٠ هيا بنا نهجر هذه الديار كلية ونرحل فنعيش فيما وراء نهر تانايس ٠ ومرة أخرى وافق الشبان ٠

بعد أن عبروا نهر تانايس ؛ اتجهوا شرقا الى مسيرة ثلاثة أيام من ذلك النهر ٠ ثم اتجهوا شمالا الى مسيرة ثلاثة أيام من بالوس‌مايوتيس ؛ حيث وصلوا الى المكان الذى يعيشون فيه الآن ؛ واتخذوه مسكنا لهم ٠ ولا تزال نساء الساوروماتيين محافظات على عاداتهن منذ ذلك الوقت حتى اليوم ٠ يمارسن الصيد وهن على ظهور الخيل بصحبة أزواجهن ، وأحيانا وحدهن ٠ وفى الحرب ، ينزلن الى معمعان القتال مرتديات نفس الزى الذى يرتديه الرجال ٠

يتكلم الساوروماتيون لغة سكوثيا ٠ ولكنهم لا يتكلمونها صحيحة قط ؛ اذ تعلمتها الأمازونيات سقيمة فى أول الامر ٠ ويقضى قانون الزواج عندهم ألا تتزوج فتاة ما الا اذا قتلت رجلا فى معركة ٠ ويحدث أحيانا أن تظل سيدة بغير زواج الى سن متقدمة ، لانها لم تستطع القيام بهذا الشرط ٠

لما دخل مبعوثو سكوثيا الى حضرة ملوك هذه الشعوب الذين كانوا مجتمعين للمداولة أخبروهم بأن ملك الفرس ، بعد أن أخضع القارة كلها ؛ أقام قنطرة فوق بوغاز البوسفور ، واجتازه الى قارة أوربا ، حيث أخضع التراقيين ٠ وانه ليقيم الآن قنطرة فوق نهر ايستر قاصدا أن يخضع أوربا كلها لحكمه ٠

تداول الملوك المجتمعون بعد أن سمعوا ماقاله السكوثيون ٠ وفى النهاية انقسموا فى الآراء ٠ فاتفق ملوك الجيلونيين والساوروماتيين والبودينيين ، وتعهدوا بتقديم المساعدة للسكوثيين٠ أما ملوك الاجاثورسيين والنيوريين والاندروفاجيين والميلانخلانيين والثاوريين ، فردوا على الطلب الذى تقدم به اليهم السكوثيون ، هكذا : « اذا لم تكونوا قد بدأتم

بمحاربة الفرس ، لوجدنا طلبكم عادلا ، ولوافقنا على رغباتكم وضممنا قواتنـــا الى قواتكم • ولكن الذى حدث هو : أنكم انفردتم ، بدوننا • بغزو أرض الفرس• وطيلةالمدة التىوهبكم الربفيها القوة ، استخدمتموها فى أن تحكموها • والآن ، لما رفعهم نفس الرب ، أتوا اليكم ليفعلوا بكم مثل ما سبق أن فعلتم بهم • أما نحن فلم يسبق أن تعرضنا بالأذى لأولئك القوم فى الحرب الماضية ، ولن نكون البادئين بالأذى الآن • فاذا غزوا أرضنا وبدءوا بالاعتداء علينا ، فلن نسمح لهم به • ولكننا سنظل فى أرضنا حتى نرى ذلك يحدث منهم • لأننا نعتقد أن الفرس قد حضروا الآن ، لا ليهجموا علينا ، بل ليعاقبوكم أنتم يامن اعتديتم عليهم أولا » •

عندما وصل هـــذا الرد الى السكوثيين ، قرروا ، بســـبب رفض جيرانهم محالفتهم ، ألا يشتبكوا مع العدو فى أية معركة وجها لوجه ، وانما ينسحبون أمامهم ، ويأخذون معهم قطعانهم ، يردمون جميع الآبار والعيون فى أثناء تقهقرهم ، ويتركون البلاد كلها جرداء وخالية من الكلأ •

الفصل الحادى والثلاثون

****

الحملة السكوثية

لما قر قرار السكوثيين على اتخاذ هذه التدابير ، خرجوا لملاقاة جيش داريوس يسبقهم أسرع فرسانهم ليكونوا طليعة الاستكشاف . وأرسلوا أمامهم ، فى أثناء تقهقرهم ، عرباتهم التى تحمل نساءهم وأطفالهم وجميع ماشيتهم ماخلا عددا قليلا بقدر حاجتهم الى الطعام . على أن تواصل العربات سيرها نحو الشمال دون أن تغير اتجاهها .

وجد الكشافة السكوثيون أن الجيش الفارسى قد تقدم بعد نهر الايستر بمسيرة ثلاثة أيام . وفى الحال تقدموه بمسيرة يوم واحد وهم يقيمون معسكرهم من آن الى آخر ويتلفون كل زرع فى الارض . وما ان لمح الفرس فرسان السكوثيين حتى جدوا فى السير وراءهم فى الطريق نفسها ، فى حين كان هؤلاء يتقهقرون باستمرار .

فلما بلغ داريوس الصحراء توقف عن المطاردة ، واستراح بجيشه على ضفاف نهر الاواروس حيث أنشأ يبنى ثمانية حصون ضخمة يبعد كل منها عن الآخر بمسافات متساوية تبلغ ستين فورلنجا أو ما يقرب من ذلك . وكانت بقايا تلك الحصون لا تزال موجودة فى عصرى . وطيلة الوقت الذى شغل فيه داريوس ببناء الحصون ، دار السكوثيون الذين كان يطاردهم ، حول المناطق العليا راجعين الى سكوثيا . فلما رأى داريوس أنهم قد اختفوا تماما ، ترك حصونه دون أن يتمها ، وعاد متجها الى الغرب ، ظانا أن السكوثيين الذين رآهم من قبل هم الأمة كلها ، وأنهم هربوا فى ذلك الاتجاه . فأسرع فى السير ودخل سكوثيا حيث التقى بقسمى الجيش السكوثى المنضمين وفى الحال أخذ فى مطاردتهما . فظل السكوثيون فى خطتهم من التقهقر أمامه باستمرار ، جاعلين المسافة بينهم وبينه مسيرة يوم واحد . فى وقت طفق هو فيه يجد فى مطاردتهم ، وهم

يقودونه – تبعا للخطة التى سبق أن وضعوها ؛ الى بلاد الشعوب التى رفضت محالفتهم فقادوه أولا الى أرض الميلانخلانيين • فحدثت فوضى بالغة بين أولئك القوم بسبب غزو السكوثيين لهم أولا ، ثم الفرس • وبعد أن أوقع السكوثيون هؤلاء القوم فى حيص بيص ، اتخذوا طريقهم الى بلاد الأندروفاجيين • فكانت النتيجة مماثلة لما حدث لسابقيهم • ثم واصل السكوثيون سيرهم مخترقين بلاد النيوريين ، حيث نشر مجيئهم الذعر بين السكان كما حدث لغيرهم من قبل • وظلوا هكذا فى تقهقرهم حتى بلغوا أرض الاجارثورسيين • بيد أن هذا الشعب لما شاهد ماحدث لجيرانه من فرار وفزع ، لم ينتظر حتى يغزو السكوثيون بلاده ، بل بعث اليهم رسولا يمنعهم اجتياز حدوده ويحذرهم من أنهم اذا حاولوا دخول بلاده ، قاومهم بقوة السلاح • وعندئذ وقف الاجاثورسيون عند حدودهم للدفاع عنها ضد الغزاة • أما من سبقوهم من الميلانخلانيين والاندروفاجيين والنيوريين ، فبدلا من الدفاع عن أنفسهم، عندما دخل السكوثيون والفرس بلادهم ، نسوا تهديدهم السابق وفروا فى فوضى الى الصحارى الواقعة جهة الشمال • وعندما رفض الاجارثوسيون دخول السكوثيين الى بلادهم ، انسحب هؤلاء الأخيرون وعادوا أدراجهم ليقودوا الفرس من بلاد النيوريين الى بلادهم سكوثيا نفسها •

ظلت الحال على هذا المنوال مدة طويلة ، وبدا للفرس أن ذلك الزوغان لن ينتهى • وأخيرا أرسل داريوس فارسا الى ايدانثورسوس ملك سكوثيا ، بهذه الرسالة : « أيها الرجل الغريب الاطوار ! لم تلجأ الى دوام الهروب أمامى فى حين أن هناك طريقين يمكنك اتخاذ أحدهما فى سهولة ؟ فان كنت تعتبر نفسك قادرا على صد جيوشى ، فاترك هذا التجوال وتعال الى ، واشتبك معى فى معركة • وان كنت ترى أن قوتى أعظم من قوتك • وحتى فى هذه الحال •• يجب أن تكف عن الفرار • وجب عليك أن تحضر بعض الثرى والماء الى مولاك وتأتى للتفاوض » •

فأجاب ايدانثورسوس ملك سكوثيا على هذه الرسالة بقوله : « هذه هى طريقتى ، أيها الفارسى • لن أخاف قط أى رجل ، ولن أهرب منه • لم يسبق أن فعلت هذا فيما مضى ، كما أننى لا أهرب منك الآن • ما من شيء جديد أو غريب فيما أفعله ؛ بل أسير على نظام حياتى العادى الذى أتبعه فى أيام السلم • والآن ، أخبرك بالسبب الذى من أجله لم ألتحم معك فى معركة • ليس لنا – نحن معشر السكوثيين – مدن ولا أرض مزروعة تضطرنا – خوفا من استيلائك عليها أو نهبها – الى الاسراع بمقابلتك ومع هذا ، فلو كنت متلهفا الى قتالنا بسرعة ، فهناك قبور آبائنا • اذهب

اليهـا أولا ؛ وحاول أن تشتبك معهم · عنـدئذ سوف ترى ما اذا كنـا سنقاتلك أو لا نقاتلك · فاذا لم تفعل هذا ، فكن على يقين من أننا لن نلتحم معك فى موقعة الا اذا راق لنا ذلك · هذا هو ردى على طلب القتال· أما من حيث المولى ، فلا أعترف بمولى سوى جوف سلفى ، وفيستا الملكة السكوثية السابقة · وأما الثرى والماء اللذان تطلبهما فلن أرسلهما لك ، غير أنك ستتلقى منى هدايا أكثر ملاءمة لك · وأخيرا أقول لك ، نظير تسمية نفسك مولاى : «اذهب وابك» · (هذا هو مايعنيه الناس بطريقة الكلام السكوثية) · وهكذا عاد الرسول يحمل هذه الرسالة الى داريوس·

فى تلك الأثناء ، اعتزمت الفرقة السكوثية التى بقيت فى البلاد ألا تقود الفرس بعد ذلك الى هنا أو الى هناك ، بل أخذت تهجم عليهم كلما جلسوا يتناولون طعامهم · كان السكوثيون ينتظرون حتى ذلك الميعاد ثم ينقضون على الفرس ، تبعا للخطة التى قرروها من قبل · وفى تلك الاغارات كانت الخيول السكوثية تضطر الخيول الفارسـية الى الفرار · وعنـدئذ لا يجد فرسانها بدا من أن يفروا ويلتجئوا الى المشاة الذين كانوا يهبون لنجدتهم دائما · أما السكوثيون فبمجرد أن يسوقوا الخيول ، ينسحبون ثانية خوفا من مشاة الفرس · كما أنهم كانوا يقومون بمثل هذه الغارات ليـلا ·

انتفع الفرس بأمر غريب ضد السكوثيين فى غارات هؤلاء الأخيرين على المعسكر الفارسى · انه نهيق الحمير ومنظر البغال · فكما لاحظت من قبل ، لا تنتج بلاد السكوثيين حميرا ولا بغالا · ولا يوجد بها حمار ولا بغل واحد بسبب البرد · فاذا ما نهقت الحمير ، فزع الفرسان السكوثيون وفى أغلب الاحوال ؛ فى حين تكون المعركة دائرة حامية الوطيس ؛ وتسمع خيول السكوثيين نهيق الحمار ، تفزع وتدور حول نفسها ، وترهف آذانها لسماع ذلك الصوت المنكر ، لانها لم تسمع صوت الحمار من قبل ، ولم تر صورته قط · وبطبيعة الحال ، لم يكن هـذا عديم الأثر على سـير المعركة

لما رأى السكوثيون فزع الفرس ؛ اتخذوا بعض الاجراءات لحثهم على عدم مغادرة سكوثيا ، أملا فى أن يلحقوا بهم ضررا بليغا عندما تنضب مئونتهم · وللقيام بذلك كانوا يتركون بعض ماشيتهم مع الرعاة ، فى حين ينسحبون هم أنفسهم الى مسـافة ما · فيهجم الفرس على الرعاة لسلب الماشية ، ويستولون عليها ، وبذا ترتفع روحهم المعنوية ·

فعل السكوثيون هذا عدة مرات ، حتى جن جنون داريوس أخيرا ·

وعند ذاك بعث الرؤساء السكوثيون الذين كانوا يعرفون من أين تؤكل الكتف ، رسولا الى المعسكر الفارسي يحمل بعض الهدايا للملك ، وهي : عصفور وفأر وضفدعة وخمسة سهام • فسأل الفرس الرسول عن معنى هذه الهدايا • فرد عليهم قائلا : ان الأوامر التي صدرت اليه تقضي عليه بتسليم هذه الهدايا والعودة بأقصى سرعة ، وليس أكثر من هذا • ثم أضاف قائلا : اذا كان الفرس على شيء من الحكمة ، أدركوا معناها بأنفسهم • فلما سمعوا هذا ، عقدوا مجلسا ليتباحثوا في هذا الأمر •

أبدى داريوس رأيه للمجلس يفسر معنى تلك الهدايا ، فقال : ان السكوثيين يريدون تسليم بلادهم له ، برا وبحرا • هذا هو ما استطاع أن يستشفه من معنى هذه الهدايا ؛ لان الفأر يسكن اليابسة ؛ ويأكل الاطعمة نفسها التي يتغذى بها الانسان في حين أن الضفدعة تقضي حياتها في الماء • أما العصفور فيشبه الحصان الى حد كبير • وتدل السهام على تسليم كل قواتهم ؛ بيد أن جوبرياس ؛ أحد السبعة الذين تآمروا ضد المجوسي قام يعارض داريوس في تفسيره ذلك ، قائلا : ان السكوثيين يقصدون بذلك أن يقولوا : «أيها الفرس ، ان لم تتحولوا الى طيور تحلق في جو السماء ، أو تصيروا فيرانا تحفر أجحارها تحت سطح الارض ، أو ضفادع تختفي تحت الماء ، فلن تفلتوا من هذه البلاد ، بل ستلاقون حتفكم بسهامنا •

أما فرقة السكوثيين الوحيدة التي تركت في أول الحرب لحراسة بالوس مايوتيس ، وأوفدت الآن للتحدث مع الايونيين الواقفين عند نهر الايستر ، فلما بلغت القنطرة قالت للأيونيين : « يا رجال أيونيا ، سنعطيكم حريتكم ان فعلتم ما نشير به عليكم • نعلم أن داريوس قد أمركم بالبقاء هنا لحراسة الجسر لمدة ستين يوما ليس غير • وسمح لكم ان لم يحضر اليكم قبل ذلك الموعد ؛ بأن تعودوا الى بلادكم • اذن يجب عليكم أن تفعلوا هكذا لتكونوا بغير لوم أمامنا وأمام داريوس : انتظروا هنا حتى تنقضي المدة التي حددها لكم ، وبعدها •• انصرفوا الى أوطانكم » • فلما وعدهم الايونيون بذلك ، عاد السكوثيون بسرعة بالغة •

الفصل الثاني والثلاثون

****

الأنسحاب من سكوثيا

بعد أن أرسل السكوثيون الهدايا الى داريوس ، كان دور الجيش السكوثى الذى لم يتحرك الى نهر الايستر ، أن يشتبك ، بفرسانه ومشاته ، فى قتال مع الجيش الفارسى· وبدا كأنما الجيشان سيلتحمان؛ ما فى ذلك شك · ولكن حدث أن جرت أرنب بين الفريقين · فأسرع السكوثيون الذين أبصروها بمطاردتها وهم يصيحون ويحدثون فوضى بالغة · فلما سمع داريوس تلك الجلبة استفسر عن سببها فأخبروه بأن السكوثيين قد جروا لصيد أرنب · فاستدار الى من تعود أن يتحدث اليهم ، وقال : « الحقيقة أن أولئك القوم يحتقروننى كل الاحتقار· وأرى الآن أن جوبرياس كان على حق عندما فسر معنى الهدايا · واذ اتفقت واياه فى الرأى الآن ، أرى أن نضع خطة حكيمة نضمن بها الأمان أثناء تقهقرنا وعودتنا الى بلادنا » · فقال جوبرياس : « نعم ، يامولاى ! كنت على يقين تام قبل مجيئى الى هنا من أن هذا شعب صعب المراس · ومنذ حضرنا زاد يقينى ، وخصوصا الآن وقد رأيتهم يلعبون بنا · وعلى هذا فمشورتى هى أنه عندما يخيم الليل ، نوقد النيران كعادتنا فى الايام الماضية ونترك هنا جزءا قليلا من جيشنا ، من الرجال الضعفاء غير القادرين على احتمال المشاق ، كما نترك حميرنا مربوطة الى مذاودها ، ونتراجع عن سكوثيا قبل أن يسير أعداؤنا الى نهر الايستر ويهدموا الجسر أو يتخذ الايونيون قرارا يكون فيه خرابنا » ·

هكذا أشار جوبرياس وعندما أقبل الليل عمل داريوس بنصيحته· فترك جنوده المرضى ومن لا يهتم كثيرا لخسارتهم · وترك معهم الحمير مربوطة فى المعسكر ، وعاد أدراجه · ترك الحمير حتى يسمع العدو نهيقها وترك الرجال لانهم كانوا مرضى وعديمي الفائدة ، حتى يظن العدو أنه

يوشك أن يهجم عليه بخبرة رجاله وفى الوقت ذاته لكى يحرس أولئك الرجال معسكره . وبعد أن أعلن داريوس خطته للرجال ، أمر باشعال النيران ، وبدأ سيره حثيثا صوب نهر الايستر. فلما أحست الحمير برحيل الجيش ، أخذت تنهق عاليا أكثر مما كانت تفعل فى أى وقت مضى . فلما سمع السكوثيون صوتها ، لم يخامرهم أى شك فى أن الفرس لا يزالون فى مكانهم ذاته .

عندما بزغ فجر اليوم التالى ورأى الرجال الفارسيون الباقون بالمعسكر ، أن داريوس خدعهم ، رفعوا أيديهم الى السكوثيين ؛ وتحدثوا اليهم بما يناسب موقفهم . فما أن سمع العدو بذلك حتى ضم جميع قواته معا ، كما انضم اليه كل حلفائه من الساوروماتين والجيلونيين والبودينيين وشرعوا يجدون فى مطاردة داريوس ، واتجهوا مباشرة نحو نهر ايستر . ولما كان أغلب الجيش الفارسى من المشاة ولا يعلمون شيئا عن الطرق القريبة فى تلك البلاد فى حين كان السكوتيون كلهم من الفرسان؛ ويعرفون أقصر الطرق . وهكذا حدث أن الجيشين لم يلتقيا . فوصل السكوثيون الى الجسر قبل أعدائهم . فلما وجدوا أن الفرس لم يصلوا بعد ، خاطبوا الايونيين الذين كانوا على ظهور سفنهم ، وقالوا : « يا رجال أيونيا !! لقد انتهى موعدكم ، ومن الخطأ أن تبقوا هنا. لا شك فى أن الخوف هو الذى حجزكم والآن يحق لكم أن تهدموا الجسر وأنتم مطمئنون، وتسرعوا عائدين الى وطنكم ، وتفرحوا بنيل حريتكم ؛ وتشكروا من أجلها الآلهة والسكوثيين . أما نحن فسنتولى أمر مولاكم وسيدكم السابق . ولن يقاتل أى أحد منكم بعد ذلك » .

عندئذ عقد الايونيون مجلسا . فقام مليتاديس الاثينى ملك الخيرسونيسيين المقيمين على الهيلسبونت ، ورئيسهم على نهر الايستر ونصح القواد الآخرين بأن يفعلوا حسب رغبة السكوثيين ويستعيدوا الحرية لايونيا . غير أن هيستيايوس الميليسى عارض هذه الفكرة بقوله : « اننا لا نتمتع بعروشنا فى مختلف دولنا الا عن طريق داريوس . فاذا أطيح بقوته فلن أبقى سيدا على ميليتوس ، ولا تبقى أنت ملكا على مدنك فما من مدينة منها تفضل الملكية على الديمقراطية » . فلما سمع بقية الرؤساء الذين كانوا على وشك الموافقة على كلام هيستياديس ، غيروا آراءهم مؤيدين هذا الاخير .

واذا اعتزم الرؤساء الأغارقة العمل بنصيحة هيستيايوس ، قرروا فيما بينهم أن يردوا على السكوثيين ويفعلوا هكذا : أن يتظاهروا بموافقة

السكوثيين • ولكى يرى هؤلاء انهم يهدمون الجسر فى حين أنهم فى الحقيقة لا يعملون شيئا ذا أهمية • ولكى يمنعوهم فى الوقت ذاته من عبور نهر الايستر بالقوة عن طريق ذلك الجسر ، أن يهدموا الجسر المستند فوق أرض سكوثيا الى مسافة قاب قوسين من ضفة النهر • فقام هيستيايوس وخاطب السكوثيين ، باسم جميع الاغارقة ، قائلا . « ما أروع نصيحتكم ، أيها السكوثيون • وحسنا فعلتم بالمجىء الينا بهذه السرعة فقد أرشدتمونا الى الطريق الصحيح • وهاأنتم ترون بعيونكم ، أننا نهدم الجسر • ثقوا بأننا سنبذل قصارى جهدنا فى سبيل نيل حريتنا • وفى الوقت نفسه ، الذى ننكب فيه على عملنـــا ، من واجبكم أن تبحثـــوا عن الفرس ، من أجلنا ومن أجلكم ، وأن تنتقموا منهم بما يستحقون ! »

وثق السكوثيون بوعود رؤساء الأيونيين ، وعادوا أدراجهم أملا فى الالتقاء بالجيش الفارسى • ومع ذلك فلم يعثروا له على أثر • ويقع اللوم فى ذلك على الخطوات التى اتخذوها فى أول الامر • فلو لم يتلفوا جميع المراعى ، ولم يردموا جميع الآبار والعيون الموجودة فى بلادهم ؛ لسهل عليهم أن يعثروا على الفرس متى أرادوا • ولكن الذى حدث أن الخطةالتى ظنوها حكيمة ، كانت فى الواقع سبب اخفاقهم • لقد ساروا فى طريق به ماء وكلأ لخيولهم ، وأخذوا يبحثون عن خصومهم فيه متوقعين منهم أن يتقهقروا فى ذلك الطريق نفسه الذى يمكن الحصول فيه على هذه الاشياء أما الفرس فساروا فى الطريق الذى سلكوه من قبل ؛ ولم يحيدوا عنـــه اطلاقا • ورغم هذا ، فقد وصلوا الى القنطرة بشق الانفس•وكانوصولهم اليها ليلا • فذعروا غاية الذعر عندما وجدوها مهدمة ، اذ ظنوا أن الايونيين قد رحلوا •

كان بجيش داريوس رجل مصرى ، صوته أدوى من صوت أىرجل آخر فى العالم كله • فأمره داريوس بالوقوف عند حافة الماء وأن ينادى هيستيايوس الميليسى • فلبى هـــذا الرجـــل أمر داريوس ، وســـمعه هيستيايوس من أول نداء • فجاء بالاسطول ليساعد فى عبور الجيش ، وأصلح القنطرة من جديد •

بهاتين الوسيلتين هرب الفرس من سكوثيا ، فى حين كان أعداؤهم يبحثون عنهم بغير جدوى • ومنـــذ ذلك الوقت والسكوثيون يحتقرون الأيونيين ويقولون عنهم : انهم أنذل الناس أحرارا ؛ وأوفى الناس عبيدا! وأكثرهم تملقا لسادتهم •

وبعد أناجتاز داريوس تراقيا،وصل الىسيستوس فى الخيرسونيز،

حيث عبره الى آسيا بمساعدة أسطوله ، تاركا ميجابوزوس الفارسى ليحكم الجانب الاوربى . هذا هو الرجل الذى كرمه داريوس أمام جميع الفارسيين تكريما عظيما ... وكان داريوس يوشك أن يأكل بعض الرمان . فلما كسر أول رمانة سأله أخـــوه أرتابانوس : « ما الذى تريده بكثرة حب الرمان ؟ » . فقال : « أن يكون لدى بعدد حبـوب الرمان من أمثـــال ميجابوزوس . فهذا يسرنى أكثر من أن أكون ملكا على بلاد الاغريق » . هذا هو الاطراء الذى كرم به داريوس ذلك القائد الذى عهد اليه برياسة القوات التى تركها فى أوربا ، ويبلغ عددها حوالى ثمانين ألف رجل .

(تم الكتاب)

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٣
تمهيد	٥
هيرودوت	١٣
الفصل الأول	
أسطورة أيووجوجيس	١٥
الفصل الثانى	
أسطورة أريون	٢٠
الفصل الثالث	
أسطورة سولون	٢٢
الفصل الرابع	
قصة أدراستوس	٢٧
الفصل الخامس	
كرويسوس	٣١
الفصل السادس	
أسطورة كوروس	٤٤
الفصل السابع	
الفرس	٥٩
الفصل الثامن	
ثورة ساردیس	٦٣
الفصل التاسع	
بابل	٦٦

الموضوع | الصفحة

الفصل العاشر

سقوط بابل ٧٢

الفصل الحادى عشر

مصر ٧٨

الفصل الثانى عشر

العادات المصريه ٨٢

الفصل الثالث عشر

حيوانات مصر ٨٤

الفصل الرابع عشر

التقاليد المصريه ٨٨

الفصل الخامس عشر

بعض ملوك مصر ٩٤

الفصل السادس عشر

قصة رامبسيينتوس ٩٩

الفصل السابع عشر

الأهرامات ١٠٣

الفصل الثامن عشر

بعض الأساطير المصرية ١٠٧

الفصل التاسع عشر

قمبيز ١١٣

الفصل العشرون

أعمال قمبيز ١١٩

الفصل الحادى والعشرون

جنون قمبيز ١٢٧

الفصل الثانى والعشرون

أسطورة بوليقراط ١٣١

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث والعشرون

وفاة قمبيز ١٣٤

الفصل الرابع والعشرون

كيف ارتقى داريوس الى العرش ١٣٧

الفصل الخامس والعشرون

بعض قصص غريبة ١٤٧

الفصل السادس والعشرون

داريوس ١٥١

الفصل السابع والعشرون

ثورة بابل ١٥٧

الفصل الثامن والعشرون

عادات السكوثيين ١٦٢

الفصل التاسع والعشرون

داريوس يغزو سكوثيا ١٦٧

الفصل الثلاثون

القبائل السكوثية ١٧١

الفصل الحادى والثلاثون

الحملة السكوثية ١٧٦

الفصل الثانى والثلاثون

الانسحاب من سكوثيا ١٨٠



الدار القومية للطباعة والنشر
(فرع الساحل)



الدار القومية للطباعة والنشر

العـــدد ٧٥
الثمن ٢١ قرشا

